حث الأتباع على تجريد الاتباع

تأليف
أ.د. محمد بن خليفة التميمي

انتقاه واعتنى به
عبد الجبار بن عبد العظيم بن محمد آل ماجد

دار الأمجاد
للطباعة والنشر

ح عبدالجبار عبدالعظيم محمد الماجد، ١٤٣٣هـ

فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر

التميمي، محمد خليفة

حث الأتباع على تجريد الاتباع./ محمد خليفة التميمي ؛ عبدالجبار عبدالعظيم محمد الماجد - الرياض، ١٤٣٣هـ

٢٧٢ص ، ١٧ x ٢٤ سم

ردمك ٦-١٠٢١-٠١-٦٠٣-٩٧٨

١- السيرة النبوية - دفع مطاعن ٢- البدع في الإسلام ٣- الأخلاق الإسلامية أ- الماجد،عبدالجبار عبدالعظيم محمد(محقق) ب- العنوان

ديوي ٢٣٩،٦ ١٤٣٣/٨٨٧٢

رقم الإيداع: ١٤٣٣/٨٨٧٢

ردمك: ٦-١٠٢١-٠١-٦٠٣-٩٧٨

الطَّبْعَةُ الأولى

١٤٤٠هـ - ٢٠١٩م

دار الأماجد

للطباعة والنشر

daralamajid@gmail.com

قامت بطباعته وإخراجه **دار قرطبة** للطباعة والنشر والتوزيع

بيروت - لبنان جوال: ٠٠٩٦١٣٨٣١٠٤٣

dar_kortoba@hotmail.com

حث الأتباع على تجريد الاتباع

تأليف
أ.د. محمد بن خليفة التميمي

انتقاه واعتنى به
عبد الجبار بن عبد العظيم بن محمد آل ماجد

دار الأماجد
للطباعة والنشر

دار قرطبة
للطباعة والنشر

بسم الله الرحمن الرحيم

مُقدِّمة المُعتني بالكتاب

إنَّ الحمد لله، نحمده ونستعينه ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسۡلِمُونَ ﴿١٠٢﴾﴾ [آل عمران].

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفۡسٖ وَٰحِدَةٖ وَخَلَقَ مِنۡهَا زَوۡجَهَا وَبَثَّ مِنۡهُمَا رِجَالٗا كَثِيرٗا وَنِسَآءٗۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِي تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلۡأَرۡحَامَۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيۡكُمۡ رَقِيبٗا ﴿١﴾﴾ [النساء].

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَقُولُواْ قَوۡلٗا سَدِيدٗا ﴿٧٠﴾ يُصۡلِحۡ لَكُمۡ أَعۡمَٰلَكُمۡ وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡ ذُنُوبَكُمۡۗ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدۡ فَازَ فَوۡزًا عَظِيمًا ﴿٧١﴾﴾ [الأحزاب].

أما بعد: فإن أصدق الحديث كتاب الله، وخير الهدي هدي محمد ﷺ، وشر الأمور محدثاتها، وكل محدثة بدعة، وكل بدعة ضلالة، وكل ضلالة في النار.

وبعد: فقد كان الناس قبل مبعث محمد ﷺ في جاهلية جهلاء يعيشون في ظلمات من الشرك والجهل، وتسيطر عليهم الخرافات، ويتطاحنون في نزاعات وصراعات قبلية، يسبي بعضهم بعضاً، ويقتل بعضهم بعضاً، يعيشون في تخلُّف وهمجية وفرقة، شعارهم:

ومَن لَمْ يَذُدْ عَنْ حَوضِهِ بسلاحِهِ   يُهدَّمْ ومَنْ لا يَظلمِ النَّاسَ يُظْلَمِ

حتىٰ إذا أَذِنَ الله لشمس الإسلام أن تُشرق، بَعَثَ محمَّداً ﷺ ليعلن للبشريَّة أنَّه: «**لا إلٰه إلَّا الله، ولا معبود بحق سواه**».

لقد جاء بالتوحيد الذي هو حق الله على العبيد، والغاية العظمى من الخلق: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾﴾ [الذاريات].

به بُعث الرسل صلوات الله وسلامه عليهم وأُنزلت الكتب، ورُفع من أَجله عَلَمُ الجهاد.

ثلَاثَ عشرةَ سَنَةً في مكة والنَّبيُّ ﷺ يدعو إليه، ويغرس جذوره في أعماق النفوس، ويبني أُسُسَهُ ودعائمه في سويداء القلوب، ويثبت أَركانه في الوجدان؛ حتى اتضحت سبيله للسالكين، وبانت معالمه للراغبين، فأَظهر الله الحق وأَزهق الباطل، وأَضاءت القلوبَ أَنوارُ التوحيد الخالص، فَجلتْه من أَوضار الشرك، وصقلته من أَدران التنديد.

لقد جاء النَّبيُّ ﷺ والقلوب أَرضٌ جرداء فسقاها من نمير التوحيد، وأَرواها من سلسبيل الإخلاص، وساقها إلى الله بدليل المتابعة، فاهتزت وربت وأَنبتت من كل زوج بهيج، فعزَّت الأُمَّة بعد ذلتها، واجتمعت بعد فرقتها، وصارت غالبة بعد أن كانت مغلوبة.

بقيت العقيدة علىٰ صفائها ونقائها وطُهرها؛ حتىٰ إذا قضى الله أَمراً كان مفعولاً، ودخل في دين الله من لم يتشرَّب قلبه التوحيد الخالص، حدث في النَّاس الخلل، وتفرَّقت بهم السُّبل، وراجت المذاهب المنحرفة، والأَفكار الهدَّامة، وأَطلَّت الفتن برأسها، وفشت البدع ببؤسها، حتىٰ إذا زاغت الأَبصار، وبلغت القلوب الحناجر، وابتلي المؤمنون وزلزلوا زلزالاً شديداً؛ قيَّض الله من أَئمَّة الهدى، ومصابيح الدجىٰ من يعيد النَّاس إلىٰ مشكاة النبوة وقلعة الإيمان، ويكشف لهم زيوف الباطل، ويدحض شُبَه المبطلين، ويردَّهم إلى منهج السَّلف الصَّالح.

إنَّ المتبصِّر في تاريخ الأُمَّة الإسلاميَّة؛ ليرىٰ أَن عزَّتها وعلوَّها وغلبتها ودينونة الأُمم لها مرتبطة بصفاء عقيدتها، وصدق توجهها إلى الله، واتباعها لأَثر النَّبيِّ ﷺ وسيرها علىٰ منهج السَّلف الصَّالح، واجتماعها علىٰ أَئمَّتها، وعدم منازعتهم في ذلك، وأَنَّ ذلها وضعفها وانخذالها، وتسلط الأُمم عليها مرتبط بانتشار البدع والمحدثات في الدِّين، واتخاذ الأَنداد والشركاء مع الله، وظهور الفِرَق الضالَّة، ونزع يد الطاعة، والخروج على الأَئمَّة.

إنَّ الانحرافات العقدية، والحيدة عن منهج السَّلف الصَّالح، والانخداع بزخرف قول أَرباب المذاهب المنحرفة هو الذي فرق الأُمَّة، وأَضعف قوتها، وكسر شوكتها، والواقع شاهد علىٰ ذلك، ولا مخرج لها من ذلك إلَّا بالرجوع إلىٰ ما كان عليه النَّبي ﷺ وأَصحابه وأَئمَّة الهدىٰ، فلن يصلح آخر هذه الأُمَّة إلَّا بما صلح به أَولها.

وإنَّ النكوص عن جادة التوحيد، والرغبة عن منهج السَّلف الصَّالح، منافاة للعدل، ومجافاة للعقل.

قال تعالىٰ: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْمِيزَانَ لِيَقُومَ ٱلنَّاسُ بِٱلْقِسْطِ﴾ [الحديد: ٢٥].

وإنَّ أَعظم القسط التوحيد، وهو رأس العدل وبه قوامه، وإنَّ أَظلم الظلم الشرك، قال تعالىٰ حكاية عن لقمان في وصيته لابنه: ﴿يَٰبُنَيَّ لَا تُشْرِكْ بِٱللَّهِ إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ [لقمان: ١٣] وإنَّ أَعظم الفرية أَن تُشرك بالله وقد خلقك.

وإذا كان الله ﷻ قد أَمر بالإصلاح، ونهىٰ عن الفساد والإفساد، كما قال جل ثناؤه: ﴿وَلَا تُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَٰحِهَا وَٱدْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا ۚ إِنَّ رَحْمَتَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٥٦﴾﴾ [الأعراف].

فإنَّ أَعظم الإفساد أَن تُفْسَد عقائد النَّاس، وتصوراتهم، وأَفكارهم، ويُقْطَع عليهم الطريق في مسيرهم إلى الله ويُحَاذَ بهم عن الفطرة التي فطرهم الله عليها، ففي الحديث: «**كلُّ مَولُودٍ يُولَدُ على الفطرة، فأَبواهُ يُهوِّدانه أَو يُنصِّرانه أَو يُمجِّسانه**»(١).

ويعضده قول النَّبي ﷺ: «**أَلا إنَّ رَبِّي أَمَرَني أَنْ أُعَلِّمكم ما جَهلتُم، ممَّا عَلمَني يَومي هَذا: كل مالٍ نَحلْتُه عبداً حلال، وإنِّي خَلقتُ عبادي حنفاء كلّهم، وإنَّهم أَتتهم الشياطين فاجتالتْهُم عن دينهم، وحرَّمت عليهم ما أَحللت لهم، وأَمَرَتْهم أَن يُشركوا بي ما لم أُنزل به سلطاناً...**»(٢).

ولا شك أَنَّ هذا أَعظمُ الظلم وأَشنعُه، كيف لا، وقد صار عاقبة ذلك خسرانَ الدُّنيا والآخرة.

وفي هذه الأَزمنة المتأخرة التي حدثت فيها الغِيَرُ، وتزينت الدُّنيا لخُطَّابها، كشف أَهلُ الأَهواء عن أَقنعتهم، وانتشرت بدعُهم، وأُحْيِيَتْ مذاهبُ أَسلافهم بعد أَن كانت بائدة، ونُبِشَتْ كتب لهم كانت منسية، وظهرت أَفكار جديدة، وبرزت جماعات معاصرة متباينة في مقاصدها، مختلفة في توجهاتها، متناقضة في غاياتها ووسائلها، كلما خرجت جماعة أَو فرقة لعنت أُختها، وتطاول أُناسٌ علىٰ قامة التوحيد والسُّنَّة، ولوَّثُوا أَفكار النَّاس، وأَفسدوا عليهم عقائدهم، وهوَّنوا عليهم أَمر الشرك، ورفعوا أَعلام الفتن، ونازعوا ذوي السلطان في سلطانهم، وشاقُّوا الرَّسول من بعد ما تبيَّن لهُم الهُدىٰ، واتبعوا غيرَ سبيل المؤمنين.

ممَّا يوجب على الغيورين من علماء الأُمَّة ودعاة السُّنَّة المقتفين للأَثر؛ القيام بواجب الإبانة عن أُصول الدِّيانة، وتبيين معالم منهج السَّلف، وإيضاح سبيله، وتقريب كتب أَئمَّة الهُدىٰ، وإبرازها بالتحقيق

---

(١) رواه مسلم.
(٢) رواه مسلم.

وشرح عبارات الأئمَّة، وبيان مقاصدهم والعناية بأَمر التوحيد والمنهج في دروسهم وخطبهم ومحاضراتهم ومؤلفاتهم، وإرشاد العباد إلى اتباع خطى النَّبي ﷺ ولزوم سُنَّته، والسَّير علىٰ أَثر أَصحابه امتثالاً لقوله تعالىٰ: ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣١﴾﴾ [آل عمران].

وقول النَّبي ﷺ: «**أُوصيكُم بتَقوَى اللهِ والسَّمعِ والطَّاعَة، وإن كان عَبْداً حَبَشيّاً، فَإنَّهُ مَنْ يَعِشْ مِنْكُمْ بَعْدي فَسَيرى اخْتِلافاً كَثيراً؛ فَعَلَيْكُمْ بِسُنَّتي وسُنَّةِ الخُلَفَاءِ الرَّاشِدينَ المَهْدِيِّينَ؛ تَمَسَّكُوا بها، وَعَضُّوا علَيْهَا بالنَّواجِذِ، وَإيَّاكُمْ وَمُحْدَثاتِ الأُمُورِ؛ فإنَّ كُلَّ مُحْدَثَةٍ بِدْعَة، وَكُلَّ بِدْعَةٍ ضَلالَة**»(١). فهذا هو الصراط المستقيم، الموصل إلىٰ رضا ربِّ العالمين، كما قال تعالىٰ في سورة الأنعام: ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِى مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٥٣﴾﴾. وهو السبيل الذي دعا إليه رسوله محمَّد ﷺ، قال تعالىٰ: ﴿قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِىٓ أَدْعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِى وَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٠٨﴾﴾ [يوسف].

وهو عقيدة الفرقة الناجيَة التي أَخبر عنها النَّبي ﷺ بقوله:

«**لَا تَزَالُ مِنْ أُمَّتي أُمَّةٌ قَائِمَةٌ بِأَمْرِ اللهِ، لَا يَضُرُّهُمْ مَنْ خَذلَهُمْ؛ حَتَّىٰ يأْتِيَهُمْ أَمْرُ اللهِ وَهُمْ عَلَىٰ ذَلِكَ**»(٢).

وهي التي بقيت علىٰ ما كان عليه النَّبي ﷺ وأَصحابه؛ ففي الحديث أَنَّه ﷺ قال: «... **وَإنَّ بَنِي إسرائيل تَفَرَّقَت عَلَىٰ ثنتين وسَبْعِينَ**

---

(١) رواه أبو داود.

(٢) رواه البخاري، باب (٢٨) حديث (٣٦٤١).

مِلَّة، وَتَفْتَرِقُ أُمَّتِي عَلَىٰ ثَلَاثٍ وَسَبْعِينَ مِلَّةً؛ كُلُّهُم في النَّارِ إِلَّا مِلَّةً وَاحِدَةً» قال ـ أَي: عبد الله بن عمرو راوي الحديث ـ: مَنْ هي يا رسول الله؟ قال: «**مَا أَنَا عَلَيْهِ وأَصْحابي**»(١).

ومن هنا تأْتي أهميَّة العناية بهذا الأَمر، وتربية الناشئة عليه، وتصحيح مسيرة الصحوة إليه؛ حتىٰ لا تتشعب بها السُّبل، فتضل في متاهات الأَهواء والفتن.

وقد وفَّق الله ﷻ عدداً من مشايخنا وعلمائنا ونفراً من طلبة العلم المخلصين إلىٰ الاهتمام بهذا الموضوع العظيم تدريساً وتحقيقاً وتأليفاً وكان منهم:

صاحب الفضيلة الشيخ الأستاذ الدكتور محمد بن خليفة التميمي في كتابه الكبير الماتع: «حقوق النبي ﷺ على أمته في ضوء الكتاب والسُّنَّة».

وقد انتقيتُ من هذا الكتاب النفيس البحث الذي يتعلق «بوجوب الإيمان بالنبي ﷺ وطاعته واتباع سُنَّته» رغبتُ إفراده بالنشر لما حواه من فوائد عظيمة وتحقيق بديع وسمَّيته: «**حثُّ الأتباع على تجريد الاتِّباع**» رجاء أن ينفع الله به عموم المسلمين؛ لأن من حقه ﷺ على أمته الإيمان به، والإيمان بالرسول ﷺ هو: تصديقه وطاعته واتباع شريعته، وهذا يعني الانقياد له ﷺ، وذلك بفعل ما أمر به واجتناب ما نهىٰ عنه والالتزام بسُنَّته المطهرة والاعتقاد الجازم أن طاعته طاعة لله جلَّ ثناؤه وأن معصيته ﷺ معصيته لله سبحانه لأنه ﷺ هو الواسطة بين الله وبين الثقلين في تبليغ رسالته جلَّ جلاله.

وسيأتي بيان ذلك في هذا البحث بإذن الله تعالىٰ.

---

(١) رواه الترمذي.

وأسأل الله أن يجزي صاحب الفضيلة الشيخ الأستاذ الدكتور محمد بن خليفة التميمي على هذا الجهد المبارك، وأن يمتعه بالصحة والعافية، ويبارك له في عمره وعلمه وعمله.

كما أسأله ﷻ أن يجعل هذا العمل خالصاً لوجهه الكريم، مقرباً إليه نافعاً لعباده، إنه سميع مجيب.

وصلَّى الله على سيدنا محمد، وآله وصحبه أجمعين.

كتبه
الفَقِيرُ إلَى عَفْوِ رَبِّه
عَبْدُ الجَبَّارِ بْن عَبْدِ العَظِيمِ بْن مُحَمَّدٍ آلُ مَاجِد
غفر الله له ولوالديه ولجميع المسلمين
a.j.majid@hotmail.com

مقدمة المؤلف

الحمد لله الذي أكمل لنا ديننا، وأتمَّ علينا نعمته، ورضي لنا الإسلام ديناً، وأشهد أن لا إلٰه إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله، أرسله بالدين القيم، والملة الحنيفية، وجعله على شريعة من الأمر، أمر باتباعها، وأمره بأن يقول: ﴿قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِىٓ أَدْعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ ۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِى﴾ [يوسف: ١٠٨]، صلَّى الله عليه وعلى آله وسلَّم تسليماً.

وبعد: فإن الله ﷻ لم يخلق الخلق عبثاً، قال تعالى: ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَٰكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ ﴿١١٥﴾﴾ [المؤمنون].

بل خلقهم لغاية ذكرها في كتابه الكريم في أكثر من موضع، فقال تعالى: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْمَوْتَ وَٱلْحَيَوٰةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ۚ﴾ [الملك: ٢].

وقال تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ وَكَانَ عَرْشُهُۥ عَلَى ٱلْمَآءِ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ۗ﴾ [هود: ٧].

وقال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾﴾ [الذاريات].

فالحكمة من خلقه للخلق هي اختبارهم وابتلاؤهم ليجزي المحسن بإحسانه والمسيء بإساءته.

فهذه هي الحكمة من خلقهم أولاً وبعثهم ثانياً. ولذلك لم يتركهم هملاً، بل أرسل إليهم رسله، فكان من سُنَّة الله تبارك وتعالى مُواترة الرسل وتعميم الخلق بهم، بحيث يبعث في كل أمة رسولاً ليقيم هداه وحجته كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِى كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ

وَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلطَّـٰغُوتَ﴾ [النحل: ٣٦]، وقال تعالى: ﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَـٰكَ بِٱلْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا ۚ وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ ﴿٢٤﴾﴾ [فاطر]، وقال تعالى: ﴿ثُمَّ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا تَتْرَا﴾ [المؤمنون: ٤٤]، وقال تعالى: ﴿رُّسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةٌۢ بَعْدَ ٱلرُّسُلِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴿١٦٥﴾﴾ [النساء].
فالرسل هم الواسطة بين الله ﷻ وبين خلقه في تبليغ أمره ونهيه، وإرشاد العباد إلى ما فيه صلاح معاشهم ومعادهم.

وإن الله تبارك وتعالى جعل محمداً ﷺ خاتم النبيين، وأرسله للناس أجمعين، وأكمل له ولأمته الدين، وبعثه على حين فترة من الرسل وظهور الكفر وانطماس السبل، فأحيا به ما درس من معالم الإيمان، وقمع به أهل الشرك والكفر من عبدة الأوثان والنيران والصلبان، وأذل به كفار أهل الكتاب، وأهل الشرك والارتياب، وأقام به منار دينه الذي ارتضاه، وشاد به ذكر من اجتباه من عباده واصطفاه.

فالله ﷻ أرسل محمداً ﷺ للناس رحمة، وأنعم به نعمة يا لها من نعمة، قال تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَـٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَـٰلَمِينَ ﴿١٠٧﴾﴾ [الأنبياء].

وقال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ بَدَّلُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ كُفْرًا﴾ [إبراهيم: ٢٨] وهم الذين لم يؤمنوا بمحمد ﷺ، فإرساله أعظم نعمة أنعم الله به على عباده.

فقد جمع الله لهذه الأمة بخاتم النبيين وإمام المتقين وسيد ولد آدم أجمعين ما فرقه في غيرهم من الفضائل، وزادهم من فضله أنواع الفواضل، بل أتاهم كفلين من رحمته، كما قال تعالى في سورة الحديد: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَءَامِنُوا۟ بِرَسُولِهِۦ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِن رَّحْمَتِهِۦ وَيَجْعَل لَّكُمْ نُورًا تَمْشُونَ بِهِۦ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٢٨﴾ لِّئَلَّا يَعْلَمَ أَهْلُ ٱلْكِتَـٰبِ أَلَّا يَقْدِرُونَ عَلَىٰ شَىْءٍ مِّن فَضْلِ ٱللَّهِ ۙ وَأَنَّ ٱلْفَضْلَ بِيَدِ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٢٩﴾﴾.

وقال ﷺ: «**إنما أجلكم** ـ في أجل من خلا من الأمم ـ **ما بين**

صلاة العصر إلى مغرب الشمس، وإنما مثلكم ومثل اليهود والنصارى كرجل استعمل عمالاً فقال: من يعمل لي إلى نصف النهار على قيراط قيراط؟، فعملت اليهود إلى نصف النهار على قيراط قيراط، ثم قال: من يعمل لي من نصف النهار إلى صلاة العصر على قيراط قيراط؟، فعملت النصارى من نصف النهار إلى صلاة العصر على قيراط قيراط، ثم قال: من يعمل لي من صلاة العصر إلى مغرب الشمس على قيراطين قيراطين؟، ألا فأنتم الذين يعملون من صلاة العصر إلى مغرب الشمس على قيراطين قيراطين، ألا لكم الأجر مرتين، فغضبت اليهود والنصارى، فقالوا: نحن أكثر عملاً وأقل عطاء، قال الله: هل ظلمتكم من حقكم شيئاً؟ قالوا: لا، قال: فإنه فضلي أعطيه من شئت»(١).

«وقد خصَّ الله تعالى محمداً ﷺ بخصائص ميَّزه الله بها على جميع الأنبياء والمرسلين، وجعل له شرعة ومنهاجاً ـ أفضل شرعة وأكمل منهاج مبين ـ كما جعل أمته خير أمة أخرجت للناس، فهم يوفون سبعين أمة هم خيرها وأكرمها على الله(٢) من جميع الأجناس، هداهم الله بكتابه ورسوله لما اختلفوا فيه من الحق قبلهم وجعلهم وسطاً عدلاً خياراً، فهم وسط في توحيد الله وأسمائه وصفاته، وفي الإيمان برسله وكتبه وشرائع دينه من الأمر والنهي والحلال والحرام، فأمرهم بالمعروف ونهاهم عن المنكر، وأحل لهم الطيبات وحرم عليهم الخبائث، فأخرجهم بذلك من الظلمات إلى النور، فحصل لهم ببركة رسالته ويمن سفارته خير الدنيا والآخرة.

فلقد هدى الله الناس ببركة نبوة محمد ﷺ، وبما جاء به من

---

(١) أخرجه بهذا اللفظ البخاري في صحيحه، كتاب الأنبياء، باب ما ذكر عن بني إسرائيل. فتح الباري (٦/ ٤٩٥ ـ ٤٩٦) (ح٣٤٥٩).

(٢) انظر في هذا الموضوع وأدلته: المبحث الثالث من الفصل الأول من الباب الثالث.

البينات والهدى هداية جلَّت عن وصف الواصفين وفاقت معرفة العارفين، حتى حصل لأمته المؤمنين به عموماً، ولأولي العلم منهم خصوصاً من العلم النافع، والعمل الصالح، والأخلاق العظيمة، والسنن المستقيمة، ما لو جمعت حكمة سائر الأمم علماً وعملاً ـ الخالصة من كل شوب ـ إلى الحكمة التي بعث بها لتفاوتا تفاوتاً يمنع معرفة قدر النسبة بينهما، فللَّه الحمد والمنة كما يحب ربنا ويرضى»(١).

فهو المبعوث بالهدى ودين الحق بين يدي الساعة بشيراً ونذيراً وداعياً إلى الله بإذنه وسراجاً منيراً، فكمل الله به الرسالة، وهدى به من الضلالة، وعلم به من الجهالة، وفتح برسالته أعيناً عمياً، وآذاناً صماً، وقلوباً غلفاً، فأشرقت برسالته الأرض بعد ظلماتها، وتألفت به القلوب بعد شتاتها، فأقام بها الملة العوجاء، وأوضح بها المحجة البيضاء، فبيَّن عن طريقه ﷺ الكفر من الإيمان، والربح من الخسران، والهدى من الضلال، وأهل الجنة من أهل النار، والمتقين من الفجار، فهو المبعوث رحمة للعالمين، ومحجة للسالكين وحجة على الخلائق أجمعين.

ولقد نوَّه الله ﷻ في كتابه الكريم بهذه النعمة العظمى التي امتن بها على هذه الأمة في آيات كثيرة منها:

قوله تعالى: ﴿لَقَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا۟ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَـٰلٍ مُّبِينٍ ﴿١٦٤﴾﴾ [آل عمران].

وقال تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى بَعَثَ فِى ٱلْأُمِّيِّـۧنَ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا۟ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَـٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٢﴾ وَءَاخَرِينَ مِنْهُمْ لَمَّا يَلْحَقُوا۟ بِهِمْ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٣﴾ ذَٰلِكَ فَضْلُ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٤﴾﴾ [الجمعة].

---

(١) اقتضاء الصراط المستقيم (ص٣).

وقال تعالى: ﴿كَمَآ أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولًا مِّنكُمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْكُمْ ءَايَـٰتِنَا وَيُزَكِّيكُمْ وَيُعَلِّمُكُمُ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمْ تَكُونُوا۟ تَعْلَمُونَ ﴿١٥١﴾ فَٱذْكُرُونِىٓ أَذْكُرْكُمْ وَٱشْكُرُوا۟ لِى وَلَا تَكْفُرُونِ ﴿١٥٢﴾﴾ [البقرة].

وقال تعالى: ﴿لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢٨﴾﴾ [التوبة].

وإنما كان إرساله ﷺ إلى الناس أعظم منَّة امتن بها على عباده لأن في ذلك تخليص من وفَّقه الله وهداه منهم من العذاب السرمدي، وذلك بسبب الإيمان بالله ورسوله، والابتعاد عن كل ما يوجب دخول النار والخلود فيها.

ولذلك فإن الناس أحوج ما يكونون إلى الإيمان بالرسول ﷺ والأخذ بما جاء به من الدين، فهم أحوَج إلى ذلك من الطعام والشراب بل ومن نفس الهواء الذي يتنفسونه، فإنهم متى فقدوا ذلك فالنار جزاء من كذب بالرسول وتولى عن طاعته كما قال تعالى: ﴿فَأَنذَرْتُكُمْ نَارًا تَلَظَّىٰ ﴿١٤﴾ لَا يَصْلَىٰهَآ إِلَّا ٱلْأَشْقَى ﴿١٥﴾ ٱلَّذِى كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ ﴿١٦﴾﴾ [الليل]؛ أي: كذَّب به وتولى عن طاعته، فهم محتاجون إلى الإيمان بالرسول وطاعته والأخذ بما جاء به والالتزام بذلك في كل مكان وزمان ليلاً ونهاراً، سفراً وحضراً، سراً وعلانية.

ولما كانت منزلة النبي ﷺ عند ربه بهذه المرتبة وكانت حاجة الناس إليه بهذه الدرجة، فقد أوجب الله لنبيه ﷺ على هذه الأمة جملة من الحقوق والواجبات تنظم العلاقة التي تربطهم به تنظيفاً دقيقاً لا لبس فيه ولا اشتباه.

وهذه الحقوق منها ما يتصل بجانب الرسالة التي بعث بها، ومنها ما يتعلق بخاصة شخص الرسول ﷺ تفضيلاً وتكريماً من الله له.

وقد وردت في شأن تلك الحقوق نصوص كثيرة في كتاب الله ﷻ وسُنَّة نبيه ﷺ، وضَّحت وفصَّلت وبيَّنت جوانب تلك الحقوق.

وهذه الحقوق في جملتها هي الأصل الثاني من أصلَي الدين كما يدل عليه قولنا: «أشهد أن لا إله إلا الله، وأشهد أن محمداً رسول الله».

ولذا فقد كان لزاماً على كل من ينطق بهذه الشهادة، ويدين الله بهذا الدين، أن يحيط بتلك الحقوق معرفة، ويلتزم بها اعتقاداً وقولاً وعملاً، فذلك عقد من عقود الإيمان الذي لا يحصل إيمان العبد إلا به.

ومما يؤسف له أن كثيراً من المسلمين اليوم هم على درجة كبيرة من الجهل بهذه الحقوق، فتراهم لذلك على طرفي نقيض هذا المقام:

ـ فإما مقصِّر عن القيام بهذه الحقوق التي أوجبها الله على الأمة، فتراه لا يقيم لها وزناً ولا يلقي لها بالاً.

ـ وإما غال مبتدع منكب على ما ابتدعه، يظن أنه بما يفعله من أمور مبتدعة في هذا المقام قد أحسن صنعاً، وأنه مؤد لما أوجبه الله من حقٍّ لنبينا محمد ﷺ، وكلا الطرفين صاحب حال مذموم غير محمود.

فلما كان عامة أصحاب هذين الطرفين إنما أوقعهم فيما هم فيه، جهلهم بمعرفة تلك الحقوق على الوجه المطلوب شرعاً.

ولما كانت هذه الحقوق هي من جملة هذا الدين الذي تعبَّدنا الله به، فكان لا بد فيها من توفر شرطي القَبول:

١ ـ الإخلاص.

٢ ـ الصواب (الاتباع).

كما قال تعالى: ﴿فَمَن كَانَ يَرْجُواْ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا ﴿١١٠﴾﴾ [الكهف].

فقد أحببت أن أوضح تلك الحقوق النبوية وفق ما جاءت بذلك النصوص الشرعية، وما كان عليه سلف هذه الأمة وأئمتها، عسى أن

يكون في هذا البيان والتوضيح تعليم للجاهل، وتذكير للغافل، وتحذير وردع للمبتدع، ومدارسة للعارف.

فأسأل الله ﷻ التوفيق والرشاد، وأن يرزقنا التمسك بسُنَّة نبيه ﷺ والسير على هديه والتأسي به، وأن يشرح لذلك صدورنا وينير قلوبنا، إنه جواد كريم وعلى كل شيء قدير.

❊ ❊ ❊

الفصل الأول

وجوب الإيمان بالنبي ﷺ

وفيه ستة مباحث:

المبحث الأول: تعريف الإيمان وبيان معنى شهادة أن محمداً رسول الله.

المبحث الثاني: وجوب الإيمان بنبوته ورسالته ﷺ.

المبحث الثالث: وجوب الإيمان بعموم رسالته ﷺ.

المبحث الرابع: وجوب الإيمان بأنه ﷺ خاتم النبيّين.

المبحث الخامس: وجوب الإيمان بأن النبي ﷺ قد بلَّغ الرسالة وأكملها.

المبحث السادس: وجوب الإيمان بعصمته ﷺ.

المطلب الأول

تعريف الإيمان عموماً

❑ أ ـ المعنى اللغوي لكلمة «آمن»:

الإيمان: مصدر آمن يؤمن إيماناً، فهو مؤمن.

١ ـ ويرى جمعٌ من أهل اللغة: أن الإيمان في اللغة معناه: التصديق، وقد حكوا الإجماع على ذلك. قال الأزهري[١]: «واتفق أهل العلم من اللغويين وغيرهم أن الإيمان معناه التصديق»[٢].

واستدلوا لذلك بقوله تعالى حكاية عن إخوة يوسف لأبيهم: ﴿وَمَآ أَنتَ بِمُؤْمِنٍ لَّنَا وَلَوْ كُنَّا صَٰدِقِينَ ﴿١٧﴾﴾ [يوسف] فقالوا: معناه ما أنت بمصدق لنا.

٢ ـ أما علماء السلف[٣] فيقولون: إن الإيمان يأتي في اللغة لمعنيين هما:

أ ـ بمعنى صدَّق به، وذلك إذا عدي بالباء كما في قوله تعالى: ﴿ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِۦ...﴾ [البقرة: ٢٨٥]؛ أي: صدَّق الرسول[٤].

---

(١) هو: محمد بن أحمد بن الأزهر الهروي أبو منصور: أحد الأئمة في اللغة والأدب ولد سنة (٢٨٢هـ)، وتوفي سنة (٣٧٠هـ)، وهو صاحب كتاب «تهذيب اللغة». انظر: الأعلام للزركلي (٥/ ٣١١).

(٢) تهذيب اللغة (٥/ ٥١٣)، لسان العرب لابن منظور، مادة: (آمن) (١٣/ ٢٣).

(٣) شرح العقيدة الأصفهانية، لشيخ الإسلام ابن تيمية (ص١٤٣).

(٤) تفسير القرطبي (٣/ ٤٢٥).

ب ـ وبمعنى أقر له، وذلك إذا عدي باللام كما في قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَنتَ بِمُؤْمِنٍ لَّنَا وَلَوْ كُنَّا صَٰدِقِينَ ﴿١٧﴾﴾ [يوسف]، وقوله تعالى: ﴿فَـَٔامَنَ لَهُۥ لُوطٌ﴾ [العنكبوت: ٢٦].

وقد اعترض السلف على حصر أهل اللغة لمعنى الإيمان بالتصديق فقط وقالوا: «إن الإيمان وإن كان يتضمَّن التصديق فليس هو مجرد التصديق، وإنما هو الإقرار[١] والطمأنينة أيضاً»[٢]، واستدل السلف لقولهم بالأمور التالية:

أولاً: إن الترادف التام ممتنع بين التصديق والإيمان من عدة وجوه، **يوضحها الجدول التالي**:

الإيمان	التصديق
ـ إن كلمة «آمن» تتعدى بالباء وباللام، وقد تقدم التمثيل لذلك.	ـ أما كلمة «صدق» فلا تتعدى باللام فلا يقال: «صدق له»، إنما يقال: «صدَّق به» فهي تتعدى بالباء وبنفسها فيقال: صدَّقه.
ـ إن كلمة «آمن» تتضمن ثلاثة معان هي: الأمن، والتصديق، والأمانة.	ـ أما كلمة «صدق» فلا تتضمن معنى الأمن والأمانة.
ـ إن لفظ الإيمان لا يستعمل إلا في الخبر عن الغائب لأن فيه أصل معنى الأمن والائتمان، وهذا إنما يكون في الخبر عن الغائب، فلا يقال لمن قال: طلعت الشمس، آمنا له، وإنما يقال: صدَّقناه، ولهذا لم يأت في القرآن وغيره لفظ آمن له إلا في الخبر عن الغائب.	ـ أما لفظ «التصديق» فيستعمل في كل مُخبر عن مشاهَد أو غيب، فمن قال: السماء فوقنا، قيل له: صدقت.

(١) الإقرار: متضمن لمعنيين هما: قول القلب الذي هو التصديق، وعمل القلب الذي هو الانقياد. مجموع الفتاوى (٧/٦٣٨ ـ ٦٣٩).
(٢) الصارم المسلول لابن تيمية (ص٥١٩).

التصديق	الإيمان
ـ أما لفظ «التصديق» ضده التكذيب فقط.	ـ إن لفظ الإيمان ضده الكفر، والكفر لا يختص بالتكذيب فقط بل هو أعم منه، إذ يمكن أن يكون مخالفة ومعاداة بلا تكذيب، ومع ذلك يسمَّى كفراً، كما لو قال شخص: أنا أعلم أنك صادق، ولكن لا أتبعك بل أعاديك وأبغضك وأخالفك، فهذا كفر أعظم.

وبهذا يتبين عدم الترادف التام بين اللفظين، وأن الإيمان ليس التصديق فقط[(١)]، كما أن الكفر ليس التكذيب فقط.

ثانياً: من المعلوم أن كلام الله وشرعه إنما هو خبر وأمر.

فالخبر: يستوجب تصديق الخبر.

والأمر: يستوجب الانقياد له والاستسلام، وهو عمل في القلب، جماعه: الخضوع والانقياد للأمر، وإن لم يفعل المأمور به.

فإذا قوبل الخبر بالتصديق، والأمر بالانقياد، فقد حصل أصل الإيمان في القلب وهو «الطمأنينة والإقرار»، فإن اشتقاقه من الأمن الذي هو القرار والطمأنينة، وذلك إنما يحصل إذا استقر في القلب التصديق والانقياد. فلو فُسِّر الإيمان بالتصديق فقط، كما قال أهل اللغة، فإن التصديق إنما يعرض للجزء الأول من الشرع فقط الذي هو الخبر، ولا يعرض للجزء الثاني وهو الأمر؛ لأن الأمر ليس فيه تصديق من حيث هو أمر.

ومن المعلوم أن إبليس لم يكفر بسبب عدم تصديقه، فإنه سمع أمر الله فلم يكذب رسولاً، ولكن لم ينقد للأمر ولم يخضع له، واستكبر عن الطاعة فصار كافراً، قال تعالى: ﴿إِلَّآ إِبۡلِيسَ أَبَىٰ وَٱسۡتَكۡبَرَ وَكَانَ مِنَ

---

(١) انظر: شرح العقيدة الطحاوية (ص٣٨٠ ـ ٣٨١).

ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٣٤﴾ [البقرة]، فسمَّاه الله كافراً وسلب عنه وصف الإيمان لاستكباره وعدم انقياده لأمر الله له بالسجود لآدم.

لازم القول بأن الإيمان مجرد التصديق فقط:

وهذا موضع زاغ فيه خلق من الخلف تخيل لهم أن الإيمان ليس في الأصل إلا التصديق، ثم يرون مثل إبليس وفرعون مما لم يصدر عنه تكذيب، أو صدر عنه تكذيب باللسان لا بالقلب، وكفره من أغلظ الكفر فيتحيرون.

ومثل هؤلاء القوم لو أنهم هُدوا لما هُدي إليه السلف الصالح لعلموا أن الإيمان قول وعمل؛ أعني: في الأصل قولاً في القلب، وعملاً في القلب، فإن الإيمان بحسب كلام الله ورسالته ـ وكلام الله ورسالته يتضمن أخباره وأوامره ـ فيصدِّق القلب أخباره تصديقاً يوجب حالاً في القلب بحسب المصدق به، والتصديق هو من نوع العلم والقول، وينقاد لأمره ويستسلم، وهذا الانقياد والاستسلام هو من نوع الإرادة والعمل، ولا يكون مؤمناً إلا بمجموع الأمرين، فمتى ترك الانقياد كان مستكبراً فصار من الكافرين وإن كان مصدِّقاً؛ لأن الكفر أعم من التكذيب، فالكفر يكون تكذيباً وجهلاً، ويكون استكباراً وظلماً، ولهذا لم يوصف إبليس إلا بالكفر والاستكبار دون التكذيب، ولهذا كان كفر من يعلم مثل اليهود ونحوهم من جنس كفر إبليس، وكان كفر من يجهل مثل النصارى ونحوهم ضلالاً وهو «الجهل»، ألا ترى أن نفراً من اليهود جاءوا إلى النبي ﷺ وسألوه عن أشياء، فأخبرهم، فقالوا: نشهد أنك نبي، ولم يتبعوه، وكذلك هرقل وغيره، فلم ينفعهم هذا العلم وهذا التصديق.

ألا ترى أن من صدَّق الرسول بأن ما جاء به هو رسالة الله، وقد تضمَّنت خبراً وأمراً، فإنه يحتاج إلى مقام ثان، وهو تصديق خبر الله وانقياده لأمر الله، فإذا قال: «أشهد أن لا إلٰه إلا الله» فهذه الشهادة

تتضمن تصديق خبره والانقياد لأمره. «وأشهد أن محمداً رسول الله» تضمنت تصديق الرسول فيما جاء به من عند الله.

فبمجموع هاتين الشهادتين يتم الإقرار.

فلما كان التصديق لا بد منه في كلا الشهادتين ـ وهو الذي يتلقى الرسالة بالقبول ـ ظن من ظن أنه أصل لجميع الإيمان، وغفل عن أن الأصل الآخر لا بد منه وهو الانقياد، وإلا فقد يصدق الرسول، ظاهراً وباطناً ثم يمتنع من الانقياد للأمر، إذ غايته في تصديق الرسول أن يكون بمنزلة من سمع الرسالة من الله سبحانه كإبليس(١).

ثالثاً: ما استدل به أهل اللغة على أن معنى الإيمان في قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَنتَ بِمُؤْمِنٍ لَّنَا وَلَوْ كُنَّا صَٰدِقِينَ ﴿١٧﴾﴾ [يوسف] هو التصديق غير مسلَّم.

إذ يرى علماء السلف أن تفسيرها بـ«أقررت» أقرب من تفسيرها بـ «صدَّقت»، وذلك لأن لفظ «آمن» متى عُدّي باللام يكون بمعنى «أقر» وليس بمعنى «صدق»، إذ لا يكون بمعنى صدق الا إذا عُدّي بالباء أو بنفسه.

❐ ب ـ المعنى الشرعي للإيمان:

تنوعت عبارات السلف في تعريف الإيمان:

١ ـ فتارة يقولون: الإيمان قول وعمل.

٢ ـ وتارة يقولون: هو قول وعمل ونية.

٣ ـ وتارة يقولون: هو قول وعمل ونية واتباع سُنَّة(٢).

---

(١) الصارم المسلول (ص٥١٩ ـ ٥٢٠) (بتصرف).

(٢) هذه التعريفات الثلاثة أوردها شيخ الإسلام ابن تيمية في كتابه الإيمان. انظر: (ص١٦٢).

٤ ـ وتارة يقولون: الإيمان: قول اللسان، واعتقاد بالقلب، وعمل بالجوارح، يزيد بالطاعة وينقص بالمعصية[١].

قال شيخ الإسلام ابن تيمية[٢] بعد أن أورد التعريفات الثلاثة الأول: «وكل هذا صحيح»[٣]، **وعلَّل ذلك بقوله**[٤]:

«فمن قال: إن الإيمان قول وعمل، فمرداه قول اللسان والقلب، وعمل القلب والجوارح».

وقول اللسان وعمل الجوارح معروفان.

وأما المقصود من قول القلب: فهو إقراره ومعرفته وتصديقه.

وأما عمله: فهو انقياده لما صدق به.

ومن عبَّر عن الإيمان بهذا التعريف ليس مراده كل قول أو عمل، وإنما المراد ما كان مشروعاً من الأقوال والأعمال.

كما أن تعبير بعض السلف بهذه العبارة في تعريف الإيمان إنما جاء في معرض الرد على المرجئة[٥] الذين جعلوه قولاً فقط، فقال بعض

---

(١) مجموع الفتاوى (٧/ ٦٤٢).

(٢) هو: شيخ الاسلام تقي الدين أحمد بن عبد الحليم بن عبد السلام بن عبد الله بن الخضر بن محمد ابن تيمية النميري، الحرّاني الدمشقي: ولد سنة إحدى وستين وستمائة (٦٦١هـ) بحرَّان، وتوفي سنة ثمان وعشرين وسبعمائة (٧٢٨هـ) بدمشق، اشتهر رَحِمَهُ ٱللَّهُ بالعلم والزهد والورع والعبادة والجهاد والدفاع عن عقيدة السلف، وقد أُلِّف في سيرته المؤلفات الكثيرة.
انظر كتاب: الشهادة الزكية في ثناء الأئمة على ابن تيمية، تأليف مرعي بن يوسف الحنبلي.

(٣) كتاب الإيمان لشيخ الإسلام ابن تيمية (ص١٦٢).

(٤) كلام شيخ الإسلام نقلته بتصرف من كتابه الإيمان (ص١٦٢ ـ ١٦٣).

(٥) المرجئة: هم الذين أرجؤوا العمل عن مسمى الإيمان، وهم خمس طوائف سيأتي ذكرهم.

السلف رداً عليهم: بل قول وعمل[1].

وأما من عرَّفه بقوله: هو قول وعمل ونية، فمقصوده بزيادة لفظ «ونية»: أن القول يتناول الاعتقاد وقول اللسان.

وأما العمل فقد لا يفهم منه النية، فزاد ذلك[2].

وأما من عرَّفه بأنه: قول وعمل ونية واتباع سُنَّة، فقد زاد لفظة: «واتباع سُنَّة»، لأن ذلك كله لا يكون محبوباً لله إلا باتباع السُّنَّة[3].

قال شيخ الإسلام ابن تيمية: «وقد سئل سهل بن عبد الله التستري[4] عن الإيمان ما هو؟ فقال: قول وعمل ونية واتباع سُنَّة».

---

(١) قال شيخ الإسلام ابن تيمية: «الناس لهم في مسمَّى الكلام والقول عند الإطلاق أربعة أقوال:
١ ـ فالذي عليه السلف والفقهاء والجمهور أنه يتناول اللفظ والمعنى جميعاً.
٢ ـ وقيل: بل مسمَّاه اللفظ، والمعنى ليس جزء مسمَّاه بل هو مدلول مسمَّاه، وهذا قول كثير من أهل الكلام من المعتزلة وغيرهم وطائفة من المنتسبين إلى السُّنَّة، وهو قول النحاة لأن صناعتهم متعلقة بالألفاظ.
٣ ـ وقيل: مسمَّاه هو المعنى وإطلاق الكلام على اللفظ مجاز لأنه دال عليه، وهذا قول ابن كلَّاب ومن اتبعه.
٤ ـ وقيل: «بل هو مشترك بين اللفظ والمعنى، وهو قول بعض المتأخرين من الكلَّابية، ولهم قول ثالث يروى عن أبي الحسن أنه مجاز في كلام الله، حقيقة في كلام الآدميين». كتاب الإيمان (ص١٦٢).

(٢) كتاب الإيمان (ص١٦٣).

(٣) المصدر السابق (ص١٦٣).

(٤) هو: سهل بن عبد الله بن يونس التستري، أبو محمد: ولد سنة (٢٠٠هـ) وتوفي سنة (٢٨٣هـ)، عامة كلامه في تصفية الأعمال من المعائب، وأسند الحديث وأسند عنه، شذرات الذهب (٣/ ١٨٢)، والأعلام (٣/ ١٤٣).

لأن الإيمان إذا كان قولاً بلا عمل فهو كفر.

وإذا كان قولاً وعملاً بلا نية فهو نفاق.

وإذا كان قولاً وعملاً ونية بلا سُنَّة فهو بدعة[١].

وأجمع التعاريف الواردة وأشملها هو: أن الإيمان قول باللسان، واعتقاد بالجَنان، وعمل بالجوارح، يزيد بالطاعة وينقص بالمعصية.

وهذا التعريف هو الذي يميز قول السلف في مسمَّى الإيمان عن قول غيرهم من الفرق[٢]، ولهذا كان هذا التعريف هو أجمع التعاريف الواردة عن السلف وأكثرها دقة في بيان قولهم.

---

(١) كتاب الإيمان (ص١٦٣).

(٢) الذين خالفوا السلف في مسمَّى الإيمان هم:

أ ـ المرجئة بطوائفهم الخمس:

١ ـ **الجهمية**: وقالوا: الإيمان هو معرفة القلب فقط؛ أي: المعرفة الفطرية التي هي المعرفة بربوبية الله.

٢ ـ **الأشاعرة**: وقالوا: الإيمان هو التصديق فقط؛ أي: التصديق بما جاء به النبي ﷺ من عند الله.

٣ ـ **الماتريدية**: وقولهم في الإيمان مثل قول الأشاعرة.

٤ ـ **الكرَّامية**: قالوا: الإيمان قول باللسان فقط.

٥ ـ **مرجئة الأحناف** (أو مرجئة الفقهاء): قالوا: الإيمان قول باللسان وتصديق بالجنان. وهو قول الكلابية. وكل هذه الطوائف الخمسة أخرجت العمل عن الإيمان.

ب ـ **الخوارج**: قالوا: الإيمان قول واعتقاد وعمل، ولكنهم يكفرون من أخلَّ بشيء من هذه الثلاثة، ويقولون بأنه كافر في الدنيا وفي الآخرة خالد في النار.

ج ـ **المعتزلة**: وقالوا بقول الخوارج إلا أنهم يقولون: إنه في الدنيا في منزلة بين منزلتين، بمعنى أنه ليس بمؤمن ولا كافر، واتفقوا معهم في باقي الأمور.

انظر تفاصيل هذه الأقوال: في كتاب الإيمان لابن تيمية، والجزء السابع من مجموع الفتاوى، وشرح العقيدة الطحاوية (ص٣٧٣ ـ ٣٩٢) وكتاب النبوات (ص١٩٩).

❑ ج ـ دلالة اسم الإيمان:

تتحدد دلالة اسم «الإيمان» بحسب سياق الكلام الذي تستعمل فيه هذه اللفظة، فلفظ «الإيمان» إما أن يستعمل:

١ ـ **مطلقاً**: أي: يذكر مطلقاً عن لفظ «العمل» و«الإسلام».

٢ ـ **أو مقيداً**: فتارة يقرن بالعمل الصالح، وتارة يقرن بالإسلام.

فإذا استعمل مطلقاً: «فجميع ما يحبه الله ورسوله من أقوال العبد وأعماله الباطنة والظاهرة، يدخل في مسمى الإيمان عند عامة السلف والأئمة ـ من الصحابة والتابعين وتابعيهم ـ الذين يجعلون الإيمان قولاً وعملاً، يزيد بالطاعة وينقص بالمعصية، ويدخلون جميع الطاعات ـ فرضها ونفلها ـ في مسمَّاه»[١].

ويلاحظ هنا أن لفظ «الإيمان» على هذا الاستعمال يكون مرادفاً للفظ «العبادة»، والعبادة كما هو معروف هي: اسم جامع لكل ما يحبه الله ويرضاه من الأعمال والأقوال الظاهرة والباطنة.

ومن استعمال الشارع للفظ الإيمان بهذا المعنى ما جاء في الصحيحين من حديث أبي هريرة[٢] رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**الإيمان بضع وسبعون شعبة أو بضع وستون شعبة، فأفضلها قول: لا إلٰه إلا الله، وأدناها إماطة الأذى عن الطريق، والحياء شعبة من الإيمان**»[٣].

---

(١) مجموع الفتاوى (٧/ ٦٤٢).

(٢) أبو هريرة بن عامر: واختلف في اسمه إلى عدة أقوال منها: أنه عبد الرحمٰن، وهو دوسي، أسلم عام خيبر وشهدها ثم لازم رسول الله ﷺ حتى قبضه الله إليه، وكان من أحفظ الصحابة رضي الله عنهم، توفي عام (٥٧هـ). أسد الغابة (٢/ ١٦٧).

(٣) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الإيمان، باب أمور الدين.
انظر: فتح الباري (١/ ٥١) (ح٩)؛ وأخرجه مسلم ـ واللفظ له ـ كتاب الإيمان، باب شعب الإيمان (١/ ٤٦).

فالإيمان في هذا الحديث شمل جميع أمور الدين بما في ذلك أمور الإسلام. ومن هذا الاستعمال أيضاً ما جاء في حديث عبد الله بن عباس(١) رضي الله عنهما: أن وفد عبد القيس(٢) لما أتوا النبي ﷺ أمرهم بأربع ونهاهم عن أربع: أمرهم بالإيمان بالله وحده، قال: «**أتدرون ما الإيمان بالله وحده؟**»، قالوا: الله ورسوله أعلم. قال: «**شهادة أن لا إله إلا الله، وأن محمداً رسول الله، وإقام الصلاة، وإيتاء الزكاة، وصيام رمضان، وأن تعطوا من المغنم خمس...**» الحديث(٣).

فلفظ الإيمان استعمل في الحديث مطلقاً، فدخل فيه الأمور الظاهرة مع أنها من أمور الإسلام كما جاء في حديث جبريل المشهور.

وأما إذا استعمل اسم الإيمان مقيداً كما في قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ [البقرة: ٢٧٧]، وقوله: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَكَانُوا۟ يَتَّقُونَ ﴿٦٣﴾﴾ [يونس].

وقول النبي ﷺ في حديث جبريل المشهور: «**الإيمان أن تؤمن بالله**

---

(١) عبد الله بن عباس بن عبد المطلب الهاشمي ـ ابن عم رسول الله ﷺ ـ: ولد قبل الهجرة بثلاث سنوات في الشعب أثناء الحصار، وكان رضي الله عنه ترجمان القرآن وحبر الأمة لعلمه وفهمه، توفي سنة (٨٤هـ).
الإصابة (٦/ ١٦٧ ـ ١٧٣).

(٢) هي: قبيلة كبيرة كانوا يسكنون البحرين ينسبون إلى عبد القيس بن أفْصى ـ بسكون الفاء بعدها مهملة بوزن أعمى ـ ابن دُعمِيّ ـ بضم ثم سكون المهملة وكسر الميم بعدها تحتانية ثقيلة ـ ابن جَديلة ـ بالجيم وزن كبيرة ـ ابن أسد بن ربيعة بن نزار. انظر: فتح الباري (٨/ ٨٥).

(٣) أخرجه البخاري في صحيحه واللفظ له: كتاب الإيمان، باب أداء الخمس من الإيمان. انظر: فتح الباري (١/ ١٢٩) (ح٥٣)؛ وأخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الإيمان، باب الأمر بالإيمان بالله ورسوله وشرائع الدين والدعاء إليه (١/ ٣٥ ـ ٣٦).

وملائكته، وكتبه ورسله، واليوم الآخر، وبالقدر خيره وشره»[(١)].

فهنا قد يقال: إنه متناول لذلك، وإن عطف ذلك عليه من باب عطف الخاص على العام كقوله تعالى: ﴿وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَرُسُلِهِۦ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَىٰلَ﴾ [البقرة: ٩٨]، وقوله: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مِيثَٰقَهُمْ وَمِنكَ وَمِن نُّوحٍ وَإِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ﴾ الآية [الأحزاب: ٧].

وقد يقال: إن دلالة الاسم تنوعت بالإفراد والاقتران كلفظ الفقير والمسكين، فإن أحدهما إذا أفرد تناول الآخر، وإذا جمع بينهما كانا صنفين: كما في آية الصدقة، ولا ريب أن فروع الإيمان مع أصوله كالمعطوفين، وهي مع جميعه كالبعض مع الكل[(٢)].

قلت: إن القول بأن عطف ذلك عليه من باب عطف الخاص على العام ينطبق على الآية وهي قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ [فصلت: ٨]، وقوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَكَانُوا۟ يَتَّقُونَ ﴿٦٣﴾﴾ [يونس].

والقول بأن دلالة الاسم تنوعت بالإفراد والاقتران ينطبق على حديث جبريل حيث ذكر الإسلام والإيمان فأصبح كل واحد منهما يختص بأمور معينة، فالإسلام اختص بالأمور الظاهرية، والإيمان اختص بالأمور الاعتقادية الباطنية.

«فلفظ الإسلام والإيمان إذا أُفرد كل واحد من الاسمين دخل في مسمَّى الآخر: إما تضمُّناً، وإما لزوماً، ودخوله فيه تضمناً أظهر، وكون أحدهما لا يدخل في الآخر عند الاقتران لا يدل على أنه لا يدخل فيه عند انفراد الآخر، وهذه قاعدة جليلة من أحاط بها زالت عنه إشكالات

---

(١) أخرجه بهذا اللفظ مسلم في صحيحه، كتاب الإيمان، باب الإيمان ما هو وبيان خصاله (١/ ٢٩). والحديث أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الإيمان، باب سؤال جبريل بلفظ: «**الإيمان أن تؤمن بالله وملائكته، ولقائه، ورسله، وتؤمن بالبعث**». انظر: فتح الباري (١/ ١١٤)، (ح٥٠).

(٢) مجموع الفتاوى (٧/ ٦٤٧ ـ ٦٤٨).

كثيرة أشكلت على كثير من الناس»[١].

خلاصة القول:

إن اسم الإيمان إذا أُفرد: تناول جميع أمور الدين الظاهرة والباطنة كما في حديث الشعب.

وإذا اقترن اسم الإيمان مع الإسلام، دلَّ الإيمان على الأمور الباطنة، ودلَّ الإسلام على أمور الدين الظاهرة كما في حديث جبريل.

وإذا اقترن العمل مع الإيمان: فهو من باب عطف الخاص على العام[٢]، كما في قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ [البروج: ١١].

---

(١) كتاب: زاد المهاجر إلى ربه (الرسالة التبوكية) بتصرف.

(٢) قال شارح الطحاوية: «اعلم أن عطف الشيء على الشيء يقتضي المغايرة بين المعطوف والمعطوف عليه مع الاشتراك في الحكم الذي ذكر لهما، والمغايرة على مراتب:

١ ـ **أعلاها**: أن يكونا متباينين ليس أحدهما هو الآخر، ولا جزءاً منه، ولا بينهما تلازم، كقوله تعالى: ﴿خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَجَعَلَ ٱلظُّلُمَٰتِ وَٱلنُّورَ﴾ [الأنعام: ١]، وقال تعالى: ﴿وَأَنزَلَ ٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ ۝٣﴾ [آل عمران]، وهذا هو الغالب.

٢ ـ **ويليه**: أن يكون منهما تلازم، كقوله تعالى: ﴿وَلَا تَلْبِسُوا۟ ٱلْحَقَّ بِٱلْبَٰطِلِ وَتَكْتُمُوا۟ ٱلْحَقَّ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ۝٤٢﴾ [البقرة]، وقال تعالى: ﴿وَأَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُوا۟ ٱلرَّسُولَ﴾ [المائدة: ٩٢].

٣ ـ **الثالث**: عطف بعض الشيء عليه، كقوله تعالى: ﴿حَٰفِظُوا۟ عَلَى ٱلصَّلَوَٰتِ وَٱلصَّلَوٰةِ ٱلْوُسْطَىٰ﴾ [البقرة: ٢٣٨]، وقال تعالى: ﴿مَن كَانَ عَدُوًّا لِّلَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَرُسُلِهِۦ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَىٰلَ﴾ [البقرة: ٩٨]، وقال تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ ٱلنَّبِيِّۦنَ مِيثَٰقَهُمْ وَمِنكَ﴾ [الأحزاب: ٧]، وفي مثل هذا وجهان: **أحدهما**: أن يكون داخلاً في الأول، فيكون مذكوراً مرتين. **والثاني**: أن عطفه عليه يقتضي أنه ليس داخلاً فيه هنا وإن كان داخلاً فيه منفرداً كما قيل في لفظ «الفقراء والمساكين» ونحوهما، تتنوع دلالته بالإفراد والاقتران.

٤ ـ **الرابع**: عطف الشيء على الشيء لاختلاف الصفتين، كقوله تعالى: ﴿غَافِرِ ٱلذَّنۢبِ وَقَابِلِ ٱلتَّوْبِ﴾ [غافر: ٣]. شرح العقيدة الطحاوية (ص٣٨٧ ـ ٣٨٨).

المطلب الثاني

تعريف الإيمان بالنبي ﷺ

«الإيمان بالرسول: هو تصديقه وطاعته واتباع شريعته»[(١)].

وهذه الأمور هي الركائز التي يقوم عليها الإيمان بالنبي ﷺ، وبيان هذه الأمور مطلوبة عند الإيمان به بالنبي ﷺ.

قال العلماء:

□ أ ـ أما تصديقه ﷺ فيتعلَّق به أمران عظيمان:

أحدهما: إثبات نبوته وصدقه فيما بلَّغه عن الله، وهذا مختص به ﷺ[(٢)].

ويندرج تحت هذا الإثبات والتصديق **عدة أمور منها:**

١ ـ الإيمان بعموم رسالته إلى كافة الثقلين إنسهم وجنَّهم.

٢ ـ الإيمان بكونه خاتم النبيين، ورسالته خاتمة الرسالات.

٣ ـ الإيمان بكون رسالته ناسخة لما قبلها من الشرائع.

٤ ـ الإيمان بأنه ﷺ قد بلَّغ الرسالة وأكملها، وأدَّى الأمانة، ونصح لأمته حتى تركهم على البيضاء ليلها كنهارها.

٥ ـ الإيمان بعصمته ﷺ.

٦ ـ الإيمان بما له من حقوق خلاف ما تقدم ذكره؛ كمحبته

(١) كتاب اقتضاء الصراط المستقيم مخالفة أصحاب الجحيم (ص٩٢).
(٢) مجموع الفتاوى (١٥/ ٩١).

وتعظيمه ﷺ. وسيأتي تفصيل الأمور الخمسة المتقدمة بأدلتها في المباحث اللاحقة من هذا الفصل بإذن الله تعالى.

أما الحقوق الأخرى الواجبة له فسيأتي تفصيلها في الأبواب القادمة إن شاء الله تعالى.

الثاني: «تصديقه فيما جاء به، وأن ما جاء به من عند الله حق يجب اتباعه. وهذا يجب عليه ﷺ وعلى كل أحد»(١).

فيجب تصديق النبي ﷺ في جميع ما أخبر به عن الله ﷻ، من أنباء ما قد سبق وأخبار ما سيأتي، وفيما أحلَّ من حلال، وحرّم من حرام، والإيمان بأن ذلك كله من عند الله ﷻ، قال تعالى: ﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ ۝٣ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ ۝٤﴾ [النجم].

قال شارح «العقيدة الطحاوية»: «يجب على كل أحد أن يؤمن بما جاء به الرسول إيماناً كاملاً، ولا ريب أن معرفة ما جاء به الرسول ﷺ على التفصيل فرض على الكفاية»(٢).

□ ب ـ طاعته واتباع شريعته:

إن الإيمان بالرسول ﷺ كما يتضمن تصديقه فيما جاء به، فهو يتضمن كذلك العزم على العمل بما جاء به، وهذه هي الركيزة الثانية من ركائز الإيمان به ﷺ.

وهي تعني: الانقياد له ﷺ وذلك بفعل ما أمر به واجتناب ما نهى عنه وزجر امتثالاً لقوله تعالى: ﴿وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا۟﴾ [الحشر: ٧]. فيجب على الخلق اتباع شريعته والالتزام بسُنَّته مع الرضا بما قضاه والتسليم له، والاعتقاد الجازم أن طاعته هي طاعة لله وأن معصيته معصية لله، لأنه هو الواسطة بين الله وبين الثقلين في التبليغ.

---

(١) مجموع الفتاوى (١٥/ ٩١).
(٢) شرح العقيدة الطحاوية (ص٦٦).

وسيأتي بيان هذه المسألة في الفصل الثاني من هذا الباب إن شاء الله تعالى. قال شيخ الإسلام ابن تيمية: «يجب على الخلق الإقرار[١] بما جاء به النبي ﷺ، فما جاء به القرآن العزيز أو السُّنَّة المعلومة وجب على الخلق الإقرار به جملة وتفصيلاً عند العلم بالتفصيل، فلا يكون الرجل مؤمناً حتى يقر بما جاء به النبي ﷺ وهو تحقيق شهادة أن لا إلٰه إلا الله وأن محمداً رسول الله، فمن شهد أنه رسول الله شهد أنه صادق فيما يخبر به عن الله تعالى، فإن هذا حقيقة الشهادة بالرسالة»[٢].

❁ ❁ ❁

(١) يقول ابن تيمية في بيان معنى الإقرار: «إن الإيمان هو الإقرار لا مجرد التصديق، والإقرار ضمن قول القلب الذي هو التصديق وعمل القلب الذي هو الانقياد».
مجموع الفتاوى (٧/ ٦٣٨ ـ ٦٣٩).

(٢) مجموع الفتاوى (٥/ ١٥٤).

المطلب الثالث

معنى شهادة أن محمداً رسول الله ﷺ وشروط ومراتب الشهادتين

❑ أ ـ معناها:

«معنى شهادة أن محمداً رسول الله: طاعته فيما أمر وتصديقه فيما أخبر واجتناب ما نهى عنه وزجر، وأن لا يعبد الله إلا بما شرع»[١].

وهذه الشهادة هي الشطر الثاني من الركن الأول من أركان الإسلام الخمسة، كما أن الإيمان بالنبي ﷺ داخل في الركن الرابع من أركان الإيمان الستة، ويشهد لذلك حديث جبريل المشهور. ويلاحظ أننا عرّفنا الشهادة والإيمان به بتعريف واحد، وهذا الأمر يصح في حالة الإفراد كما سبق وإن ذكرت في لفظ الإسلام والإيمان، أما في حالة الاقتران فالإيمان به يختص بتصديق القلب وإقراره، والشهادة يراد بها نطق اللسان واعترافه، ويجب تحقيق هذه الشهادة معرفةً وإقراراً وانقياداً وطاعة[٢].

قال شيخ الإسلام ابن تيمية: «وأما الإيمان بالرسول فهو المهم، إذ لا يتم الإيمان بالله بدون الإيمان به، ولا تحصل النجاة والسعادة بدونه، إذ هو الطريق إلى الله سبحانه، ولهذا كان ركنا الإسلام: «أشهد أن

---

(١) الأصول الثلاثة للشيخ محمد بن عبد الوهاب (ص٩) ضمن مجموعة الرسائل المفيدة.

(٢) زاد المعاد (١/ ٣٤).

لا إلٰه إلا الله، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله»»(١).

□ ب ـ شروط الشهادتين:

بعد ذكر معنى «شهادة أن محمداً رسول الله» ناسب المقام أن نشير ههنا إلى شروط هذه الشهادة بشقيها؛ لأننا في زمان يجهل فيه كثير من الناس هذه الشروط، إذ يعتقد كثير منهم لجهلهم أن التلفظ وحده يكفي لتحقيق الشهادة ويستغنون بهذا عن العمل بالمقتضى المترتب على هذه الشهادة.

وتصويباً لهذا الخطأ وإزالة لهذا الجهل أقول: إنه من المعلوم أن العبد لا يدخل في دين الإسلام إلا بعد الإتيان بالشهادتين: «شهادة أن لا إلٰه إلا الله، وشهادة أن محمداً رسول الله».

قال تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾ [الحجرات: ١٥].

وقال ﷺ: «**أُمرت أن أقاتل الناس حتى يشهدوا أن لا إلٰه إلا الله وأن محمداً رسول الله**»(٢).

ومن المعلوم كذلك أن جميع الدين داخل في الشهادتين، إذ مضمونهما أن لا نعبد إلا الله، وأن نعبدَه بما شرع على لسان رسوله ﷺ، ونطيعه فيما جاء به عن ربه ﷻ، والدين كله داخل في هذا.

ولهاتين الشهادتين شروط لا بد من توفرها فيهما، إذ لا يمكن لقائلهما أن ينتفع بهما إلا بعد اجتماعها فيهما، وهذه الشروط مطلوبة في

---

(١) مجموع الفتاوى (٨/ ٦٣٨ ـ ٦٣٩).

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الاعتصام بالكتاب والسُّنَّة، باب الاقتداء بسنن الرسول ﷺ. انظر: فتح الباري (١٣/ ٢٥٠)، ومسلم في صحيحه، كتاب الإيمان، باب الأمر بقتال الناس حتى يقولوا لا إله إلا الله محمد رسول الله (١/ ٣٨).

كلا الشهادتين، وذلك لما بينهما من التلازم، فالعبد لا يدخل في الدين إلا بهما معاً.

وهي سبعة شروط:

الشرط الأول: العلم:

إذ العلم بالشيء شرط عند الشهادة به، ويشهد لذلك قوله تعالى: ﴿إِلَّا مَن شَهِدَ بِٱلْحَقِّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٨٦﴾﴾ [الزخرف].

ومن الأدلة على وجوب العلم بالشهادة قوله تعالى: ﴿فَٱعْلَمْ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ﴾ [محمد: ١٩]، وقول النبي ﷺ: «**من مات وهو يعلم أنه لا إله إلا الله دخل الجنة**»[١]. والعلم المراد به هنا هو معرفة معنى الشهادتين ومقتضاهما واللوازم المترتبة على ذلك.

فلا إله إلا الله معناها: لا معبود بحق إلا الله.

ومقتضاها ولازمها: نفي الشرك وإثبات لوحدانية لله تعالى وإفراده بالعبادة، مع الاعتقاد الجازم لما تضمنته من ذلك والعمل به[٢].

ومعنى شهادة أن محمداً رسول الله: الإقرار والاعتراف للرسول ﷺ أنه عبد الله ورسوله إلى الناس كافة[٣].

ومقتضاها ولازمها: طاعته فيما أمر، وتصديقه فيما أخبر، واجتناب ما نهى عنه وزجر، وألا يعبد الله إلا بما شرع.

الشرط الثاني: اليقين:

أي: استيقان القلب بالشهادتين، وذلك بأن يعتقدهما اعتقاداً جازماً لا يصاحبه شك أو ارتياب؛ لأن الإيمان لا يغني فيه إلا علم اليقين

---

(١) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الإيمان، باب من لقي الله بالإيمان وهو غير شاك فيه دخل الجنة وحرم على النار. انظر (١/ ٤١).

(٢) تيسير العزيز الحميد (ص٥٨).

(٣) دليل المسلم في الاعتقاد، للشيخ عبد الله خياط (ص٤٥).

لا علم الظن، قال تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا۟﴾ [الحجرات: ١٥].

وعن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال له: «**من لقيت وراء هذا الحائط يشهد أن لا إله إلا الله مستيقناً بها قلبه فبشِّره بالجنة**» الحديث(١). وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**أشهد أن لا إله إلا الله وأني رسول الله، لا يلقى الله بهما عبد غير شاك فيهما إلا دخل الجنة**»(٢).

الشرط الثالث: الإخلاص:

«وهو تصفية العمل بصالح النية عن جميع شوائب الشرك»(٣).

قال تعالى: ﴿وَمَآ أُمِرُوٓا۟ إِلَّا لِيَعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ﴾ الآية [البينة: ٥]. وقال تعالى: ﴿أَلَا لِلَّهِ ٱلدِّينُ ٱلْخَالِصُ﴾ [الزمر: ٣]؛ «أي: لا يقبل الله من العمل إلا ما أُخلص فيه العامل لله وحده لا شريك له».

وقال قتادة(٤) في قوله تبارك وتعالى: ﴿أَلَا لِلَّهِ ٱلدِّينُ ٱلْخَالِصُ﴾: شهادة أن لا إله إلا الله(٥).

---

(١) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الإيمان، باب من لقي الله بالإيمان وهو غير شاك فيه دخل الجنة وحرم على النار (١/ ٤٤).
(٢) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الإيمان، باب من لقي الله بالإيمان وهو غير شاك فيه دخل الجنة وحرم على النار (١/ ٤١ ـ ٤٢).
(٣) معارج القبول للشيخ حافظ بن أحمد حكمي (١/ ٣٨٢).
(٤) قتادة بن دعامة السدوسي أبو الخطاب البصري: ولد سنة (٦١هـ) وتوفي سنة (١١٨هـ) ثقة ثبت، مفسر حافظ ضرير أكمه. قال عنه الإمام أحمد: قتادة أحفظ أهل البصرة.
انظر: تهذيب التهذيب (٨/ ٣٥١) وتذكرة الحفاظ (١/ ١١٥)
(٥) تفسير ابن كثير (٤/ ٤٥).

وعن عتبان بن مالك[١] رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**فإن الله حرَّم على النار من قال لا إله إلا الله يبتغي بذلك وجه الله**»[٢].

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**أسعد الناس بشفاعتي من قال لا إله إلا الله خالصاً من قلبه**»[٣].

الشرط الرابع: «الصدق فيها المنافي للكذب. وهو أن يقولها صدقاً من قلبه يواطىء قلبه لسانه»[٤]:

قال تعالى: ﴿الٓمٓ ۝١ أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتۡرَكُوٓاْ أَن يَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا وَهُمۡ لَا يُفۡتَنُونَ ۝٢ وَلَقَدۡ فَتَنَّا ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡۖ فَلَيَعۡلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ صَدَقُواْ وَلَيَعۡلَمَنَّ ٱلۡكَٰذِبِينَ ۝٣﴾ [العنكبوت]؛ «أي: الذين صدقوا في دعوى الإيمان ممن هو كاذب في قوله ودعواه، والله تبارك وتعالى يعلم ما كان وما يكون وما لم يكن لو كان كيف يكون، وهذا مُجمع عليه عند أئمة السُّنَّة والجماعة»[٥].

وعن أنس بن مالك[٦] رضي الله عنه أن النبي ﷺ ـ ومعاذ[٧] رديفه على

---

(١) عتبان بن مالك بن عمرو بن العجلان الأنصاري الخزرجي السلمي: صحابي من البدريين، آخى النبي ﷺ بينه وبين عمر، مات في خلافة معاوية وقد كبر. الإصابة (٢/ ٤٤٥) رقم (٥٣١٨).

(٢) أخرجه البخارى في صحيحه، كتاب الصلاة، باب المساجد في البيوت، انظر: فتح الباري (١/ ٥١٩) (ح٤٢٥)، ومسلم في صحيحه كتاب الصلاة، باب الرخصة في التخلف عن الجماعة بعذر (٢/ ١٢٦).

(٣) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الرقاق، باب صفة الجنة والنار. انظر: فتح الباري (١١/ ٤١٨) (ح٦٥٧٠).

(٤) معارج القبول (١/ ٣٨١).

(٥) تفسير ابن كثير (٣/ ٤٠٤).

(٦) أنس بن مالك بن النضر بن ضمضم النجاري الخزرجي الأنصاري: أبو حمزة، صاحب رسول الله ﷺ وخادمه، وأحد المكثرين من الرواية عنه، وهو آخر من مات بالبصرة من الصحابة، توفي سنة (٩٣هـ).

(٧) معاذ بن جبل الأنصاري: أحد السبعين الذين شهدوا العقبة من الأنصار، وقد شهد بعد ذلك المشاهد كلها، كان من أعلم الصحابة بالحلال والحرام، توفي =

الرحل ـ قال: «**يا معاذ بن جبل**» قال: لبيك يا رسول الله وسعديك. قال: «**يا معاذ**» قال: لبيك يا رسول الله وسعديك ثلاثاً. قال: «**ما من أحد يشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله صدقاً من قلبه إلا حرَّمه الله على النار**» الحديث[(١)].

الشرط الخامس: المحبة:

«لهذه الكلمة ولما اقتضته ودلت عليه، ولأهلها والعاملين بها الملتزمين لشروطها، وبغض ما ناقض ذلك»[(٢)].

قال تعالى: ﴿قُلْ إِن كَانَ ءَابَآؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ وَإِخْوَٰنُكُمْ وَأَزْوَٰجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَٰلٌ ٱقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَٰرَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَٰكِنُ تَرْضَوْنَهَآ أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَجِهَادٍ فِى سَبِيلِهِۦ فَتَرَبَّصُوا۟ حَتَّىٰ يَأْتِىَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿٢٤﴾﴾ [التوبة]، ففي الآية دليل على وجوب محبة الله ورسوله، ولا خلاف في ذلك بين الأمة، وأن ذلك مقدم على كل محبوب[(٣)].

وقال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ﴾ الآية [البقرة: ١٦٥].

وقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَن يَرْتَدَّ مِنكُمْ عَن دِينِهِۦ فَسَوْفَ يَأْتِى ٱللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ﴾ الآية [المائدة: ٥٤].

وعن أنس بن مالك رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «**ثلاث من كن فيه**

= سنة (١٧هـ) في طاعون عمواس بالشام. الإصابة (٣/ ٤٠٦ ـ ٤٠٧) رقم (٨٠٣٩).

(١) أخرجه البخاري في صحيحها واللفظ له، كتاب العلم باب من خص بالعلم قوماً دون قوم كراهية أن لا يفهموا. انظر: فتح الباري (١/ ٢٢٦) (ح١٢٨). وأخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الإيمان، باب من لقي الله بالإيمان وهو غير شاك فيه دخل الجنة وحرم على النار (١/ ٤٣).

(٢) معارج القبول (١/ ٣٨٣).

(٣) تفسير القرطبي (٨/ ٩٥)

وجد بهن حلاوة الإيمان، من كان الله ورسوله أحب إليه مما سواهما، وأن يحب المرء لا يحبه إلا لله، وأن يكره أن يعود في الكفر بعد أن أنقذه الله منه كما يكره أن يقذف في النار»(١).

الشرط السادس: الانقياد:

أي: الانقياد والاستسلام ظاهراً وباطناً لأوامر الله وما أنزله من الشرع على لسان نبيه ﷺ

قال تعالى: ﴿وَمَن يُسْلِمْ وَجْهَهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَقَدِ ٱسْتَمْسَكَ بِٱلْعُرْوَةِ ٱلْوُثْقَىٰ ۗ وَإِلَى ٱللَّهِ عَٰقِبَةُ ٱلْأُمُورِ ﴿٢٢﴾﴾ [لقمان].

ففي هذه الآية: «يقول تعالى مخبراً عمن أسلم وجهه لله؛ أي: أخلص له العمل وانقاد لأمره واتبع شرعه، ولهذا قال: ﴿وَهُوَ مُحْسِنٌ﴾؛ أي: في عمله: باتباع ما به أمر، وترك ما عنه زجر ﴿فَقَدِ ٱسْتَمْسَكَ بِٱلْعُرْوَةِ ٱلْوُثْقَىٰ﴾؛ أي: فقد أخذ موثقاً من الله متيناً أنه لا يعذبه ﴿وَإِلَى ٱللَّهِ عَٰقِبَةُ ٱلْأُمُورِ ﴿٢٢﴾﴾»(٢).

وقال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ ۗ وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًا مُّبِينًا ﴿٣٦﴾﴾ [الأحزاب]. والآية عامة في جميع الأمور، وذلك أنه إذا حكم الله ورسوله بشيء فليس لأحد مخالفته ولا اختيار لأحد هنا ولا رأي ولا قول، كما قال تبارك وتعالى: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا۟ تَسْلِيمًا ﴿٦٥﴾﴾ [النساء](٣).

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الإيمان، باب من كره أن يعود في الكفر كما يكره أن يلقى في النار من الإيمان. انظر: فتح الباري (١/ ٧٢) (ح٢١).
وأخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الإيمان، باب بيان خصال من اتصف بهن وجد حلاوة الإيمان، واللفظ له. انظر: (١/ ٤٨).

(٢) تفسير ابن كثير (٣/ ٤٥٠). (٣) تفسير ابن كثير (٣/ ٤٩٠).

الشرط السابع: القبول:

أي: قبول الشهادتين والالتزام بمقتضياتها ولوازمها.

قال تعالى: ﴿ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيۡهِ مِن رَّبِّهِۦ وَٱلۡمُؤۡمِنُونَۚ كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ لَا نُفَرِّقُ بَيۡنَ أَحَدٖ مِّن رُّسُلِهِۦۚ وَقَالُواْ سَمِعۡنَا وَأَطَعۡنَاۖ غُفۡرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيۡكَ ٱلۡمَصِيرُ ﴿٢٨٥﴾﴾ [البقرة]، وقال تعالى في شأن من لم يقبلها: ﴿إِنَّهُمۡ كَانُوٓاْ إِذَا قِيلَ لَهُمۡ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ يَسۡتَكۡبِرُونَ ﴿٣٥﴾ وَيَقُولُونَ أَئِنَّا لَتَارِكُوٓاْ ءَالِهَتِنَا لِشَاعِرٖ مَّجۡنُونِۭ ﴿٣٦﴾﴾ [الصافات].

وعن أبي موسى الأشعري[١] رضي الله عنه عن النبي ﷺ أنه قال: «**مثل ما بعثني الله به من الهدى والعلم كمثل الغيث الكثير أصاب أرضاً، فكان منها نقية[٢] قبلت الماء فأنبتت الكلأ والعشب الكثير، وكانت منها أجادب[٣] أمسكت الماء فنفع الله بها الناس فشربوا وسقوا وزرعوا، وأصابت منها طائفة أخرى إنما هي قيعان[٤] لا تمسك ماءً ولا تنبت كلأً، فذلك مثل من فقه في دين الله ونفعه ما بعثني الله به فعلِم وعلَّم، ومثل من لم يرفع بذلك رأساً ولم يقبل هدى الله الذي أُرسلت به**»[٥].

---

(١) واسم أبي موسى: عبد الله بن قيس بن سليم من بني الأشعر من قحطان، صحابي أسلم بمكة ثم رجع إلى اليمن وقدم مع الأشعريين، وكان حسن الصوت بالقرآن، وكان من الشجعان الولاة الفاتحين، توفي بالكوفة سنة (٤٤هـ)، وقيل غير ذلك. الإصابة (٢/ ٣٥١) رقم (٤٨٩٩).

(٢) هي: مستنقع الماء في الجبال والصخور. فتح الباري (١/ ١٧٦).

(٣) هي: الأرض الصلبة التي لا ينضب منها الماء. فتح الباري (١/ ١٧٦).

(٤) ـ بكسر القاف ـ جمع قاع: وهو الأرض المستوية الملساء التي لا تنبت. فتح الباري (١/ ١٧٧).

(٥) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب العلم، باب فضل من علِم وعلَّم؛ واللفظ له. انظر: فتح الباري (١/ ١٧٥) (ح٧٩). وأخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الفضائل، باب بيان مثل ما بعث النبي ﷺ من الهدى والعلم. انظر: (٧/ ٦٣).

فهذه هي شروط الشهادتين يجب على المسلم تحقيقها والإتيان بها على الوجه المطلوب حتى يكون من أهلها.

❐ ج ـ مراتب الشهادة:

إذا علم العبد معنى الشهادتين وشروطهما، فينبغي له أن يكون على علم بأن للشهادة مراتب يتدرج عليها الشاهد مرتبة بعد مرتبة حتى يتم له تحقيق الشهادة على الوجه المطلوب.

ومراتب الشهادة أربع هي(١):

المرتبة الأولى: العلم والمعرفة والاعتقاد لصحة المشهود به وثبوته، فلا بد للشاهد أن يعلم ويعرف معنى الشهادتين وإلا كان الشاهد شاهداً بما لا علم له به، قال تعالى في سورة الزخرف: ﴿إِلَّا مَن شَهِدَ بِٱلْحَقِّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٨٦﴾﴾.

المرتبة الثانية: تكلمه بالشهادتين وإن لم يُعلِم بها غيره، بل يتكلم بها مع نفسه ويتذكرها وينطق بها أو يكتبها.

والله ﷻ يقول في كتابه العزيز: ﴿وَجَعَلُوا۟ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ ٱلَّذِينَ هُمْ عِبَٰدُ ٱلرَّحْمَٰنِ إِنَٰثًا ۚ أَشَهِدُوا۟ خَلْقَهُمْ ۚ سَتُكْتَبُ شَهَٰدَتُهُمْ وَيُسْـَٔلُونَ ﴿١٩﴾﴾ [الزخرف] فجعل ذلك منهم شهادة وإن لم يتلفظوا بلفظ الشهادة ولم يؤدوها عند غيرهم.

المرتبة الثالثة: أن يُعلِم غيره بما شهد به ويخبره به ويبينه له، ومرتبة الإعلام والإخبار نوعان: إعلام بالقول، وإعلام بالفعل.

وهذا شأن كل مُعلِم لغيره بأمر، تارة يعلمه به بالقول وتارة بفعل، ومما يدل على أن الشهادة تكون بالفعل قوله تعالى: ﴿مَا كَانَ لِلْمُشْرِكِينَ أَن

---

(١) انظر: كتاب الكواشف الجلية عن معاني الواسطية، للشيخ عبد العزيز بن محمد السلمان من (ص٣٨ إلى ص٤٠) بتصرف.

يَعْمُرُوا مَسَاجِدَ اللَّهِ شَاهِدِينَ عَلَىٰ أَنفُسِهِم بِالْكُفْرِ﴾ الآية [التوبة: ١٧]، فهذه شهادة منهم على أنفسهم بما يفعلونه(١).

المرتبة الرابعة: أن يلتزم بمضمونها ويأتمر به.

ومجرد الشهادة لا يستلزم هذه المرتبة، لكن الشهادة في هذا الموضع تدل عليه وتتضمنه، فإنه ﷻ شهد به شهادة من حكم به وقضى وأمر وألزم عباده كما قال تعالى: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا﴾ [الإسراء: ٢٣].

وقال تعالى: ﴿وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا إِلَٰهًا وَاحِدًا﴾ الآية [التوبة: ٣١].

والقرآن كله شاهد بذلك.

وقد شهد الله لنفسه بالوحدانية، فقال تعالى: ﴿شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ وَأُولُو الْعِلْمِ قَائِمًا بِالْقِسْطِ ۚ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿١٨﴾﴾ [آل عمران]، فشهادته سبحانه لنفسه بالوحدانية والقيام بالقسط تضمَّنت هذه المراتب الأربع وهي: علمه بذلك، وتكلمه، وإخباره لخلقه، وإلزامهم وأمرهم به(٢).

❁ ❁ ❁

(١) الكواشف الجلية (٣٩ ـ ٤٠) بتصرف.
(٢) المصدر السابق (ص٤٠) (بتصرف).

المطلب الرابع

نواقض الإيمان بالنبي ﷺ

إن مما ينبغي معرفته بعد توضيح معنى الإيمان بالنبي ﷺ وتبيين شروط الشهادة ومراتبها، أن تعرف نواقض هذا الأمر ومبطلاته حتى يحترز المسلم من الوقوع فيها، فعن حذيفة بن اليمان[١] رضي الله عنه قال: «كان الناس يسألون رسول الله ﷺ عن الخير وكنت أسأله عن الشر مخافة أن يدركني...» الحديث[٢].

وعن عمر بن الخطاب[٣] رضي الله عنه: «إنما تُنقض عرى الإسلام عروة عروة إذا نشأ في الإسلام من لا يعرف الجاهلية»[٤].

ولهذا كان الصحابة رضوان الله عليهم أعظم هذه الأمة إيماناً لكمال معرفتهم بالخير والشر، وكمال محبتهم للخير وبغضهم للشر، لما

---

(١) حذيفة بن اليمان العبسي: شهد أُحداً وكان من كبار الصحابة وصاحب سر رسول الله ﷺ، توفي عام (٣٦هـ). الإصابة (١/ ٣١٦، ٣١٧) رقم (١٦٤٧).

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الفتن، باب كيف الأمر إذا لم تكن جماعة؟ انظر: فتح الباري (٣/ ٣٥) (ح٧٠٨٤). وأخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الإمارة، باب الأمر بلزوم الجماعة عند ظهور الفتن وتحذير الدعاة إلى الكفر. انظر (٦/ ٢٠).

(٣) عمر بن الخطاب بن نفيل: ولد بعد الفيل بثلاث عشرة سنة، كان إسلامه فتحاً على المسلمين، شهد المشاهد كلها، توفي رسول الله ﷺ وهو عنه راض، ولي الخلافة بعد الصديق واستشهد سنة (٢٣هـ)، قتله أبو لؤلؤة المجوسي. الإصابة (٢/ ٥١١، ٥١١) رقم (٥٧٣٨).

(٤) تيسير العزيز الحميد (ص٩٠).

علموه من حسن حال الإيمان والعمل الصالح، وقبح حال الكفر والمعاصي.

ولمعرفة نواقض الإيمان به ﷺ نقول:

لما كان الإيمان به ﷺ؛ يعني: تصديقه وتصديق ما جاء به ﷺ، والانقياد له، فإن الطعن في أحد هذين الأمرين ينافي الإيمان ويناقضه؛ فالنواقض على هذا الاعتبار يمكن تقسيمها إلى قسمين:

* **القسم الأول**: الطعن في شخص الرسول ﷺ.

* **القسم الثاني**: الطعن فيما أخبر به الرسول ﷺ **مما هو معلوم** من الدين بالضرورة، إما بإنكاره أو بانتقاصه.

▫ القسم الأول: الطعن في شخص الرسول ﷺ:

ومما يدخل تحت هذا القسم نسبة أي شيء للرسول عليه الصلاة والسلام مما يتنافى مع اصطفاء الله له لتبليغ دينه إلى عباده، فيكفر كل من طعن في صدق الرسول ﷺ أو أمانته أو عفته أو صلاح عقله ونحو ذلك.

كما يكفر من سب الرسول ﷺ، أو عابه، أو ألحق به نقصاً في نفسه أو نسبه، أو دينه، أو خصلة من خصاله، أو عرّض به، أو شبهه بشيء على طريق السب له أو الإزراء عليه أو التصغير لشأنه أو الغض منه أو العيب له، فهو ساب له والحكم فيه حكم الساب يقتل كفراً، وكذلك من لعنه، أو دعا عليه، أو تمنى مضرة له، أو نسب إليه ما لا يليق بمنصبه على طريق الذم، أو عبث في جهته العزيزة بسخف من الكلام وهُجر[(١)] ومنكر من القول وزور، أو عيَّره بشيء مما جرى من البلاء والمحنة عليه، أو تنقَّصه ببعض العوارض البشرية الجائزة المعهودة لديه[(٢)].

---

(١) الهُجر بالضم: القبيح من الكلام. لسان العرب (٥/ ٢٥٣).

(٢) الشفا للقاضي عياض (٢/ ٩٣٢) بتحقيق علي محمد البجاوي.

فالسَّابُّ إن كان مسلماً فإنه يكفر ويُقتل بغير خلاف، وهو مذهب الأئمة الأربعة وغيرهم.

وإن كان ذمياً فإنه يقتل أيضاً في مذهب مالك(١) وأهل المدينة، وهو مذهب أحمد(٢) وفقهاء الحديث، وهو المنصوص عن الشافعي(٣) نفسه كما حكاه غير واحد(٤).

وهذا الحكم على السابِّ والمستهزئ، يستوي فيه الجاد والهازل بدليل قوله تعالى: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ ۚ قُلْ أَبِاللَّهِ وَآيَاتِهِ وَرَسُولِهِ كُنتُمْ تَسْتَهْزِئُونَ ﴿٦٥﴾ لَا تَعْتَذِرُوا قَدْ كَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَانِكُمْ ۚ﴾ [التوبة].

---

(١) مالك بن أنس: إمام دار الهجرة، وأحد أئمة أهل السُّنَّة المشهورين، وإليه تنسب المالكية، له مؤلفات عدة على رأسها «الموطأ» الكتاب المشهور، ولد بالمدينة، وتوفي بها عام (١٧٩هـ). الديباج المذهب (١/ ٨٢ ـ ١٣٥) والبداية (١٠/ ١٧٤).

(٢) أبو عبد الله أحمد بن محمد بن حنبل: الإمام المشهور في الفقه والحديث ونصرة الإسلام، إمام أهل السُّنَّة والجماعة، أعز الله به السُّنَّة وقمع به البدعة، وفضائله أكثر من أن تحصر، توفي سنة (٢٤١هـ). تاريخ بغداد (٤/ ٤١٢) وطبقات الحنابلة (١/ ٤).

(٣) محمد بن إدريس الشافعي الإمام المشهور أحد الأئمة الأربعة: ولد بغزة بفلسطين ثم سافرت به أمه إلى مكة، كان ذكياً فطناً برع في الأدب واللغة، ثم أقبل على الحديث والفقه، وله مصنفات عدة من أشهرها: «الأم» و«الرسالة»، توفي بمصر سنة (٢٠٤هـ). تاريخ بغداد (٢/ ٥٦) والتذكرة (٣٦٧).

(٤) الصارم المسلول على شاتم الرسول، لشيخ الإسلام ابن تيمية (ص٤ و٨) بتصرف.

وقد تعرض شيخ الإسلام لهذه المسائل مفصَّلة في هذا الكتاب، فمن أراد الاستزادة فليرجع إليه.

وهذا نص في أن الاستهزاء بالله وبآياته وبرسوله كفر، (فالسب المقصود بطريق الأولى)، وقد دلَّت هذه الآية على أن كل من تنقص رسول الله ﷺ جاداً أو هازلاً فقد كفر.

وقد رُوي عن رجال من أهل العلم منهم ابن عمر[١]، ومحمد بن كعب[٢]، وزيد بن أسلم[٣]، وقتادة ـ دخل حديث بعضهم في بعض ـ أنه قال رجل من المنافقين في غزوة تبوك: «ما رأيت مثل قرائنا هؤلاء أرغب بطوناً، ولا أكذب ألسناً، ولا أجبن عند اللقاء»؛ يعني: رسول الله ﷺ وأصحابه القراء، فقال له عوف بن مالك[٤]: كذبت ولكنك رجل منافق، لأُخبرن رسول الله ﷺ، فذهب عوف إلى رسول الله ﷺ ليخبره، فوجد القرآن قد سبقه، فجاء ذلك الرجل إلى رسول الله ﷺ وقد ارتحل وركب ناقته، فقال: يا رسول الله إنما كنا نلعب ونتحدث حديث الركب نقطع به عناء الطريق.

---

(١) عبد الله بن عمر بن الخطاب: ولد بعد البعثة بثلاث سنوات وهاجر وهو ابن عشر سنين، وقد كان من أشد الصحابة تتبعاً للسُّنَّة ومن أكثرهم عبادة مع زهد وورع، توفي عام (٨٤هـ).
الإصابة (٢/ ٣٣٨ ـ ٣٤١) رقم (٤٨٣٤).

(٢) هو: محمد بن كعب بن سليم القرظي المدني، كان أبوه من سبي قريظة، ثقة، عالم، ولد سنة أربعين على الصحيح، ومات سنة (١٢٠هـ)، وقيل غير ذلك. وقال عنه ابن حبان: كان من أفاضل أهل المدينة علماً وفقهاً. تهذيب التهذيب (٩/ ٤٢٠، ٤٢٢).

(٣) زيد بن أسلم المدني الفقيه: كان عالماً بالتفسير، وكان له حلقة بالمسجد النبوي، توفي عام (١٣٦هـ). تهذيب التهذيب (٣/ ٣٩٥).

(٤) عوف بن مالك بن أبي عوف الأشجعي الغطفاني: صحابي جليل، شهد مؤتة، وشهد الفتح وكانت معه راية قومه يومئذ وشهد فتح الشام، توفي سنة ثلاث وسبعين بالشام.
تهذيب التهذيب (٨/ ١٦٨)، والبداية (٨/ ٣٤٦).

قال ابن عمر: كأني أنظر إليه متعلقاً بنسعة[1] ناقة رسول الله ﷺ وإن الحجارة لتنكب رجليه، وهو يقول: إنما كنا نخوض ونلعب، فيقول له رسول الله ﷺ: «﴿أَبِٱللَّهِ وَءَايَٰتِهِۦ وَرَسُولِهِۦ كُنتُمْ تَسْتَهْزِءُونَ ۝٦٥﴾ [التوبة]» ما يلتفت إليه، ولا يزيده عليه[2].

فهؤلاء لما تنقَّصوا النبي ﷺ حيث عابوه والعلماء من أصحابه واستهانوا بخبره، أخبر الله أنهم كفروا بذلك، وإن قالوه استهزاء، فكيف بما هو أغلظ من ذلك؟[3].

ومن الأدلة على كفر الطاعن في شخص الرسول ﷺ قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ لَعَنَهُمُ ٱللَّهُ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ وَأَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا مُّهِينًا ۝٥٧﴾ [الأحزاب].

واللعن: الإبعاد عن الرحمة، ومن طرده عن رحمته في الدنيا والآخرة لا يكون إلا كافراً[4].

وفي هذه الآية قرن الله بين أذى النبي ﷺ وأذاه كما قرن في آيات أخر بين طاعته وطاعة نبيه، وفي هذا وغيره بيان لتلازم الحقين، وأن جهة حرمة الله تعالى ورسوله جهة واحدة، فمن أذى الرسول فقد آذى الله، ومن أطاعه فقد أطاع الله؛ لأن الأمة لا يصلون ما بينهم وبين ربهم إلا بواسطة النبي ﷺ، وليس لأحد منهم طريق غيره ولا سبب سواه، وقد أقامه الله مقام نفسه في أمره ونهيه وإخباره وبيانه، فلا يجوز أن يفرق بين الله ورسوله في شيء من هذه الأمور[5].

---

(١) النِّسْعة ـ بكسر فسكون ـ: سير مضفور يجعل زماماً للبعير. لسان العرب (٨/ ٣٥٢).

(٢) تفسير ابن كثير (٢/ ٣٦٧).

(٣) الصارم المسلول (ص٣١ ـ ٣٣).

(٤) المصدر السابق (ص٤١).

(٥) المصدر السابق (ص٤٠ ـ ٤١) بتصرف.

ومن الأدلة الواردة في السُّنَّة حديث جابر بن عبد الله رضي الله عنهما[(١)] قال: قال رسول الله ﷺ: «**من لكعب بن الأشرف**[(٢)]**، فإنه قد آذى الله ورسوله**»، فقام محمد بن مسلمة[(٣)] فقال: يا رسول الله أتحب أن أقتله؟، قال: «**نعم...**» الحديث[(٤)]. فعلم من هذا الحديث أن من آذى الله ورسوله كان حقه أن يقتل كما قتل كعب بن الأشرف، والأدلة من الكتاب والسُّنَّة على هذه المسألة كثيرة ولا مجال لاستيعابها هنا.

ـ **الإجماع**: وقد أجمعت الأمة على قتل منتقصه من المسلمين وسابه، وكذلك حكى غير واحد الإجماع على قتله وتكفيره.

وقال الإمام إسحاق بن راهويه[(٥)] أحد الأئمة الأعلام: «أجمع

---

(١) جابر بن عبد الله الأنصاري: شهد العقبة الثانية وهو صغير، وشهد المشاهد كلها بعد أُحد، وكان من المكثرين الحفاظ للسنّة، توفي سنة (٧٤هـ)، وقيل غير ذلك.
الإصابة (١/ ٢١٤) رقم (١٠٢٦).

(٢) كعب بن الأشرف الطائي: من بني نبهان، كانت أمه من بني النضير فدان باليهودية، وكان سيداً في أخواله اليهود. أدرك الإسلام ولم يسلم، وأكثر من هجو النبي ﷺ وأصحابه وتحريض القبائل عليهم وإيذائهم والتشبب بنسائهم. خرج إلى مكة بعد وقعة بدر فندب قتلى قريش فيها، وحض على الأخذ بثأرهم، وعاد إلى المدينة، فأمر النبي ﷺ بقتله، فانطلق إليه نفر من الأنصار، فقتلوه في ظاهر حصنه. تاريخ الطبري (٣/ ٢).

(٣) محمد بن مسلمة الأنصاري: من فضلاء الصحابة، شهد بدراً وما بعدها إلا غزوة تبوك فإنه تخلف بإذن النبي ﷺ له أن يقيم في المدينة، مات بالمدينة سنة ثلاث وأربعين، وقيل غير ذلك. الإصابة (٣/ ٣٦٣، ٣٦٤) رقم (٨ ٧٨).

(٤) أخرجه البخاري في صحيحه ـ واللفظ له ـ كتاب المغازي، باب قتل كعب بن الأشرف. انظر: فتح الباري (٧/ ٣٣٦) (ح٤٠٣٧)؛ وأخرجه في مواضع أُخر؛ وأخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الجهاد، باب قتل كعب بن الأشرف. انظر: (٥/ ١٨٤).

(٥) إسحاق بن إبراهيم بن مخلد، المعروف بابن راهويه المروزي: قال عنه =

المسلمون على أن من سب الله، أو سب رسوله ﷺ، أو دفع شيئاً مما أنزل الله ﷻ، أو قتل نبيّاً من أنبياء الله ﷻ، أنه كافر بذلك وإن كان مقراً بكل ما أنزل إليه».

وقال الخطابي[(١)]: «لا أعلم أحداً من المسلمين اختلف في وجوب قتله». وقال محمد بن سحنون[(٢)]: «أجمع العلماء على أن شاتم النبي ﷺ والمتنقص له كافر، والوعيد جاء عليه بعذاب الله له، وحكمه عند الأمة القتل، ومن شك في كفره وعذابه كفر»[(٣)].

ومن المعلوم أن سبَّ النبي ﷺ تعلق به عدة حقوق:

١ ـ حق الله سبحانه:

من حيث كفر برسوله، وعادى أفضل أوليائه وبارزه بالمحاربة، ومن حيث طعن في كتابه ودينه، فإنَّ صحتهما موقوفة على صحة الرسالة، ومن حيث طعن في ألوهيته، فإن الطعن في الرسول طعن في المرسل، وتكذيبه تكذيب لله تبارك وتعالى، وإنكار لكلامه وأمره وخبره وكثير من صفاته.

= الخطيب البغدادي: كان أحد أئمة المسلمين، وعَلَماً من أعلام الدين، اجتمع له الحديث والفقه والحفظ والصدق والورع والزهد، توفي سنة (٢٣٨هـ). تاريخ بغداد (٦/ ٣٤٥).

(١) أبو سليمان حمد ويقال: أحمد بن محمد بن إبراهيم الخطابي البستي: أحد المشاهير الأعيان، والفقهاء المجتهدين المكثرين، له من المصنفات: معالم السُّنن، وشرح البخاري، وغير ذلك، توفي بمدينة بست سنة (٣٨٨هـ). البداية (١١/ ٣٢٤).

(٢) محمد بن عبد السلام (سحنون) بن سعيد بن حبيب التنوخي، أبو عبد الله: فقيه مالكي، مناظر كثير التصانيف، توفي سنة (٢٥٦هـ). الوافي بالوفيات (٣/ ٨٦) والأعلام (٦/ ٢٠٤، ٢٠٥).

(٣) الصارم المسلول (ص٣ ـ ٤).

٢ ـ وتعلق حق جميع المؤمنين:

من هذه الأمة ومن غيرها من الأمم به، فإن جميع المؤمنين مؤمنون به خصوصاً أمته، فإن قيام أمر دنياهم ودينهم وآخرتهم به، بل عامة الخير الذي يصيبهم في الدنيا والآخرة بواسطته وسفارته. فالسب له أعظم عندهم من سب أنفسهم وآبائهم وأبنائهم وسب جميعهم، كما أنه أحب إليهم من أنفسهم وأولادهم وآبائهم والناس أجمعين.

٣ ـ وتعلق حق رسول الله ﷺ به:

من حيث خصوص نفسه، فإن الإنسان تؤذيه الوقيعة في عرضه أكثر مما يؤذيه أخذ ماله، وأكثر مما يؤذيه الضرب، بل ربما كانت عنده أعظم من الجرح ونحوه، خصوصاً من يجب عليه أن يظهر للناس كمال عرضه وعلو قدره لينتفعوا بذلك في الدنيا والآخرة، فإن هتك عرضه وعلو قدره قد يكون أعظم عنده من قتله، فإن قتله لا يقدح عند الناس في نبوته ورسالته وعلو قدره كما أن موته لا يقدح في ذلك، بخلاف الوقيعة في عرضه فإنها قد تؤثر في نفوس بعض الناس من النفرة عنه وسوء الظن به ما يفسد عليهم إيمانهم ويوجب لهم خسارة الدنيا والآخرة...»[(١)].

وبهذا يعلم أن السب فيه من الأذى لله ولرسوله ولعباده المؤمنين ما ليس في غيره من الأمور كالكفر والمحاربة.

وبما تقدم ذكره من الأدلة يتضح انتقاض إيمان من طعن في شخص الرسول ﷺ بسب أو استهزاء أو انتقاص، سواء كان في ذلك جاداً أو هازلاً.

ويستثنى من ذلك المكره بدليل قوله تعالى: ﴿إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُۥ مُطْمَئِنٌّۢ بِٱلْإِيمَٰنِ﴾ [النحل: ١٠٦]، فالآية نزلت في عمار بن ياسر[(٢)] حين

(١) الصارم المسلول (ص٢٩٣ ـ ٢٩٤).

(٢) عمار بن ياسر حليف بني مخزوم: من السابقين الأولين هو وأبوه وأمه، =

عذبه المشركون حتى يكفر بمحمد ﷺ فوافقهم على ذلك مكرهاً وجاء معتذراً إلى النبي ﷺ، فأنزل الله هذه الآية، وروي أن مما قاله أنه سب النبي ﷺ وذكر آلهتهم بخير، فشكا ذلك إلى رسول الله ﷺ فقال: «يا رسول الله ما تركت حتى سببتك وذكرت آلهتهم بخير، قال: «**كيف تجد قلبك؟**»، قال: مطمئناً بالإيمان، فقال: «**إن عادوا فعد**». وفي ذلك أنزل الله: ﴿إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُۥ مُطْمَئِنٌّۢ بِٱلْإِيمَـٰنِ﴾ [النحل: ١٠٦]، ولهذا اتفق العلماء على أن المكره على الكفر يجوز له أن يوالي إبقاء لمهجته، ويجوز له أن يأبى، كما كان بلال[١] رضي الله عنه يأبى عليهم ذلك، وهم يفعلون به الأفاعيل...»[٢].

❑ القسم الثاني: من نواقض الإيمان بالنبي ﷺ:

الطعن فيما أخبر به الرسول ـ لا مما هو معلوم من الدين بالضرورة ـ إما بإنكاره أو انتقاصه.

فإذا اجتمعت الشروط التالية في المنكر وهي:

أ ـ أن يكون ذلك الأمر المنقض من الأمور التي أجمعت عليها الأمة وأن يكون من الأمور المعلومة من الدين بالضرورة؛ أي: أن يكون

= هاجر إلى المدينة، وشهد المشاهد كلها، قتل بصفين سنة (٣٧هـ). الإصابة (٢/ ٥٠٥، ٥٠٦) رقم (٥٧٠٦).

(١) بلال بن رباح الحبشي: مؤذن رسول الله ﷺ، أحد السابقين إلى الإسلام الذين عُذبوا بمكة، وكان أمية بن خلف يخرجه إذا حميت الظهيرة فيطرحه على ظهره في بطحاء مكة، ثم يأمر بالصخرة العظيمة على صدره، ثم يقول: لا يزال على ذلك حتى يموت أو يكفر بمحمد ﷺ، فيقول وهو على ذلك: أَحَدٌ أَحَدٌ، فمرَّ به أبو بكر فاشتراه منه وأعتقه، ومناقبه كثيرة، شهد المشاهد كلها مع النبي ﷺ، مات بالشام سنة عشرين. الإصابة (١/ ١٦٩) رقم (٧٣٦).

(٢) تفسير ابن كثير (٢/ ٥٨٧، ٥٨٨) (بتصرف).

علمه منتشراً كالصلوات الخمس وصوم شهر رمضان، وعموم رسالته(١).

ب ـ أن لا يكون المنكر حديث عهد بالإسلام لا يعرف حدوده، فهذا إذا أنكر شيئاً من الأمور المعلومة من الدين بالضرورة جهلاً به فإنه لا يكفر(٢).

ج ـ أن لا يكون المُنكِر مكرهاً على ذلك، فإن المكره له حكم آخر كما قدمنا ذلك.

والمُنكِر في هذه الحالة يحكم بكفره وانتقاض إيمانه. والمنتقص لأمور الدين إذا كان غير مكره فإنه يكفر سواء كان جاداً في ذلك أم هازلاً.

والأمثلة على هذا القسم كثيرة جداً، نذكر منها على سبيل المثال ما يختص بجانب الإيمان برسالة النبي ﷺ.

أولاً: «أن يعتقد أن غير هدي النبي ﷺ أكمل من هديه وأن حكم غيره أحسن من حكمه، كالذين يفضلون القانون الوضعي على حكم الشرع ويصفون الشريعة الإسلامية بالقصور والرجعية وعدم مسايرة التطور، وهذا من أعظم المناقضة لشهادة أن محمداً رسول الله.

ثانياً: من أبغض شيئاً مما جاء به الرسول ﷺ ولو عمل به فهو كافر»(٣).

ثالثاً: اعتقاد الإنسان أنه يسعه الخروج عن شريعة النبي ﷺ.

ولهذا الأمر صورتان:

الأولى: أن لا يرى وجوب تصديق الرسول ﷺ ولا وجوب طاعته فيما أمر به، وإن اعتقد مع ذلك أن الرسول ﷺ عظيم القدر

---

(١) انظر: صحيح مسلم بشرح النووي (١/ ٢٠٥).
(٢) المصدر السابق (١/ ٢٠٥).
(٣) الجامع الفريد: رسالة نواقض الإسلام للشيخ محمد بن عبد الوهاب (ص٢٨٢).

علماً وعملاً وأنه يجوز تصديقه وطاعته ولكنه يقول: إنه لا يضر اختلاف الملل إذا كان المعبود واحداً، ويرى أنه تحصل النجاة والسعادة بمتابعة الرسول وبغير متابعته، وهذا هو قول الفلاسفة والصابئة[١]، وهذا القول لا ريب في كفر صاحبه، «فمن نواقض الإسلام أن يعتقد الإنسان عدم كفر المشركين ويرى صحة مذهبهم، أو يشك في كفرهم»[٢].

وهذا القول هو الذي ينادي به في وقتنا الحاضر من يدعون إلى وحدة الأديان ويروج لهم في ذلك الماسونية[٣] اليهودية[٤].

الثانية: من يرى طلب العلم بالله من غير خبره، أو العمل لله من غير أمره، وهؤلاء وإن كانوا يعتقدون أنه يجب تصديق الرسول أو تجب طاعته، لكنهم في سلوكهم العلمي والعملي غير سالكين هذا المسلك بل يسلكون مسلكاً آخر، إما من جهة القياس والنظر، وإما من جهة الذوق والوجدان، وإما من جهة التقليد، وما جاء عن الرسول إما أن يعرضوا عنه وإما أن يردوه إلى ما سلكوه.

وإضافة إلى هذه النواقض، فإن الإيمان بالنبي ﷺ ينتقض أيضاً بالنواقض العامة الأخرى للإسلام وهي:

---

(١) مجموع الفتاوى (٧/ ٦٣٩). (٢) الجامع الفريد (ص٢٨٢).

(٣) الماسونية: عبارة فرنسية معناها البناؤون الأحرار، والماسونية حركة يهودية سرية تعمل تحت ستار التآخي بين الأديان، وهدفها الرئيسي السيطرة على العالم عن طريق أصحاب الجاه والنفوذ في بقاع العالم، وذلك بواسطة المحافل التي تقيمها في بقاع كثيرة من العالم.
انظر كتاب: «الماسونية ذلك العالم المجهول» لصابر طعيمة.

(٤) كتاب الولاء والبراء (ص٣٤٤).

١ ـ الشرك في عبادة الله تعالى:

قال الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغۡفِرُ أَن يُشۡرَكَ بِهِۦ وَيَغۡفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُۚ﴾ [النساء: ٤٨].

وقال تعالى: ﴿لَئِنۡ أَشۡرَكۡتَ لَيَحۡبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلۡخَٰسِرِينَ ﴿٦٥﴾﴾ [الزمر]، وقال تعالى: ﴿وَلَوۡ أَشۡرَكُواْ لَحَبِطَ عَنۡهُم مَّا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ﴿٨٨﴾﴾ [الأنعام]، وقال تعالى: ﴿إِنَّهُۥ مَن يُشۡرِكۡ بِٱللَّهِ فَقَدۡ حَرَّمَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِ ٱلۡجَنَّةَ وَمَأۡوَىٰهُ ٱلنَّارُۖ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنۡ أَنصَارٍ ﴿٧٢﴾﴾ [المائدة].

٢ ـ أن يجعل بينه وبين الله وسائط:

يدعوهم ويسألهم الشفاعة فيما لا يقدر عليه إلا الله، ويتوكل عليهم فهذا كافر بالإجماع[١].

قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ عِبَادٌ أَمۡثَالُكُمۡۖ﴾ [الأعراف: ١٩٤].

وقال تعالى: ﴿يَدۡعُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُۥ وَمَا لَا يَنفَعُهُۥۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلضَّلَٰلُ ٱلۡبَعِيدُ ﴿١٢﴾ يَدۡعُواْ لَمَن ضَرُّهُۥٓ أَقۡرَبُ مِن نَّفۡعِهِۦۚ لَبِئۡسَ ٱلۡمَوۡلَىٰ وَلَبِئۡسَ ٱلۡعَشِيرُ ﴿١٣﴾﴾ [الحج]، وقال تعالى: ﴿وَأَنَّ ٱلۡمَسَٰجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدۡعُواْ مَعَ ٱللَّهِ أَحَدٗا ﴿١٨﴾﴾ [الجن].

٣ ـ السحر:

ومنه الصرف والعطف، فمن فعله أو رضي به كفر[٢] بدليل قوله تعالى: ﴿وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنۡ أَحَدٍ حَتَّىٰ يَقُولَآ إِنَّمَا نَحۡنُ فِتۡنَةٞ فَلَا تَكۡفُرۡۖ﴾ [البقرة: ١٠٢].

---

(١) الجامع الفريد (ص٢٨٢).

(٢) المصدر السابق (ص٢٨٢). والمراد بالصرف: التفريق بين الزوجين. والعطف: الجمع بينهما.

٤ ـ «مظاهرة المشركين ومعاونتهم على المسلمين»[١]:

والدليل على ذلك قوله تعالى: ﴿وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُۥ مِنْهُمْ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ۝٥١﴾ [المائدة]، وهذا من أعظم النواقض التي وقع فيها سواد الناس اليوم في الأرض، وهم بعد ذلك يحسبون على الإسلام ويتسمّون بأسماء إسلامية، فلقد صرنا في عصر يُستحى فيه أن يقال للكافر: يا كافر.

ومظاهرة المشركين أخذت صوراً شتى، فمن الميل القلبي، إلى انتحال مذاهبهم الإلحادية، إلى مجاراتهم في تشريعاتهم، إلى كشف عورات المسلمين لهم، إلى كل صغير وكبير في حياتهم...[٢].

٥ ـ الإعراض عن دين الله تعالى:

لا يتعلمه ولا يعمل به[٣]، والدليل على ذلك قوله تعالى: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِۦ ثُمَّ أَعْرَضَ عَنْهَآ إِنَّا مِنَ ٱلْمُجْرِمِينَ مُنتَقِمُونَ ۝٢٢﴾ [السجدة].

ولا فرق في جميع هذه النواقض بين الهازل والجاد والخائف، إلا المكره، وكلها من أعظم ما يكون خطراً، وأكثر ما يكون وقوعاً، فينبغي للمسلم أن يحذرها ويخاف منها على نفسه[٤]، ومعرفة المسلم لهذه الأمور تجعله على بصيرة من أمره، وتكسبه وتزيده معرفة لأمور عقيدته، فبضدها تتميز الأشياء.

❋ ❋ ❋

---

(١) الجامع الفريد (ص٣٨٣).
(٢) كتاب الولاء والبراء في الإسلام، تأليف محمد بن سعيد القحطاني (ص٨٣) بتصرف بسيط.
(٣) الجامع الفريد (ص٢٨٤).
(٤) المصدر السابق (ص٣٨٤).

المبحث الثاني

وجوب الإيمان بنبوته ورسالته ﷺ

وفيه ثلاث مطالب:

المطلب الأول: معنى النبوة والرسالة.

المطلب الثاني: الأدلة من القرآن والسُّنَّة على وجوب الإيمان به ﷺ.

المطلب الثالث: دلائل نبوته ﷺ.

المطلب الأول

معنى النبوة والرسالة

جمع الله لنبيه محمد ﷺ بين النبوة والرسالة، قال تعالى: ﴿مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَآ أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَـٰكِن رَّسُولَ ٱللَّهِ وَخَاتَمَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ﴾ [الأحزاب: ٤٠].

□ أ ـ معنى النبي لغة وشرعاً:

النبوة في اللغة العربية مشتقة إما: من (النبأ) أو (النباوة) أو (النَّبْوة) أو (النبي)(١):

١ ـ فإذا كانت مأخوذة من **(النبأ)** فتكون بمعنى الإخبار؛ لأن النبأ هو الخبر.

٢ ـ وإذا كانت مأخوذة من **(النباوة أو النبوة)** فتكون بمعنى الرِّفعة والعلو؛ لأن (النباوة أو النبوة: هي الشيء المرتفع).

٣ ـ أما إذا كانت مأخوذة من **(النبي)** بدون همز، فيكون معناها الطريق إلى الله ﷻ؛ لأن معنى «النبي» الطريق.

ولو نظرنا إلى النبوة الشرعية لوجدنا أنها تشمل كل هذه المعاني، إذ النبوة إخبار عن الله ﷻ، وهي رفعة لصاحبها لما فيها من التشريف والتكريم، وهي الطريق الموصلة إلى الله سبحانه.

---

(١) انظر: لسان العرب مادة: (نبأ) (١/ ١٦٢ ـ ١٦٣)، ومعجم مقاييس اللغة (٥/ ٣٨٤، ٣٨٥).

أما **النبوة في اصطلاح** الشرع: «فهي خبر خاص يكرم الله ﷻ به أحداً من عباده فيميزه عن غيره بإيحائه إليه ويوقفه به على شريعته بما فيها من أمر ونهي ووعظ وإرشاد ووعد ووعيد»[(١)].

أما النبي فقد اختلف العلماء في تعريفه:

- **فمنهم من قال:** هو الذي أوحى الله إليه بشرع[(٢)] ليعمل به ولم يؤمر بتبليغه.

- **ومنهم من قال:** هو الذي أوحى الله إليه أن يدعو الناس إلى شريعة رسول قبله[(٣)].

- **ومنهم من قال:** هو الذي أوحى الله إليه وأخبره بأمره ونهيه وخبره، ويعمل بشريعة رسول قبله بين قوم مؤمنين[(٤)].

وهذا هو الذي اختاره شيخ الإسلام ابن تيمية، ولعله هو أرجح الأقوال وأسلمها من الاعتراض، فقد اعترض على القول الأول بأنه غير صحيح؛ لأن قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ مِن رَّسُولٖ وَلَا نَبِيٍّ﴾ [الحج: ٥٢] يدل على أن كلاًّ منهما مرسل وأنهما مع ذلك بينهما تغاير[(٥)]، وكذلك مما يؤكد كون الأنبياء مأمورين بتبليغ قومهم ما أوحي إليهم والحكم بينهم بذلك ما جاء في صحيح مسلم من حديث أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: «**كانت بنو إسرائيل تسوسهم الأنبياء كلما هلك نبي،**

---

(١) شعب الإيمان للبيهقي، الباب الثاني من شعب الإيمان (ص٢٧٥) رسالة ماجستير في الجامعة الإسلامية بتحقيق فالح بن ثاني.

(٢) المصدر السابق (ص٢٧٥)، وشرح العقيدة الطحاوية (ص١٦٧).

(٣) أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن، للشيخ محمد الأمين الشنقيطي (٥/ ٧٣٥).

(٤) كتاب النبوات لشيخ الإسلام ابن تيمية (ص٢٥٥).

(٥) أضواء البيان (٥/ ٧٣٥).

خلفه نبي وإنه لا نبي بعدي...» الحديث[(١)].

«أي: تتولى أمورهم كما تفعل الأمراء والولاة بالرعية. والسياسة: القيام على الشيء بما يصلحه»[(٢)].

وقد اعتُرض على القول الثاني بأن الضابط الذي ذكروه لا يستقيم؛ فيوسف عليه السلام كان رسولاً وكان على شريعة إبراهيم، قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ جَآءَكُمْ يُوسُفُ مِن قَبْلُ بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَمَا زِلْتُمْ فِى شَكٍّ مِّمَّا جَآءَكُم بِهِۦ حَتَّىٰٓ إِذَا هَلَكَ قُلْتُمْ لَن يَبْعَثَ ٱللَّهُ مِنۢ بَعْدِهِۦ رَسُولًا﴾ [غافر: ٣٤].

وكذلك داود وسليمان عليهما السلام كانا رسولين وكانا على شريعة التوراة قال تعالى: ﴿إِنَّآ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ كَمَآ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ نُوحٍ وَٱلنَّبِيِّۦنَ مِنۢ بَعْدِهِۦ ۚ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطِ وَعِيسَىٰ وَأَيُّوبَ وَيُونُسَ وَهَٰرُونَ وَسُلَيْمَٰنَ ۚ وَءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ زَبُورًا ﴿١٦٣﴾ وَرُسُلًا قَدْ قَصَصْنَٰهُمْ عَلَيْكَ مِن قَبْلُ وَرُسُلًا لَّمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ ۚ وَكَلَّمَ ٱللَّهُ مُوسَىٰ تَكْلِيمًا ﴿١٦٤﴾﴾ [النساء].

❑ ب ـ معنى الرسول لغة وشرعاً:

الرسول لغة: إما مأخوذ من الرِّسل.

والرِّسل: هو الانبعاث على تؤدة. يقال: ناقة رسلة؛ أي: سهلة السير، وإبل مراسيل: منبعثة انبعاثاً سهلاً. ولفظ (الرِّسل) متضمن لمعنى الرفق ومعنى الانبعاث. فإذا تصور منه معنى الرفق يقال: على رسلك إذا أمرته بالرفق. وإذا تصور منه معنى الانبعاث يقال: إبل مراسيل؛ أي: منبعثة.

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الأنبياء، باب ما ذكر عن بني إسرائيل. انظر: فتح الباري (٦/ ٤٩٥) (ح٣٤٥٥). وأخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الإمارة، باب الأمر بالوفاء ببيعة الخلفاء الأول فالأول (٦/ ١٧).

(٢) النهاية في غريب الحديث (٢/ ٤٢١).

ولفظ الرسول اشتق من المعنى الثاني؛ أي: الانبعاث.

فالرسول على هذا الاشتقاق هو المنبعث(١).

وإما مأخوذ من الرَّسْل: وهو التتابع، فيقال: جاءت الإبل رَسْلاً؛ أي: متتابعة، ويقال: جاءوا أرْسَالاً؛ أي: متتابعين.

ومعنى الرسول على هذا الاشتقاق: هو الذي يتابع أخبار الذي بعثه(٢).

ولو نظرنا إلى كلا الاشتقاقين فإنا نجد أن لفظ الرسول في اصطلاح الشرع يدل عليهما، فالرسول مبعوث من قبل الله، وهو كذلك يتابع أخبار الوحي المنزل إليه من الله تعالى.

ولفظ الرسول تارة يقال للقول المُتَحَمَّل كقول الشاعر:

ألا بلِّغ أبا حفص رسولا ....

وتارة لمُتَحَمِّل القول والرسالة(٣).

والرسول في الشرع: عُرِّف بعدة تعريفات:

فمن العلماء من عرَّفه بقوله: هو الذي أوحى الله إليه بخبر وأمره بتبليغه للناس، وهؤلاء فرقوا بينه وبين النبي بأن النبي أوحي إليه بخبر ولم يؤمر بتبليغه(٤).

ومنهم من عرَّفه بقوله: هو الذي أنزل إليه كتاب وشرع مستقل مع المعجزة التي تثبت بها نبوته.

---

(١) المفردات في غريب القرآن، تأليف أبي القاسم حسين محمد المعروف بالراغب الأصفهاني (ص١٩٥) مادة: (رسل).

(٢) المصدر السابق (ص١٩٥)، ولسان العرب مادة: (رسل) (١١/ ٢٨٤).

(٣) المصدر السابق (ص١٩٥)، ولسان العرب مادة: (رسل) (١١/ ٢٨٤).

(٤) شعب الإيمان للبيهقي (ص٢٧٥ ـ ٢٧٦) بتحقيق فلاح بن ثاني، وشرح العقيدة الطحاوية (ص١٦٧).

وقالوا: إن النبي هو الذي لم ينزل إليه كتاب وإنما أوحي إليه أن يدعو الناس إلى شريعة رسول قبله[(١)].

ومنهم من قال: إن الرسول هو الذي ينبئه الله ثم يأمره أن يبلغ رسالته إلى من خالف أمره؛ أي: إلى قوم كافرين.

أما النبي فهو من أوحى الله إليه وأخبره بأمره ونهيه وخبره، ويعمل بشريعة رسول قبله بين قوم مؤمنين بهما.

وهذا ما ذهب إليه شيخ الإسلام ابن تيمية، واستشهد لذلك بأن نوحاً عليه السلام كان هو أول رسول بعث إلى أهل الأرض، وكان أول شرك بالله قد وقع في قومه.

وقد كان قبل نوح أنبياء كشيث وإدريس عليهما السلام وقبلهما آدم كان نبيّاً مكلماً، وقد كان بين آدم ونوح عشرة قرون كلهم على الإسلام وكان المبعوثون في هذه القرون أنبياء فقط[(٢)].

وهذا القول الثالث هو أرجح الأقوال.

أما القول الأول فهو غير مسلَّم كما سبق، وإن وضحت في الكلام على معنى النبي. وكذا الأمر بالنسبة للقول للثاني فليس من شرط الرسول أن يأتي بشريعة جديدة كما تقدم ذكر ذلك.

❊ ❊ ❊

(١) أضواء البيان (٥/ ٧٣٥).

(٢) النبوات (ص٢٥٥ ـ ٢٥٦).

المطلب الثاني

الأدلة من القرآن والسُّنَّة على وجوب الإيمان به ﷺ

▢ أ ـ الأدلة من القرآن:

أوجب الله ﷻ على الثقلين ـ الإنس والجن ـ الذين أدركتهم رسالة النبي ﷺ أن يؤمنوا بالنبي ﷺ وبما جاء به كما شهدت بذلك نصوص الكتاب العزيز.

كما أكد الله وجوب الإيمان بأن جعله مقترناً بالإيمان به ﷻ في مواضع كثيرة من القرآن الكريم منها:

قال تعالى: ﴿ءَامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَأَنفِقُوا۟ مِمَّا جَعَلَكُم مُّسْتَخْلَفِينَ فِيهِ ۖ فَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَأَنفَقُوا۟ لَهُمْ أَجْرٌ كَبِيرٌ ﴿٧﴾ وَمَا لَكُمْ لَا تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ ۙ وَٱلرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ لِتُؤْمِنُوا۟ بِرَبِّكُمْ وَقَدْ أَخَذَ مِيثَـٰقَكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٨﴾﴾ [الحديد]، وقال تعالى: ﴿فَـَٔامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَٱلنُّورِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلْنَا ۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿٨﴾﴾ [التغابن].

وقال تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ ءَامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَٱلْكِتَـٰبِ ٱلَّذِى نَزَّلَ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَٱلْكِتَـٰبِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ مِن قَبْلُ ۚ وَمَن يَكْفُرْ بِٱللَّهِ وَمَلَـٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَـٰلًۢا بَعِيدًا ﴿١٣٦﴾﴾ [النساء]، وقال تعالى: ﴿لِّتُؤْمِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتُعَزِّرُوهُ وَتُوَقِّرُوهُ وَتُسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴿٩﴾﴾ [الفتح]، وقال تعالى: ﴿قُلْ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ يُحْىِۦ وَيُمِيتُ ۖ فَـَٔامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِ ٱلنَّبِىِّ ٱلْأُمِّىِّ ٱلَّذِى يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَكَلِمَـٰتِهِۦ وَٱتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٥٨﴾﴾ [الأعراف]، وقال تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ

وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُواْ وَجَٰهَدُواْ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّٰدِقُونَ ﴿١٥﴾﴾ [الحجرات]. والإيمان به ﷺ واحد من ثلاثة حقوق اقترن بها حقه ﷺ مع حق الله تعالى في القرآن الكريم.

أما الحق الثاني له:

فهو طاعته قال تعالى: ﴿وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿١٣٢﴾﴾ [آل عمران]، وسيأتي بيانه في الفصل الثاني من هذا الباب.

والحق الثالث هو:

محبته قال تعالى: ﴿قُلْ إِن كَانَ ءَابَآؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ وَإِخْوَٰنُكُمْ وَأَزْوَٰجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَٰلٌ ٱقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَٰرَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَٰكِنُ تَرْضَوْنَهَآ أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِۦ فَتَرَبَّصُواْ حَتَّىٰ يَأْتِيَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِي ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿٢٤﴾﴾ [التوبة]، وسيأتي بيانه في الباب الثاني.

«كما أن الإيمان به واجب متعين لا يتم إيمان إلا به ولا يصح إسلام إلا معه»[(١)].

وقال تعالى في حق من لم يؤمن: ﴿وَمَن لَّمْ يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ فَإِنَّآ أَعْتَدْنَا لِلْكَٰفِرِينَ سَعِيرًا ﴿١٣﴾﴾ [الفتح].

وبما تقدم من آيات يعلم وجوب الإيمان بالرسول ﷺ وأهميته وأنه لا يتم الإيمان بالله بدون الإيمان به، كما لا تحصل نجاة ولا سعادة بدون الإيمان به، لأنه هو الطريق إلى الله ﷻ، ولذلك كان أول أركان الإسلام «شهادة أن لا إله إلا الله وشهادة أن محمداً رسول الله».

□ ب ـ الأدلة من السُّنَّة على وجوب الإيمان به ﷺ:

وردت في السُّنَّة أحاديث كثيرة جداً تدل على وجوب الإيمان به ﷺ على الجن والإنس الذين أدركتهم رسالته، سواء كانوا أهل كتاب، أم

(١) الشفا للقاضي عياض (٢/ ٥٣٨) (بتصرف).

ليسوا بأهل كتاب، ويستوي في ذلك عربهم وعجمهم، وذكرهم وأنثاهم، فلا يسع أحداً من هؤلاء الخروج عن شريعته أو التعبد لله بغير ما جاء به؛ لأن الله لا يقبل من أحد عملاً يخالف شرع نبيه محمد ﷺ.

قال تعالى: ﴿وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٨٥﴾﴾ [آل عمران]، وسأورد ههنا بعضاً من تلك الأحاديث الواردة في هذا الشأن:

١ ـ عن أبي هريرة رضي الله عنه عن رسول الله ﷺ قال: «**أمرت أن أقاتل الناس حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله ويؤمنوا بي وبما جئت به، فإذا فعلوا ذلك عصموا مني دماءهم وأموالهم إلا بحقها وحسابهم على الله**»(١).

٢ ـ وعن ابن عمر رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال: «**أمرت أن أقاتل الناس حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله، وأن محمداً رسول الله، ويقيموا الصلاة، ويؤتوا الزكاة، فإذا فعلوا ذلك عصموا مني دماءهم وأموالهم إلا بحق الإسلام، وحسابهم على الله**»(٢).

٣ ـ عن أبي هريرة رضي الله عنه عن رسول الله ﷺ أنه قال: «**والذي نفس محمد بيده لا يسمع بي أحد من هذه الأمة يهودي ولا نصراني ثم يموت ولم يؤمن بالذي أرسلت به إلا كان من أصحاب النار**»(٣).

٤ ـ وعن ابن عباس رضي الله عنهما في حديث وفد عبد القيس أن النبي ﷺ

---

(١) أخرجه بهذا اللفظ مسلم في صحيحه، كتاب الإيمان، باب الأمر بقتال الناس حتى يقولوا لا إله إلا الله محمد رسول الله (١/ ٣٩).

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الإيمان، باب ﴿فَإِن تَابُوا۟ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ فَخَلُّوا۟ سَبِيلَهُمْ﴾ [التوبة: ٥]، انظر: فتح الباري (١/ ٧٥) (ح٢٥). وأخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الإيمان، باب الأمر بقتال الناس حتى يقولوا لا إله إلا الله محمد رسول الله. انظر (١/ ٣٩).

(٣) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الإيمان، باب وجوب الإيمان برسالة نبينا محمد ﷺ إلى جميع الناس ونسخ الملل بملته (١/ ٩٣).

قال لهم: «**أتدرون ما الإيمان بالله وحده؟**»، قالوا: الله ورسوله أعلم. قال: «**شهادة أن لا إلٰه إلا الله وأن محمداً رسول الله، وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة وصيام رمضان، وأن تعطوا من المغنم الخمس....**» الحديث(١).

٥ ـ وعن معاذ بن جبل رضي الله عنه قال: بعثني رسول الله فقال: «**إنك تأتي قوماً من أهل الكتاب فادعهم إلى شهادة أن لا إلٰه إلا الله وأني رسول الله، فإن هم أطاعوا لذلك فأعلمهم أن الله افترض عليهم خمس صلوات في كل يوم وليلة، فإن هم أطاعوا لذلك فأعلمهم أن الله افترض عليهم صدقة تؤخذ من أغنيائهم فترد في فقرائهم، فإن هم أطاعوا لذلك فإياك وكرائم أموالهم واتق دعوة المظلوم فإنه ليس بينها وبين الله حجاب**»(٢).

وهذه الأحاديث وغيرها تؤكد وجوب الإيمان به ﷺ وبما جاء به، وكذلك طاعته، ويكون ذلك بأن يحل ما أحل الله ورسوله، ويحرم ما حرم الله ورسوله، ويوجب ما أوجبه الله ورسوله، ويحب ما أحبه الله ورسوله، ويكره ما كرهه الله ورسوله. وقد تقدم معنى الإيمان بالنبي ﷺ في المبحث الأول فليرجع إليه.

□ ج ـ دليل الإجماع:

أجمعت الأمة على وجوب الإيمان بالنبي ﷺ، كما أجمعت كذلك على أن كل من قامت عليه الحجة برسالة محمداً ﷺ من الإنس والجن فلم يؤمن به استحق عقاب الله تعالى، كما يستحقه أمثاله من الكافرين

---

(١) تقدم تخريجه (ص٣٤).

(٢) أخرجه بهذا اللفظ مسلم في صحيحه، كتاب الإيمان، باب الأمر بالإيمان بالله ورسوله وشرائع الدين والدعاء إليه (١/ ٣٥)؛ وأخرجه بنحوه البخاري في صحيحه، كتاب التوحيد، باب ما جاء في دعاء النبي ﷺ أمته إلى توحيد الله تبارك وتعالى. انظر: فتح الباري (١/ ٣٤٧) (ح٧٣٧٢).

الذين بعث إليهم الرسول، وهذا أصل متفق عليه بين الصحابة والتابعين لهم بإحسان وأئمة المسلمين وسائر طوائف المسلمين أهل السُّنَّة والجماعة وغيرهم(١)؛ لأن الرسول ﷺ هو الذي جاء بذلك وذكره الله في كتابه وبيَّنه الرسول أيضاً في الحكمة المنزلة عليه من غير الكتاب، فإن الله تعالى أنزل عليه الكتاب والحكمة، ولم يبتدع المسلمون شيئاً من ذلك من تلقاء أنفسهم(٢).

❊ ❊ ❊

(١) إيضاح الدلالة في عموم الرسالة، لشيخ الإسلام ابن تيمية مطبوعة ضمن مجموعة الرسائل المنيرية. انظر: (٢/ ٩٩).
(٢) الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح (١/ ١٢٦).

المطلب الثالث

دلائل نبوته ﷺ

أيَّد الله تبارك وتعالى رسوله ﷺ بالدلائل، والمعجزات الكثيرة الدالة على وجوب الإيمان به وصدق رسالته، وهذه الدلائل والمعجزات فاقت الألف معجزة كما ذكر ذلك غير واحد من العلماء(١)، ومنها ما هو حسي ومنها ما هو معنوي، وكذلك هي متنوعة، فمنها: ما كان قبل مولده كبشارات الأنبياء به، ومنها: ما كان وقت ولادته كقصة الفيل والعجائب التي حدثت عام مولده الدالة على نبوته، ومنها: ما كان عند مبعثه كالقرآن الكريم وانشقاق القمر ونبع الماء بين أصابعه ﷺ، وغير ذلك.

ومن تلك الدلائل ما استمر بعد وفاته ﷺ كالقرآن الكريم، وما أخبر به من المغيَّبات كعلامات الساعة، وما يحدث بعده. ولقد ألف عدد من العلماء مؤلفات في هذا الشأن جمعوا فيها تلك الدلائل والمعجزات(٢).

وإن من أعظم دعائم الإيمان معرفة المسلم لهذه الدلائل وأخذ العظة والعبرة منها، وذلك بتدبر ما فيها من حكم وآيات دلت على صدق رسالة نبينا ﷺ. والمقام هنا لا يستوعب إيراد هذه الدلائل والمعجزات،

---

(١) الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح، لشيخ الإسلام ابن تيمية (١/ ١٤٠).
(٢) من تلك المؤلفات: دلائل النبوة لأبي نعيم الأصبهاني، ودلائل النبوة لقوام السُّنَّة الأصبهاني، ودلائل النبوة للبيهقي، والخصائص الكبرى للسيوطي.

ولكني سأشير إلى بعض هذه الدلائل إشارات سريعة **على سبيل المثال**:

❑ أ ـ القرآن الكريم:

هو أعظم الآيات والبراهين والدلائل والمعجزات التي أعطيها النبي ﷺ، وليس من آية أبدع ولا أروع منه.

فهو المعجزة الخالدة التي أعطاها الله لرسوله ﷺ لتكون خالدة كخلود رسالته، ومشهودة لكل من أتى بعد زمانه ليعم الانتفاع بها ولتقوم بها الحجة على أهل كل زمان إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها، ولقد تعهَّد الله بحفظه وبقائه، فقال تعالى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ۝٩﴾ [الحجر]، فكان في هذا الحفظ دوامه وبقاؤه إلى قيام الساعة.

ولقد ميَّز الله نبيه بهذه المعجزة عن سائر إخوانه من الأنبياء كما جاء في حديث أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «**ما من الأنبياء نبي إلا أعطي من الآيات ما مثله آمن عليه البشر، وإنما كان الذي أوتيته وحي أوحاه الله إلي، فأرجو أني أكثرهم تابعاً يوم القيامة**»(١).

وفي تخصيص النبي ﷺ للقرآن بالذكر هنا دون المعجزات الأخرى التي أعطيها ـ والتي تزيد على الألف ـ إشارة إلى عظم هذه المعجزة ومكانتها، حتى أنه أصبح غيرها بالنسبة إليها كلا شيء لشيء.

ولقد تضمَّنت هذه المعجزة وجوهاً متعددة من الإعجاز، فالقرآن الكريم معجز بلغته وفصاحته وبيانه وبلاغته وأحكامه وتشريعاته وبما حواه من أخبار وقصص، ومغيَّبات، وعلوم، فهو معجز من جميع الوجوه،

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الاعتصام بالكتاب والسُّنَّة، باب قول النبي ﷺ: «**بعثت بجوامع الكلم**» واللفظ له. انظر: فتح الباري (٣/ ٢٤٧) (ح٧٢٧٤). وأخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الإيمان، باب وجوب الإيمان برسالة نبينا محمد ﷺ إلى جميع الناس ونسخ الملل بملته. انظر (١/ ٩٢، ٩٣).

ولقد تحدَّى الله قوم النبي ﷺ على أن يأتوا بمثله أو بشيء منه، فالقرآن الكريم نزل بلغتهم فهم يعرفون حروفه ومعانيه، إضافة إلى أنه نزل في أوان وزمان بلغت فيه قريش ذروة الفصاحة والبلاغة والبيان، فلقد كان فيهم أولوا الأحلام والنهى والأفهام والألسن الحداد، والقرائح الجياد، والعقول السداد.

فالتحدي كان لهم بأمر يعرفون طريقه ولهم بجنسه عهد، بل إنهم نبغوا فيه وبلغوا فيه ذروته.

ولذلك فقد توهم كفار قريش في بداية أمرهم أن باستطاعتهم الإتيان بمثله وقدروا أن في وسعهم معارضته فقالوا: ﴿لَوْ نَشَآءُ لَقُلْنَا مِثْلَ هَٰذَآ إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٣١﴾﴾ [الأنفال].

فجاءهم التحدي من الله على ثلاث مراحل هي:

ـ المرحلة الأولى:

التحدي بالإتيان بمثل القرآن، وذلك كما جاء في قوله تعالى: ﴿أَمْ يَقُولُونَ تَقَوَّلَهُۥ بَل لَّا يُؤْمِنُونَ ﴿٣٣﴾ فَلْيَأْتُوا۟ بِحَدِيثٍ مِّثْلِهِۦٓ إِن كَانُوا۟ صَٰدِقِينَ ﴿٣٤﴾﴾ [الطور].

ـ المرحلة الثانية:

تحداهم بالإتيان بعشر سور مثله حيث قال تبارك وتعالى: ﴿أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ قُلْ فَأْتُوا۟ بِعَشْرِ سُوَرٍ مِّثْلِهِۦ مُفْتَرَيَٰتٍ وَٱدْعُوا۟ مَنِ ٱسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿١٣﴾﴾ [هود].

ـ المرحلة الثالثة:

حيث تحداهم تبارك وتعالى بالإتيان بسورة واحدة، فقال تعالى: ﴿وَإِن كُنتُمْ فِى رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا۟ بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِۦ وَٱدْعُوا۟ شُهَدَآءَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٢٣﴾﴾ [البقرة]، فعجزوا عن الإتيان بسورة واحدة مع شدة الاجتهاد وقوة الأسباب، فقد كانوا حريصين على

تكذيبه وإبطاله بكل طريق، ولكن مع هذا كله فقد عجزوا عن ذلك.

ولقد أخبر الله بعجزهم عند تحديه إياهم بالإتيان بسورة من مثله فقال تعالى: ﴿فَإِن لَّمْ تَفْعَلُواْ وَلَن تَفْعَلُواْ فَاتَّقُواْ النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ ﴿٢٤﴾﴾ [البقرة].

ولما عجزوا عن الإتيان بما تحدَّاهم به قطع الله طمعهم على أن يأتوا بمثله فقال تعالى: ﴿قُل لَّئِنِ اجْتَمَعَتِ الْإِنسُ وَالْجِنُّ عَلَىٰ أَن يَأْتُواْ بِمِثْلِ هَٰذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا ﴿٨٨﴾﴾ [الإسراء].

وبعد مرحلة قطع الطمع أنزل الله فواتح السور كـ(الم، الر، المر) وغيرها تقريعاً وتوبيخاً للكفار، مخبراً لهم أن ما تحداهم به مكوَّن من حروف هي حروف العربية التي يتحدثون بها والتي بلغوا ذروتها فهم أفصح العرب، والقرآن نزل بلغة العرب، ولقد جرت سُنَّة الله بأن يعطي كل رسول من المعجزات ما يناسب ما اشتهر به قومه، فلقد أعطى موسى العصا لاشتهار من أرسل إليهم بالسحر وما يتعلق به، وأعطى عيسى معجزة إحياء الموتى وإبراء الأكمه والأبرص والأعمى لاشتهار قومه بالطب وهكذا، فأعطى نبينا محمداً ﷺ القرآن لما اشتهرت به قريش من الفصاحة والبيان.

فهذا ما كان من أمر التحدي الذي تحدى الله به أهل مكة وغيرهم من العرب الذين نزل القرآن بلغتهم، وسأعرض لذكر بعض جوانب هذا الإعجاز القرآني الذي عجز الكفار أن يأتوا بمثل هذا القرآن من جهتها **وهي ما يلي:**

أولاً: تحدَّاهم بفصاحة القرآن وعلو أسلوبه، وأحكامه، ودقة تعبيره، ولذا تكلف بعض سفهاء الأحلام منهم أن يأتوا بسور خيَّل لهم أنها على نمطه وشاكلته، فأضحكوا على أنفسهم العقلاء، وأما ذوو العقل والرأي منهم فأسلموا أنفسهم إلى العجز وأيقنوا من قرارة نفوسهم

أنه الحق وأنه من عند الله لا من كلام البشر، ولكن أكثرهم يجهلون فأبوا إلا الكفر أنفة واستكباراً.

ثانياً: تحدَّاهم بتشريعه الكامل الموافق لمقتضى العقل والفطرة، الهادي جميع البشر إلى سواء السبيل من جوانب الحياة كلها عقيدة وعبادة واقتصاداً وسياسة وأدباً وأخلاقاً، مع بقائه كذلك صالحاً لهداية العالم وإصلاحه في جميع جوانب الحياة إلى يوم القيامة.

ثالثاً: تحدَّاهم بما تضمَّنه القرآن من الأخبار الغيبية التفصيلية المسهبة، وبوقوف الرسول ﷺ من إخوانه المرسلين السابقين موقف المصدِّق لهم المبيِّن لتحريف أقوامهم شرائعهم، المعلن لخزاياهم وفضائحهم في خروجهم على أنبيائهم بيان الواثق بنفسه المؤمن بما أوحي إليه من ربه، وهو أمي عاش في أمة أمية، ومن أمته أهل الكتاب الذين فضحهم بسوء صنيعهم مع رسلهم وفي شرائعهم ومع ذلك لاذوا بالصمت ولم يردوا عليه ما اتهمهم به تبرئة لأنفسهم ودفعاً للنقيصة والعار عنها، فكان ذلك إيذاناً بأنه رسول الله الصادق الأمين وأن ما جاء به إنما هو وحي من رب العالمين(١).

ولقد تضمَّن القرآن الكريم جوانب أخرى من الإعجاز، فنحن في زمان انتشر فيه سلطان العلم المادي وتباهى الإنسان بمعرفته لكثير من الأمور التي خفيت عمن قبله من الأجيال، ولكن كثيراً من هذه الأمور التي يدعي الإنسان اكتشافها ومعرفتها، نجد أن القرآن الكريم قد تحدث عنها وبيَّنها، فعلى سبيل المثال تكوين الإنسان في بطن أمه تحدثت عنه آيات كثيرة من القرآن قبل أربعة عشر قرناً من الزمان بينما لم يتعرف

(١) انظر: مجلة البحوث الإسلامية، العدد التاسع (ص٢٧ ـ ٢٨) مقال بعنوان: بيان ما يسمى معجزة محمد الخالدة والمعجزة القرآنية، إعداد هيئة كبار العلماء.

علماء الطب على ذلك إلا في زمن متأخر، وكذا الأمر بالنسبة لكثير من الأمور الأخرى كتكوين الأرض وعلوم البحار وعلوم الحيوان وشتى أنواع العلوم الأخرى، وقد اهتم عدد من العلماء المسلمين بهذا الشأن فأنشؤوا ما يسمَّى «بهيئة الإعجاز العلمي في القرآن» لبيان سبق القرآن في توضيح كثير من أمور العلم التي يدعي كثير من العلماء الماديين أنها لم تعرف إلا في هذا الزمان.

وهذا كله شاهد بأن كتاب الله العزيز يبقى المعجزة الخالدة التي لا تنتهي عجائبها، قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَا لِلنَّاسِ فِي هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ مِن كُلِّ مَثَلٍ فَأَبَىٰٓ أَكْثَرُ ٱلنَّاسِ إِلَّا كُفُورًا ﴿٨٩﴾﴾ [الإسراء].

فالقرآن يبقى معجزاً في عصر العلم كما كان معجزاً في عصر الفصاحة والبلاغة.

ومن الآيات الحسية التي أعطيها النبي ﷺ زمن بعثته:

□ ب ـ انشقاق القمر:

قال تعالى: ﴿ٱقْتَرَبَتِ ٱلسَّاعَةُ وَٱنشَقَّ ٱلْقَمَرُ ﴿١﴾ وَإِن يَرَوْا۟ ءَايَةً يُعْرِضُوا۟ وَيَقُولُوا۟ سِحْرٌ مُّسْتَمِرٌّ ﴿٢﴾﴾ [القمر].

وعن أنس بن مالك رضي الله عنه: «أن أهل مكة سألوا رسول الله ﷺ أن يريهم آية فأراهم انشقاق القمر»(١).

وعن عبد الله بن مسعود(٢) رضي الله عنه قال: انشق القمر على عهد

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب المناقب، باب سؤال المشركين أن يريهم النبي ﷺ آية، فأراهم انشقاق القمر. انظر: فتح الباري (٦/ ٦٣١) (ح٣٦٣٧).

(٢) عبد الله بن مسعود الهذلي: أسلم قديماً، وهاجر الهجرتين، وشهد بدراً والمشاهد بعدها، وكان أول من جهر بالقرآن بمكة وكان من فقهاء الصحابة، توفي عام (٣٢هـ) بالمدينة.
الإصابة: (١/ ٣٦٠، ٣٦٢) رقم (٤٩٥٤).

النبي ﷺ شقين، فقال: «**اشهدوا**»[(١)].

❐ ج ـ نبع الماء بين أصابعه:

فعن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: «أتي رسول الله ﷺ بإناء وهو بالزوراء[(٢)] فوضع يده في الإناء فجعل الماء ينبع من بين أصابعه، فتوضأ القوم. قال قتادة: قلت لأنس: كم كنتم؟، قال: ثلاثمائة، أو زهاء ثلاثمائة»[(٣)]. وقد روى حديث نبع الماء من بين أصابعه ﷺ جماعة من الصحابة منهم أنس وجابر وابن مسعود[(٤)].

❐ د ـ إشباع العدد الكثير من الطعام القليل:

عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: «قال أبو طلحة[(٥)] لأم سليم[(٦)]: لقد

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب المناقب، باب سؤال المشركين أن يريهم النبي ﷺ آية، فأراهم انشقاق القمر. انظر: فتح الباري (٦/ ٦٣١) (ح٣٦٣٦).

(٢) الزوراء: موضع بالمدينة عند سوقها في ذلك الوقت. وفاء الوفاء (٤/ ١٢٢٩).

(٣) أخرجه البخاري في صحيحه واللفظ له، كتاب المناقب، باب علامات النبوة في الإسلام. انظر: فتح الباري (٦/ ٥٨٠) (ح٣٥٧٢)؛ وأخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الفضائل، باب في معجزات النبي ﷺ (٧/ ٤٩).
فائدة: قال ابن حجر في فتح الباري (٦/ ٥٨٥): «حديث نبع الماء من أصابعه ﷺ، جاء من رواية أنس عند الشيخين وأحمد وغيرهم من خمسة طرق، وعن جابر بن عبد الله من أربعة طرق، وعن ابن مسعود عند البخاري والترمذي، وعن ابن عباس عند أحمد والطبراني من طريقين. وعن ابن أبي ليلى والد عبد الرحمٰن عند الطبراني». انتهى كلامه.

(٤) الشفا (١/ ٤٠٢).

(٥) أبو طلحة: اسمه زيد بن سهل بن الأسود الأنصاري النجاري الخزرجي: مشهور بكنيته، شهد العقبة ثم شهد بدراً وما بعدها من المشاهد، توفي عام (٣١هـ) وقيل (٣٤هـ).
الإصابة (١/ ٥٤٩) رقم (٢٩٠٥).

(٦) أم سليم بنت ملحان بن خالد الأنصارية: وهي أم أنس خادم رسول الله ﷺ =

سمعت صوت رسول الله ﷺ ضعيفاً أعرف فيه الجوع، فهل عندك من شيء؟، قالت: نعم، فأخرجت أقراصاً من شعير ثم أخرجت خماراً لها، فلفت الخبز ببعضه ثم دسَّته تحت يدي، ولاثتني ببعضه، ثم أرسلتني إلى رسول الله ﷺ، قال: فذهبت به فوجدت رسول الله ﷺ في المسجد ومعه الناس، فقمت عليهم. فقال لي رسول الله ﷺ: «**آرسلك أبو طلحة؟**»، فقلت: نعم. قال: «**بطعام؟**»، قلت: نعم، قال رسول الله ﷺ لمن معه: «**قوموا**»، فانطلق وانطلقت بين أيديهم حتى جئت أبا طلحة فأخبرته. فقال أبو طلحة: يا أم سليم قد جاء رسول الله ﷺ بالناس وليس عندنا ما نطعمهم. فقالت: الله ورسوله أعلم. فانطلق أبو طلحة حتى لقي رسول الله ﷺ، فأقبل رسول الله ﷺ وأبو طلحة معه، فقال رسول الله ﷺ: «**هلمي يا أم سليم ما عندك**»، فأتت بذلك الخبز، فأمر به رسول الله ﷺ ففت، وعصرت أم سليم عكة فأدمته، ثم قال رسول الله ﷺ فيه ما شاء أن يقول. ثم قال: «**ائذن لعشرة**» فأذن لهم، فأكلوا حتى شبعوا ثم خرجوا. ثم قال: «**ائذن لعشرة**» فأذن لهم فأكلوا حتى شبعوا ثم خرجوا. ثم قال: «**ائذن لعشرة**» فأذن لهم فأكلوا حتى شبعوا ثم خرجوا. ثم قال: «**ائذن لعشرة**» فأكل القوم حتى شبعوا والقوم سبعون أو ثمانون رجلاً»(١).

وأحاديث تكثير الطعام القليل تعددت، وتكررت في مواطن متعددة، ورويت عن بضعة عشر من الصحابة، ورواها عنهم أضعافهم من التابعين ثم من لا يُعد بعدهم، وأكثر هذه الأحاديث مروية في الصحيح

= اشتهرت بكنيتها واختلف في اسمها فقيل: سهلة، وقيل: رميلة، وقيل غير ذلك. أسلمت مع السابقين من الأنصار، ولها مواقف مشهودة تدل على فضلها ومكانتها. الإصابة (٤/ ٤٤١، ٤٤٢) ت رقم (١٣٢١٩).

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب المناقب، باب علامات النبوة في الإسلام. انظر: فتح الباري (٦/ ٥٨٦) (ح٣٥٧٨).

وأكثرها في قصص مشهورة، ومجامع مشهورة، ولا يمكن التحدث عنها إلا بالحق، ولا يسكت الحاضر لها على ما أنكر منها[١].

□ هـ ـ ما اطّلع عليه من الغيوب وما سيكون في المستقبل:

«والأحاديث في هذا الباب بحر لا يدرك قعره، ولا ينزف غمره، وهي من جملة معجزاته المعلومة على القطع»[٢]، ومنها على سبيل المثال حديث حذيفة بن اليمان قال: «قام فينا رسول الله ﷺ مقاماً ما ترك شيئاً يكون في مقامه ذلك إلى قيام الساعة إلا حدَّث به، حفظه من حفظه، ونسيه من نسيه، قد علمه أصحابي هؤلاء وإنه ليكون منه الشيء نسيته فأراه فأذكره كما يذكر الرجل وجه الرجل إذا غاب عنه، ثم إذا رآه عرفه»[٣].

وبعد، فهذا جزء يسير جداً من دلائل نبوته المعنوية والحسية وصدق رسالته ﷺ، أيد الله بها نبيه ليقيم الحجة على الخلق فيحيا من حيي عن بينة، ويهلك من هلك عن بينة.

فيجب على كل مسلم أن يتدبر في دلائل نبوته ﷺ ويطّلع عليها، فإن فيها عظة وعبرة، وتزيد من إيمان المرء ويقينه بنبوة خاتم المرسلين وإمامهم، الذي أعطاه الله من الآيات والبراهين ما لم يعط أحداً من الأنبياء قبله.

❊ ❊ ❊

---

(١) الشفا (١/ ٤١٩) (بتصرف).
(٢) المصدر السابق (١/ ٤٧٠) وقد ذكر طرفاً من هذه الأحاديث فمن أراد الاستزادة فليرجع إليه.
(٣) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الفتن، باب إخبار النبي ﷺ فيما يكون إلى قيام الساعة (٨/ ١٧٢).

المبحث الثالث

وجوب الإيمان بعموم رسالته ﷺ

وفيه تمهيد وثلاثة مطالب:

المطلب الأول: الأدلة من القرآن على عموم رسالته.

المطلب الثاني: الأدلة من السُّنَّة على عموم رسالته.

المطلب الثالث: دليل الإجماع على عموم رسالته.

تمهيد

إن من الإيمان بنبوة محمد ﷺ الإيمان بجميع ما جاء به، ومما جاء به ﷺ الإخبار بعموم رسالته للإنس والجن بجميع أجناسهم وأشكالهم وألوانهم ومللهم ولغاتهم.

لذا فإنه يجب أن يعلم أن الله ﷻ أرسل محمداً ﷺ إلى جميع الثقلين الإنس والجن، وأنه أوجب عليهم الإيمان به وبما جاء به وطاعته، وأنه لا يسع أحداً من هؤلاء الخروج عن شريعته ولا أن يدين لله بغير ما جاء به، «ومن اعتقد أنه يسوغ لأحد الخروج عن شريعته وطاعته فهو كافر يجب قتله»(١)، قال تعالى: ﴿وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ﴾ [آل عمران: ٨٥].

وعموم رسالة النبي ﷺ وعالميتها هي إحدى الخصائص التي انفرد بها ﷺ عن الأنبياء قبله، إذ كان النبي إنما يُبعث إلى قومه خاصة ثم يبقى غيرهم محتاجاً إلى من يبلغهم أمر الله ﷻ، أما محمد ﷺ فقد بعثه الله للناس كافة بشيراً ونذيراً وداعياً إلى الله بإذنه وسراجاً منيراً، فهو المبعوث رحمة للعالمين، فعمَّت رسالته جميع المكلفين إنسهم وجنَّهم، كما صحبت كذلك الزمان في مسيرته، فإذا انتهى جيل من الناس فإن الجيل الذي يليه مخاطب ومكلف بها.

والإيمان بعموم الرسالة وعالميتها هو الذي يدين به كل مسلم يؤمن

---

(١) مجموع الفتاوى لشيخ الإسلام ابن تيمية (٣/ ٤٢٢).

بالله ورسوله، فهذا ما جاءت به آيات الكتاب الكريم ونصوص السُّنَّة الثابتة، فهو من الأمور المعلومة من الدين بالضرورة والتي أجمعت عليها الأمة.

❁ ❁ ❁

المطلب الأول

الأدلة من القرآن على عموم رسالته

وردت آيات كثيرة في كتاب الله العزيز تثبت عموم دعوته وعالمية رسالته ﷺ، ومن سمة هذه الآيات أنها اتصفت بتنوع العبارة مع اتحاد في المضمون الذي هو الدلالة على عموم الرسالة وعالميتها.

وسوف نعرض لهذه الآيات بحسب اتحادها في السياق.

□ أ ـ الآيات التي ورد فيها لفظ «الناس» منها:

قوله تعالى: ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا﴾ [الأعراف: ١٥٨].

وقوله تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا كَآفَّةً لِّلنَّاسِ﴾ [سبأ: ٢٨].

وقوله تعالى: ﴿وَأَرْسَلْنَٰكَ لِلنَّاسِ رَسُولًا﴾ [النساء: ٧٩].

وقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَكُم بُرْهَٰنٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ نُورًا مُّبِينًا ﴿١٧٤﴾﴾ [النساء].

وقوله تعالى: ﴿أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا أَنْ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ رَجُلٍ مِّنْهُمْ أَنْ أَنذِرِ ٱلنَّاسَ وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَنَّ لَهُمْ قَدَمَ صِدْقٍ عِندَ رَبِّهِمْ﴾ [يونس: ٢].

وقوله تعالى: ﴿هَٰذَا بَلَٰغٌ لِّلنَّاسِ وَلِيُنذَرُوا۟ بِهِۦ﴾ [إبراهيم: ٥٢].

وقوله تعالى: ﴿الٓر ۚ كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ ٱلنَّاسَ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ ﴿١﴾﴾ [إبراهيم].

والشاهد من هذه الآيات أنها بيَّنت شمول رسالة محمد ﷺ

للناس[١] جميعاً. قال صاحب اللسان: «الناس قد يكون من الإنس ومن الجن»[٢].

فلفظ الناس يطلق على الجن والإنس كما في قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِى يُوَسْوِسُ فِى صُدُورِ ٱلنَّاسِ ۝٥ مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ ۝٦﴾ [الناس] فسمَّى الله الجن في هذا الموضع ناساً كما سمَّاهم في موضع آخر رجالاً، فقال: ﴿وَأَنَّهُۥ كَانَ رِجَالٌ مِّنَ ٱلْإِنسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِّنَ ٱلْجِنِّ﴾ [الجن: ٦] فجعل الجن رجالاً وكذلك جعل منهم ناساً[٣]. وهناك رأي آخر يقول: إن لفظ الناس دخل فيه الجن تغليباً[٤].

والذي أراه أن الآيات تفسر بالمعنى الشامل للإنس والجن إذ لا مخصِّص للعموم هنا.

وكنموذج لتفسير ما أوردته من آيات في هذا الشأن أذكر ما قاله بعض علماء التفسير في بيان قوله تعالى: ﴿قُلْ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا﴾ [الأعراف: ١٥٨]، قال أبو جعفر الطبري[٥] في تفسيرها: «قل يا محمد للناس كلهم: ﴿إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا﴾ لا إلى بعضكم دون بعض، كما كان من قبلي مَن الرسل مرسلاً إلى

---

(١) لفظ «الناس» فيه وجهان: **أحدهما**: أن يكون جمعاً لا واحد له من لفظه، وإنما واحده «إنسان»، وواحدته «إنسانة»، **والوجه الآخر**: أن يكون أصله «أناس» أسقطت الهمزة منها لكثرة الكلام بها تخفيفاً، ثم أدخلت الألف واللام المعرفتان، فأدغمت اللام التي دخلت مع الألف فيها للتعريف في النون. انظر: تفسير الطبري (١/ ١١٦).

(٢) لسان العرب (٦/ ٢٤٤) مادة نوس.

(٣) تفسيرالطبري (٣٠/ ٣٥٦).

(٤) تفسير ابن كثير (٤/ ٥٧٥).

(٥) هو: محمد بن جرير الطبري: المؤرخ المفسر الإمام، كان مولده سنة أربع وعشرين ومائتين، روى الكثير عن الجم الغفير، صنف التاريخ الحافل، وله التفسير الكامل الذي لا يوجد له نظير، توفي سنة (٣١٠هـ). البداية (١/ ١٤٥ ـ ١٤٧).

بعض الناس دون بعض، فمن كان منهم أرسل كذلك، فإن رسالتي ليست إلى بعضكم دون بعض، لكنها إلى جميعكم»(١).

وقال ابن كثير(٢): «يقول تعالى لنبيه ورسوله محمد ﷺ: ﴿قُلۡ﴾ يا محمد ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ﴾، وهذا خطاب للأحمر والأسود والعربي والعجمي ﴿إِنِّي رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيۡكُمۡ جَمِيعًا﴾ [الأعراف: ١٥٨]؛ أي: جميعكم، وهذا من شرفه وعِظَمه ﷺ أنه خاتم النبيين وأنه مبعوث إلى الناس كافة»(٣).

□ ب ـ الآيات التي ورد فيها لفظ «العالمين» ومنها:

قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا رَحۡمَةٗ لِّلۡعَٰلَمِينَ ١٠٧﴾ [الأنبياء].

وقوله تعالى: ﴿قُل لَّآ أَسۡـَٔلُكُمۡ عَلَيۡهِ أَجۡرًاۖ إِنۡ هُوَ إِلَّا ذِكۡرَىٰ لِلۡعَٰلَمِينَ ٩٠﴾ [الأنعام].

وقوله تعالى: ﴿وَمَا تَسۡـَٔلُهُمۡ عَلَيۡهِ مِنۡ أَجۡرٍۚ إِنۡ هُوَ إِلَّا ذِكۡرٞ لِّلۡعَٰلَمِينَ ١٠٤﴾ [يوسف].

وقوله تعالى: ﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِي نَزَّلَ ٱلۡفُرۡقَانَ عَلَىٰ عَبۡدِهِۦ لِيَكُونَ لِلۡعَٰلَمِينَ نَذِيرًا ١﴾ [الفرقان].

وقوله تعالى: ﴿وَمَا هُوَ إِلَّا ذِكۡرٞ لِّلۡعَٰلَمِينَ ٥٢﴾ [القلم].

وقوله تعالى: ﴿فَأَيۡنَ تَذۡهَبُونَ ٢٦ إِنۡ هُوَ إِلَّا ذِكۡرٞ لِّلۡعَٰلَمِينَ ٢٧﴾ [التكوير].

والمراد بالعالمين هنا: هم الإنس والجن، إذ هم المكلَّفون.

قال ابن عباس رضي الله عنهما: «العالمون الجن والإنس، دليله قوله تعالى:

---

(١) تفسير الطبري (٩/ ٨٦).

(٢) هو: إسماعيل بن عمر بن كثير البصروي الدمشقي: حافظ مؤرخ فقيه، ولد سنة (٧٠١هـ) وتوفي سنة (٧٧٤هـ)، وهو صاحب كتاب تفسير القرآن العظيم والبداية والنهاية. شذرات الذهب (١/ ٢٣١)، والأعلام (١/ ٣٢٠).

(٣) تفسير ابن كثير (٢/ ٢٥٤ ـ ٢٥٥).

﴿لِيَكُونَ لِلْعَٰلَمِينَ نَذِيرًا ۝١﴾ [الفرقان] ولم يكن نذيراً للبهائم»[(١)].

□ ج ـ الآيات التي ورد فيها لفظتا «كافة» و«جميعاً» وهي:

قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا كَآفَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ۝٢٨﴾ [سبأ]. وقوله تعالى: ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّي رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا﴾ [الأعراف: ١٥٨]. وهناك ثلاث عبارات هي: «الناس» و«كافة» و«جميعاً» دلت جميعها على العموم.

□ د ـ الآية التي ورد فيها لفظ «ومن بلغ»:

قال تعالى: ﴿قُلْ أَيُّ شَيْءٍ أَكْبَرُ شَهَٰدَةً قُلِ ٱللَّهُ شَهِيدٌۢ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَأُوحِيَ إِلَيَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ لِأُنذِرَكُم بِهِۦ وَمَنۢ بَلَغَ﴾ [الأنعام: ١٩]، فالشاهد من الآية هو قوله تعالى: ﴿لِأُنذِرَكُم بِهِۦ وَمَنۢ بَلَغَ﴾، فلفظ (من) في قوله: ﴿وَمَنۢ بَلَغَ﴾ من صيغ العموم، فالآية نص في عموم رسالة النبي ﷺ. ومعنى الآية أن الله يأمر رسوله ﷺ أن يقول لقومه إن الله أوحى إلي هذا القرآن لأنذركم به يا أهل مكة، أو يا معشر العرب ومن بلغه هذا القرآن سواء كان عربياً أو عجمياً وسواء كان موجوداً الآن، أم سيأتي بعد إلى أن تقوم الساعة، وهذا هو الذي ذكره أهل التفسير عند هذه الآية[(٢)].

□ هـ ـ الآيات التي ورد فيها خطاب الجن ومنها:

قوله تعالى: ﴿قُلْ أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ ٱسْتَمَعَ نَفَرٌ مِّنَ ٱلْجِنِّ فَقَالُوٓا۟ إِنَّا سَمِعْنَا قُرْءَانًا عَجَبًا ۝١﴾ [الجن] إلى آخر الآيات التي نزلت في شأن دعوة الجن إلى الإيمان برسالة محمد ﷺ، وسمِّيت هذه السورة بسورة الجن.

---

(١) تفسير القرطبي (١/١٣٨).

(٢) انظر على سبيل المثال: تفسير الطبري (٧/١٦٢، ١٦٣)، وتفسير ابن كثير (٢/١٢٦).

وقوله تعالى: ﴿وَإِذْ صَرَفْنَآ إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقُرْءَانَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوٓا۟ أَنصِتُوا۟ۖ فَلَمَّا قُضِىَ وَلَّوْا۟ إِلَىٰ قَوْمِهِم مُّنذِرِينَ ﴿٢٩﴾ قَالُوا۟ يَٰقَوْمَنَآ إِنَّا سَمِعْنَا كِتَٰبًا أُنزِلَ مِنۢ بَعْدِ مُوسَىٰ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ يَهْدِىٓ إِلَى ٱلْحَقِّ وَإِلَىٰ طَرِيقٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٣٠﴾ يَٰقَوْمَنَآ أَجِيبُوا۟ دَاعِىَ ٱللَّهِ وَءَامِنُوا۟ بِهِۦ يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُجِرْكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٣١﴾﴾ [الأحقاف]، والآيات نزلت في جن نصيبين[(١)] عندما سمعوا القرآن، فآمن به من آمن منهم ثم ولوا إلى قومهم منذرين، ثم أتوا إلى النبي ﷺ فبايعوه على الإسلام بشعب معروف بمكة، والأحاديث بذلك كثيرة مشهورة في الصحيح والسنن والمسند وكتب التفسير والفقه وغيرها[(٢)].

وكذلك فإن سورة الرحمٰن هي خطاب للثقلين الإنس والجن معاً.

□ و ـ الآيات التي وردت في دعوة أهل الكتاب:

ومنها: ﴿فَإِنْ حَآجُّوكَ فَقُلْ أَسْلَمْتُ وَجْهِىَ لِلَّهِ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِۗ وَقُل لِّلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْأُمِّيِّۦنَ ءَأَسْلَمْتُمْۚ فَإِنْ أَسْلَمُوا۟ فَقَدِ ٱهْتَدَوا۟ۖ وَّإِن تَوَلَّوْا۟ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ ٱلْبَلَٰغُۗ وَٱللَّهُ بَصِيرٌۢ بِٱلْعِبَادِ ﴿٢٠﴾﴾ [آل عمران].

﴿يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ قَدْ جَآءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ عَلَىٰ فَتْرَةٍ مِّنَ ٱلرُّسُلِ أَن تَقُولُوا۟ مَا جَآءَنَا مِنۢ بَشِيرٍ وَلَا نَذِيرٍۖ فَقَدْ جَآءَكُم بَشِيرٌ وَنَذِيرٌۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٩﴾﴾ [المائدة].

وبالجملة فإن في القرآن من دعوة أهل الكتاب من اليهود والنصارى ومن دعوة المشركين وعباد الأوثان وجميع الإنس والجن ما لا يحصى إلا بكلفة، وهذا كله معلوم بالاضطرار من دين الإسلام[(٣)].

❊ ❊ ❊

(١) مدينة تقع في تركيا بالقرب من الحدود السورية. أطلس العالم (ص٥٢).
(٢) كتاب النبوات لابن تيمية (ص٣٩٦).
(٣) الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح (١/ ١١٢).

المطلب الثاني

الأدلة من السُّنَّة على عموم رسالته

الأدلة على عموم رسالته ﷺ وعالميتها كثيرة جداً في السُّنَّة النبوية سواء من الناحية القولية أو الناحية العملية، وسنعرض هنا لكلتا الناحيتين بإذن الله.

□ أ ـ السُّنَّة القولية:

١ ـ عن أبي الدرداء[١] رضي الله عنه قال: «كانت بين أبي بكر[٢] وعمر محاورة، فأغضب أبو بكر عمر، فانصرف عنه عمر مغضباً، فأتبعه أبو بكر يسأله أن يستغفر له، فلم يفعل، حتى أغلق بابه في وجهه، فأقبل أبو بكر إلى رسول الله ﷺ، فقال أبو الدرداء ونحن عنده: فقال رسول الله ﷺ: «**أما صاحبكم هذا فقد غامر**»»[٣].

---

(١) واسم أبي الدرداء كما قيل: عويمر بن عامر، ولعل كنيته هي اسمه: أنصاري أسلم يوم بدر وشهد المشاهد بعدها، وكان أحد الحكماء العلماء الفضلاء، توفي في عهد عثمان. الاستيعاب (٤/ ٥٩ ـ ٦٠).

(٢) واسمه عبد الله بن عثمان بن عامر: ولد بعد الفيل بسنتين وستة أشهر، صحب النبي ﷺ سنين قبل البعثة وسبق إلى الإيمان به واستمر معه طوال إقامته بمكة ورافقه في الهجرة وفي الغار وفي المشاهد كلها إلى أن مات، وولي الخلافة من بعده فكان أول الخلفاء الراشدين، ومناقبه كثيرة رضي الله عنه، توفي سنة (١٣هـ). الإصابة (٢/ ٣٣٣ ـ ٣٣٦) رقم (٤٨١٧).

(٣) غامر؛ أي: خاصم غيره، ومعناه: دخل في غمرة الخصومة، وهي معظمها. والمغامر الذي يرمي بنفسه في الأمور المهلكة. النهاية: (٣/ ٣٨٤).

قال: وندم عمر على ما كان منه، فأقبل حتى سلم وجلس إلى النبي ﷺ، وقص على رسول الله ﷺ الخبر، قال أبو الدرداء: وغضب رسول الله ﷺ، وجعل أبو بكر يقول: والله يا رسول الله؛ لأنا كنت أظلم. فقال رسول الله ﷺ: «**هل أنتم تاركو لي صاحبي، هل أنتم تاركو لي صاحبي؟، إني قلت: يا أيها الناس إني رسول الله إليكم جميعاً، فقلتم: كذبت، وقال أبو بكر: صدقت**»(١).

٢ ـ وعن جابر بن عبد الله رضي الله عنهما أن النبي ﷺ قال: «**أعطيت خمساً لم يعطهن أحد قبلي: نصرت بالرعب مسيرة شهر، وجعلت لي الأرض مسجداً وطهوراً، فأيما رجل من أمتي أدركته الصلاة فليصل، وأحلت لي الغنائم ولم تحل لأحد قبلي، وأعطيت الشفاعة، وكان النبي يبعث إلى قومه خاصة وبعثت إلى الناس عامة**»(٢).

٣ ـ وعن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «**فضِّلت على الأنبياء بست: أعطيت جوامع الكلم، ونصرت بالرعب، وأحلت لي الغنائم، وجعلت لي الأرض طهوراً ومسجداً، وأرسلت إلى الخلق كافة، وختم بي النبيون**»(٣).

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب التفسير، باب تفسير قوله تعالى: ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا﴾ [الأعراف: ١٥٨]. انظر: فتح الباري (٨/ ٣٠٣) (ح٤٦٤٠)؛ وأخرجه أيضاً في كتاب فضائل الصحابة، باب قول النبي ﷺ: «**لو كنت متخذاً خليلاً**». انظر: فتح الباري (٧/ ١٨) (ح٣٦٦١).

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب التيمم واللفظ له. انظر: فتح الباري (١/ ٤٣٥ ـ ٤٣٦) (ح٣٣٥)، وكذلك (٤٣٨ ـ ٣١٢٢)؛ وأخرجه مسلم في صحيحه، كتاب المساجد (٢/ ٦٣).

(٣) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب المساجد (٢/ ٦٤).

٤ ـ وعن أبي ذر[١] رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**أوتيت خمساً لم يؤتهن نبي قبلي: نُصرت بالرعب، فيرعب مني العدو عن مسيرة شهر، وجعلت لي الأرض مسجداً وطهوراً، وأحلت لي الغنائم ولم تحل لأحد كان قبلي، وبعثت إلى الأحمر والأسود**»[٢].

٥ ـ وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**والذي نفسي بيده لا يسمع بي رجل من هذه الأمة يهودي ولا نصراني ثم لا يؤمن بي إلا دخل النار**»[٣].

وذكر اليهود والنصارى تنبيهاً على من سواهما، وذلك لأن اليهود والنصارى لهم كتاب، فإذا كان هذا شأنهم مع أن لهم كتاباً فغيرهم ممن لا كتاب له أولى[٤].

٦ ـ وعن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه عن رسول الله ﷺ أنه قال: «**من سمع بي من أمتي أو يهودي أو نصراني ثم لم يؤمن بي دخل النار**»[٥].

---

(١) أبو ذر الغفاري: الزاهد المشهور الصادق اللهجة، مختلف في اسمه واسم أبيه، والمشهور أنه جندب بن جنادة بن السكن، وكان من السابقين إلى الإسلام، توفي بالربذة سنة إحدى وثلاثين، وقيل: في التي بعدها. الإصابة (٤/ ٦٣ ـ ٦٥) ت رقم (٣٨٤).

(٢) أخرجه أحمد في مسنده (٥/ ١٤٥) وقال الهيثمي في مجمع الزوائد: «رجاله رجال الصحيح» (٨/ ٢٥٩)؛ وأخرجه أيضاً من طرق أخرى عن ابن عباس (١/ ٢٥٠) وأبي أمامة (٥/ ٢٤٨). وقال الهيثمي في مجمع الزوائد (٨/ ٢٥٩): «رجال أحمد ـ أي: في هذا الحديث ـ ثقات»، وجد عمرو بن شعيب (٢/ ٢٢). وقال الهيثمي في مجمع الزوائد (١٠/ ٣٦٧): «رجاله ثقات»، وقال أحمد شاكر: «إسناده صحيح» (١٣/ ١٦)، المسند بتحقيقه.

(٣) تقدم تخريجه. انظر: (ص٧٢).

(٤) انظر: صحيح مسلم بشرح النووي (٢/ ١٨٨).

(٥) أخرجه أحمد في مسنده (٤/ ٣٩٦ ـ ٣٩٨).

□ ب ـ السُّنَّة العملية:

إن المتأمل في سيرته ودعوته ﷺ يعلم حرصه ﷺ على نشر الرسالة وإبلاغها لجميع المكلفين، فقد دعا ﷺ الإنس على اختلاف أجناسهم وألوانهم ولغاتهم، سواء كانوا أهل كتاب أم ليسوا بأهل كتاب، كما دعا الجن كذلك فآمن له من آمن منهم وبايعوه على الإسلام.

ولقد صدع النبي ﷺ بعالمية الرسالة وعمومها في أوائل دعوته عندما انتقل من المرحلة السرية في الدعوة إلى المرحلة الجهرية حيث قال ﷺ بعد أن حمد الله: «**إن الرائد لا يكذب أهله، والله الذي لا إلٰه إلا هو، إني رسول الله إليكم خاصة وإلى الناس عامة، والله لتموتن كما تنامون، ولتبعثن كما تستيقظون، ولتحاسبن بما تعملون، وإنها للجنة أبداً أو النار أبداً**»[(١)].

وإن المتأمل للآيات القرآنية التي نصَّت على عموم رسالته وعالميتها يجد أن جلَّها كان مكيَّ النزول، وهذا يؤكد أن عالمية الرسالة مقررة منذ بداية الوحي. ومن المعلوم أن طريقة الدعوة كانت تتبع أسلوب التدرج في التبليغ، وهذا التدرج لم يكن ينافي شمول الدعوة لكل المكلفين؛ لأن المرحلية كانت ضرورية لدعوته ﷺ، ولقد دلت السيرة النبوية أن النبي ﷺ اتبع أسلوب التدرج في إبلاغ الرسالة، فأول ما بدأ به هو الدعوة السرية لهذا الدين فآمن له من آمن.

ثم انتقل إلى الدعوة الجهرية ونهج فيها كذلك أسلوب التدرج، فبدأ بأهل مكة عندما نزل عليه قوله تعالى: ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ ﴿٢١٤﴾﴾ [الشعراء] فدعاهم ﷺ إلى الإسلام.

ثم بعد ذلك أخذ رسول الله ﷺ يدعو الناس في مجامعهم وأسواقهم ويبلغهم دعوة الله.

---

(١) الكامل في التاريخ لابن الأثير (٢/ ٦١).

ثم ذهب إلى الطائف ودعا أهلها إلى الإسلام ولكنهم لم يجيبوه لذلك، ثم عاد إلى مكة وأخذ يعرض دعوته على القبائل في الموسم إلى أن التقى بالخزرج وهم من أهل المدينة وعرض عليهم الإسلام فأسلموا وأسلم النجاشي من قبلهم وكان على النصرانية.

ومن هنا كانت بداية المرحلة الجديدة في الدعوة، فبعد تمكن الإسلام بالمدينة، هاجر النبي ﷺ إليها فاتسع بذلك نطاق الدعوة حتى شمل أهل الكتاب من اليهود الذين كانوا بالمدينة حواليها حينئذ، كما تنوعت كذلك أساليب الدعوة إلى هذا الدين فشرع الجهاد في سبيل الله واتسعت رقعة الدعوة فشملت قبائل العرب ومن كان في جزيرة العرب من أهل الكتاب؛ كيهود المدينة وخيبر ونصارى نجران واليمن وغيرهم، واستمر التدرج إلى أن كان عام الحديبية ومهادنة قريش فأرسل النبي ﷺ في ذلك الوقت إلى جميع الطوائف يدعوهم إلى الإسلام.

فعن أنس بن مالك رضي الله عنه أن النبي ﷺ كتب إلى كسرى، وإلى قيصر، وإلى النجاشي، وإلى كل جبار يدعوهم إلى الله تعالى[(١)].

ثم جاءت بعد هذه المرحلة مرحلة أخرى حيث بدأ النبي ﷺ بغزو النصارى، فأرسل جيشاً بقيادة زيد بن حارثة فقاتلوا النصارى بمؤتة من أرض الكرك[(٢)] ثم غزاهم بنفسه وأمر جميع المسلمين أن يخرجوا معه ولم يأذن بالتخلف لأحد، وغزا في عشرة آلاف في غزوة تبوك وأقام بها عشرين ليلة ليغزو النصارى عربهم وعجمهم، وأقام ينتظرهم ليقاتلهم فسمعوا به وأحجموا عن قتاله ولم يقدموا عليه.

---

(١) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الجهاد والسير، باب كتب النبي ﷺ إلى ملوك الكفار يدعوهم إلى الله عز وجل (٥/١٦٦).

(٢) تقع حالياً في الأردن.

ثم بعد ذلك جهَّز جيشاً بقيادة أسامة بن زيد[١]، ولكنه ﷺ لحق بالرفيق الأعلى قبل أن يخرج الجيش، فأوصى وهو في سكرات الموت بإرسال هذا الجيش فقال: «**أنفذوا بعث أسامة**».

ولقد سار أصحابه رضوان الله عليهم من بعده على نهجه واستنُّوا بسُنَّته حتى فتح الله عليهم بلاد فارس والروم وغيرها، فانتشر الإسلام ودخل الناس في دين الله أفواجاً.

والشاهد من هذا كله أن سيرته ﷺ هي مثال تطبيقي عملي على شمول دعوته وعالمية رسالته التي من أجلها كرَّس النبي ﷺ حياته لكي ينشرها ويبلغها للناس كافة، لتقوم بذلك الحجة على الناس أجمعين.

وما ذكرته ههنا ليس إلا إشارات سريعة، فمن أراد الاستزادة فعليه بكتب الحديث والسيرة ففيها الغنية بإذن الله.

❊ ❊ ❊

---

(١) أسامة بن زيد بن حارثة، الحِب ابن الحِب: ولد في الإسلام، صحابي جليل، توفي سنة أربع وخمسين هجرية. الإصابة (٤٦/١).

المطلب الثالث

دليل الإجماع على عموم رسالته

إن الإجماع منعقد من أئمة المسلمين وعامتهم على أن محمداً ﷺ أرسل إلى جميع الأمم ـ أهل الكتاب وغير أهل الكتاب[(١)] ـ فإن الذي يدين به المسلمون هو أن محمداً ﷺ بعث رسولاً إلى الثقلين الإنس والجن، أهل الكتاب وغيرهم، وأن من لم يؤمن به فهو كافر مستحق لعذاب الله، مستحق للجهاد، وهو مما أجمع أهل الإيمان بالله ورسوله عليه؛ لأن الرسول ﷺ هو الذي جاء بذلك وذكره الله في كتابه، وبينه النبي أيضاً في سُنَّته.

وهذا الإجماع تواترت في نقله كتب أهل العلم وهو منقول عندهم نقلاً متواتراً يعلمونه بالضرورة. وكتب التوحيد والسُّنَّة مليئة بهذا.

وبما تقدم إيراده من الأدلة والنصوص يعلم ثبوت عموم رسالته وشمولها كما يعلم كذلك انتفاء كل دعوى تخالف هذا الأمر أو تطعن فيه كدعوى أنه رسول للعرب خاصة، أو دعوى أن رسالته ليست ناسخة لما قبلها من الرسالات، وأنه يسع الناس التدين بما جاء في قبله من الرسالات.

فنصوص القرآن والسُّنَّة والإجماع ترد هذه الدعاوى وتفندها وتبطلها. وبالنسبة إلى ما تعلق به أصحاب هذه الأقوال من شبه ظنوها أدلة لهم، فإنما مردّها إلى سوء فهمهم وجهلهم بمعاني النصوص التي أوردوها وكما قيل:

---

(١) الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح (١/ ١٢٤).

وكم من عائب قولاً صحيحاً وآفته من الفهم السقيم[(١)]

ولا يتسع المجال هنا لإيراد تلك الشبه وتفنيدها[(٢)] كما أن معرفة الحق تغني، وكما قيل: بضدها تتميز الأشياء.

وإن الواجب على كل مسلم اعتقاد عموم رسالته وشموليتها وعالميتها لجميع المكلفين، وإنه لا يسع أحداً الخروج عنها أو أن يدين لله بغيرها.

كما أنه لا يسع المسلم أن يجهل مثل هذا الأمر لأنه من الأمور المعلومة من الدين بالضرورة، ومن الواجب عليه كذلك أن يرد على كل من يطعن في هذا الأمر أو يشكك فيه سواء ممن ينتسبون إلى الإسلام أو من غيرهم، وبالخصوص أننا أصبحنا في زمان ظهرت فيه الدعوة إلى وحدة الأديان وتقاربها بدعوى أنها جميعاً تدعو إلى عبادة إله واحد وأن مصدرها واحد، إلى غير ذلك من الأمور التي يروِّج لها أصحاب هذه الدعوة والتي لا تنطلي إلا على ساذج لا يعي الأمور الضرورية من دينه.

❀ ❀ ❀

---

(١) ديوان أبي الطيب المتنبي (ص٢٣٢)

(٢) لمزيد من التفصيل في هذا الموضوع انظر: كتاب الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح (١/١٢٨) وما بعدها.

المبحث الرابع

وجوب الإيمان بأنه ﷺ خاتم النبيين

وفيه تمهيد وخمسة مطالب:

المطلب الأول: معنى ختم النبوة.

المطلب الثاني: الجوانب التي عصم فيها النبي ﷺ.

المطلب الثالث: الأدلة من السُّنَّة على ختم النبوة.

المطلب الرابع: ما ورد عن الصحابة رضوان الله عليهم في تأكيد عقيدة ختم النبوة.

المطلب الخامس: إجماع الأمة.

المطلب السادس: تعريف العصمة.

المطلب الأول

معنى ختم النبوة

❑ أ ـ معنى الختم في اللغة:

الختم في اللغة ورد لعدة معان هي:

١ ـ الطبع:

قال «صاحب المحكم»: «ختمه، يختمه، ختماً: طبعه»[١].

وقد ذكر هذا «صاحب اللسان»[٢]، و«القاموس المحيط»[٣].

وفي «تاج العروس»: «معنى ختم وطبع واحد في اللغة»[٤].

٢ ـ تغطية الشيء والاستيثاق منه بحيث لا يدخله شيء ولا يخرج منه شيء:

قال «صاحب المحكم»: «والختم على القلب ألا يفهم شيئاً ولا يخرج منه شيء كأنه طبع. ومعنى ختم وطبع في اللغة واحد، وهو التغطية على الشيء والاستيثاق من أن لا يدخله شيء كما قال ﷻ: ﴿أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ ﴿٢٤﴾﴾ [محمد]»[٥]، وذكر هذا «صاحب اللسان»[٦] و«صاحب تاج العروس»[٧].

---

(١) المحكم لابن سيده (٥/ ٢٦) بتحقيق: إبراهيم الأبياري.
(٢) لسان العرب (١٢/ ١٦٣).
(٣) القاموس المحيط (٢/ ١٥) بترتيب الزاوي.
(٤) تاج العروس للزبيدي (٨/ ٢٦٦).
(٥) المحكم (٥/ ٢٦).
(٦) لسان العرب (١٢/ ١٦٣).
(٧) تاج العروس (٨/ ٢٦٦).

٣ ـ آخر الشيء ونهايته:

قال «صاحب المحكم»: «وختم الشيء يختمه: ختماً بلغ آخره، وخاتم كل شيء: عاقبته وآخرته، وختام كل مشروب آخره، وفرض التنزيل: ﴿خِتَـٰمُهُۥ مِسۡكٌ﴾ [المطففين: ٢٦]؛ أي: آخره، وختام القوم وخاتمهم آخرهم... وفي التنزيل: ﴿وَلَٰكِن رَّسُولَ ٱللَّهِ وَخَاتَمَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ﴾ [الأحزاب: ٤٠]؛ أي: آخرهم»(١).

وقال «صاحب المفردات» في معرض كلامه عن الصور التي يرد بها لفظ الختم: «وتارة يعتبر منه بلوغ الآخر، ومنه قيل: ختمت القرآن؛ أي: انتهيت إلى آخره...» إلى أن قال: «وخاتم النبيين لأنه ختم النبوة؛ أي: تممها بمجيئه ﷺ»(٢). وقال «صاحب القاموس»: «والخاتم من كل شيء: عاقبته وآخرته، وآخر القوم كالخاتم»(٣).

«هذه هي المعاني اللغوية لفعل «الختم» واسم فاعله «خاتم» كما أوردها أعلام اللغة في مصنفاتهم عن العرب، وهي مع تعددها وتعدد ألفاظها المعبرة عنها والتي هي: الطبع على الشيء وإنهاؤه وتغطيته وآخر القوم وعاقبة الأمر، هي مع ذلك كله تتمشى مع دلالة قوله تعالى: ﴿مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَآ أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمۡ وَلَٰكِن رَّسُولَ ٱللَّهِ وَخَاتَمَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ﴾ على أن النبوة قد طبع عليها فلا تفتح، وأنها قد انتهت وسُدَّت بمحمد ﷺ، وأنه آخر الأنبياء، وشرعه آخر الشرائع وعاقبتها»(٤).

❐ ب ـ معنى ختم النبوة:

تقدم معرفة معنى الختم في اللغة، وتقدم أيضاً معرفة معنى النبوة في المبحث الثاني من هذا الفصل.

---

(١) المحكم (٥/ ٢٦). (٢) المفردات (ص١٤٢ ـ ١٤٣).
(٣) القاموس (٢/ ١٥) بترتيب الزاوي.
(٤) كتاب عقيدة ختم النبوة، للدكتور أحمد بن سعد الغامدي (ص١٣).

فإذا ما ركِّبا في جملة واحدة هي «ختم النبوة» فإنه يكون معناها: «انتهاء إنباء الله للناس وانقطاع وحي السماء»[١].

❁ ❁ ❁

(١) كتاب عقيدة ختم النبوة (ص١٦).

المطلب الثاني

الأدلة من القرآن الكريم على ختم النبوة

□ أ ـ آية الختم:

قال تعالى: ﴿مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَآ أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَٰكِن رَّسُولَ ٱللَّهِ وَخَاتَمَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ﴾ [الأحزاب: ٤٠].

والآية نص صريح واضح على ختم النبوة بمحمد ﷺ وكونه خاتم الأنبياء وآخرهم مبعثاً فلا نبي بعده ولا رسول.

وقد سبق الربط بين دلالة الآية والمعنى اللغوي لكلمة «ختم».

وتتميماً للفائدة سأعرض بعض ما ذكره علماء التفسير عند تفسير هذه الآية.

قال ابن جرير الطبري رَحِمَهُ اللَّهُ: «يقول تعالى ذكره: ما كان أيها الناس محمد أبا زيد بن حارثة(١) ولا أبا أحد من رجالكم، الذين لم يلده محمد، فيحرم عليه نكاح زوجته بعد فراقه إياها، ولكنه رسول الله وخاتم النبيين الذي ختم النبوة فطبع عليها فلا تفتح لأحد من بعده إلى قيام الساعة، وكان الله بكل شيء من أعمالكم ومقالكم وغير ذلك ذا علم لا يخفى عليه شيء»(٢).

---

(١) زيد بن حارثة بن شراحيل الكعبي: تبناه النبي ﷺ، وكان يدعى زيد بن محمد حتى نزلت الآية: ﴿ٱدْعُوهُمْ لِآبَآئِهِمْ﴾ [الأحزاب: ٥]، شهد بدراً وما بعدها واستشهد في غزوة مؤتة. الإصابة (١/ ٥٤٥ ـ ٥٤٦).

(٢) تفسير الطبري (٢٢/ ١٦).

وقال ابن كثير رَحِمَهُ اللهُ: «فهذه الآية نص في أنه لا نبي بعده، وإذا كان لا نبي بعده فلا رسول بالطريق الأولى والأحرى، لأن مقام الرسالة أخص من مقام النبوة، فكل رسول نبي ولا ينعكس، بذلك وردت الأحاديث المتواترة عن رسول الله ﷺ من حديث جماعة من الصحابة رضي الله عنهم... إلى أن قال: فمن رحمة الله بالعباد إرسال محمد ﷺ، ثم من تشريفه لهم ختم الأنبياء والمرسلين به، وإكمال الدين الحنيف له.

وقد أخبر الله تبارك وتعالى في كتابه ورسوله ﷺ في السُّنَّة المتواترة عنه أنه لا نبي بعده، ليعلموا أن كل من ادعى هذا المقام بعده فهو كذاب أفاك دجال ضال مضل»(١).

وأقوال المفسرين عموماً متفقة على أن المراد من الآية هو ختم النبوة وأن رسول الله ﷺ هو آخر الأنبياء مبعثاً، ولم ينقل عن أحد من أهل التفسير خلاف ذلك.

وقد تعرض أهل التفسير للقراءات الواردة في قوله: «خاتم» من هذه الآية فذكروا أن فيها قراءتين:

الأولى: قراءة الكسر «خاتِم»:

وهي الأشهر عند أهل اللغة والتفسير الذين أجمعوا أن قراءة الكسر هي قراءة الجمهور وعامة قراء الأمصار(٢)، وعلى هذه القراءة: ﴿خَاتِمَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ﴾ يكون المعنى أنه: «ختم النبيين» لأنه ختم به النبيون فهو خاتمهم.

---

(١) تفسير ابن كثير (٣/ ٤٩٤).

(٢) تفسير الطبري (٢٢/١٦)، وتفسير البغوي (٦/ ٥٦٥) وتفسير القرطبي (١٤/١٩٦).

الثانية: قراءة الفتح «خاتَم»:

وهي الأقل استعمالاً بين القراء، ولهذا فإن المفسرين لا يعزونها إلا إلى أفراد القراء كعاصم[(١)] وابن عامر[(٢)] وغيرهما.

فعلى هذه القراءة ﴿وَخَاتَمَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ﴾ يكون المعنى؛ أي: آخر النبيين مبعثاً فبه انتهت النبوة.

وبالرغم من ورود القراءتين في الآية إلا أن المفسرين لا يرون أن في ذلك تأثيراً على المعنى، وهو انقطاع النبوة بعد نبينا محمد ﷺ.

□ ب ـ الآيات الدالة ضمناً على ختم النبوة:

في القرآن الكريم آيات كثيرة دلت ضمناً على ختم النبوة والرسالة بنبينا محمد ﷺ.

ومن هذه الآيات آيات عموم الرسالة وعالميتها والتي تقدم ذكرها في المبحث الثالث، حيث إن عموم الرسالة من الناحيتين الزمانية والمكانية يدل على كونها خاتمة الرسالات؛ لأن البشرية على هذا الحال لا تحتاج إلى دين جديد ما دام هذا الدين قد خاطبهم جميعاً على اختلاف أجناسهم وأماكنهم وأزمانهم. ومن الأدلة كذلك الإخبار بإكمال هذا الدين وإتمامه:

قال تعالى: ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًاۚ﴾ [المائدة: ٣]؛ فالآية تؤكد أن الأمة لم تعد تحتاج إلى نبي يكمل لها دينها أو يتم عليها نعمة ربها؛ لأن الله ﷻ قد أكمله على يد

---

(١) عاصم بن أبي النجود الضرير الكوفي: أحد القراء السبعة، توفي سنة تسع وعشرين ومائة، وقيل غير ذلك. تهذيب التهذيب (٥/ ٣٨ ـ ٤٠).

(٢) عبد الله بن عامر اليحصبي: أحد القراء السبعة، كان قاضي دمشق في أيام الوليد بن عبد الملك وإمام مسجد دمشق، وتوفي بها سنة ثماني عشرة ومائة. تهذيب التهذيب (٥/ ٢٧٤، ٢٧٥).

رسوله ﷺ، ثم رضيه له ربها؛ لأن الله ﷻ قد أكمله على يد رسوله ﷺ، ثم رضيه له ولأمته ديناً يعبدون الله به إلى يوم القيامة[١].

قال ابن كثير عند تفسير هذه الآية: «هذه أكبر نعم الله تعالى على هذه الأمة حيث أكمل تعالى لهم دينهم فلا يحتاجون إلى دين غيره ولا إلى نبي غير نبيهم صلوات الله وسلامه عليه، ولهذا جعله الله تعالى خاتم الأنبياء وبعثه إلى الإنس والجن...»[٢].

❁ ❁ ❁

(١) كتاب عقيدة ختم النبوة (ص٢٧ ـ ٢٨).
(٢) تفسير ابن كثير (٢/١٢).

المطلب الثالث

الأدلة من السُنَّة على ختم النبوة

إلى جانب ما ورد في القرآن من أدلة على كون النبي ﷺ خاتم النبيين ورسالته هي خاتمة الرسالات، فقد ورد في السُّنَّة كذلك أحاديث كثيرة أكدت هذا الأمر وبيَّنته ونبهت عليه.

وقد وردت هذه الأحاديث بعبارات متعددة متنوعة لكنها جميعاً أكدت على مدلول واحد، هو انقطاع الوحي بعد النبي ﷺ وختم النبوة به. وقد بلغ بعض هذه الأحاديث حد التواتر، كما أنها في جملتها متواترة تواتراً قطعياً. ونظراً لتنوع ألفاظ تلك الأحاديث واختلاف صورها في الدلالة على هذا المعنى وتأكيده، فإن من المناسب أن أعرضها لك على النحو التالي:

□ أ ـ الأحاديث التي ورد فيها التصريح بأنه ﷺ خاتم النبيين، ومنها:

١ ـ عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: «أُتي رسول الله ﷺ بلحم، فرفع إليه الذراع ـ وكانت تعجبه ـ فنهس[1] منها نهسة ثم قال: «**أنا سيد الناس يوم القيامة، وهل تدرون مما ذلك؟**»، ثم ذكر ﷺ يوم القيامة وما يحدث فيه من استشفاع الناس بالأنبياء للحساب حتى يصلوا إليه ﷺ، فذكر ﷺ

(١) النهس: أخذ اللحم بأطراف الأسنان، والنهش: الأخذ بجميعها. النهاية (١٣٦/٥).

أنهم يقولون: «**أنت رسول الله، وخاتم الأنبياء، وقد غفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر، تشفع لنا إلى ربك...**» الحديث[(١)].

٢ ـ عن ثوبان[(٢)] رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**إن الله زوى لي الأرض فرأيت مشارقها ومغاربها، وإن مُلك أمتي سيبلغ ما زُوي لي منها، وأُعطيت الكنزين الأحمر والأبيض[(٣)] وإني سألت ربي لأمتي أن لا يهلكها بسنة بعامة، ولا يسلط عليهم عدواً من سوى أنفسهم فيستبيح بيضتهم[(٤)]، وإن ربي قال لي: يا محمد إني إذا قضيت قضاء فإنه لا يرد، ولا أهلكهم بسنة بعامة، ولا أسلط عليهم عدواً من سوى أنفسهم فيستبيح بيضتهم، ولو اجتمع عليهم من بين أقطارها** ـ أو قال: **بأقطارها** ـ **حتى يكون بعضهم يهلك بعضاً، وحتى يكون بعضهم يسبي بعضاً، وإنما أخاف على أمتي الأئمة المضلين. وإذا وضع السيف في أمتي لم يرفع عنها إلى يوم القيامة، ولا تقوم الساعة حتى تلحق قبائل من أمتي بالمشركين، وحتى تعبد قبائل من أمتي الأوثان، وإنه سيكون في أمتي كذابون ثلاثون كلهم يزعم أنه نبي، وأنا خاتم النبيين لا نبي بعدي، ولا تزال طائفة من أمتي على الحق**».

قال ابن عيسى: «**ظاهرين**»، ثم اتفقا: «**لا يضرهم من خالفهم**

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب التفسير، باب ﴿ذُرِّيَّةَ مَنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍۚ إِنَّهُۥ كَانَ عَبْدًا شَكُورًا ۝٣﴾ [الإسراء]. انظر: فتح الباري (٨/ ٣٩٥، ٣٩٦) (ح٤٧١٢)؛ وأخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الإيمان، باب أدنى الجنة منزلة فيها (١/ ١٢٧).

(٢) ثوبان: مولى رسول الله ﷺ صحابي مشهور، اشتراه ثم أعتقه رسول الله ﷺ فخدمه إلى أن مات، ثم تحول إلى الرملة ثم حمص، ومات بها سنة (٥٤هـ). الإصابة (١/ ٢٠٥) رقم (٩٦٧).

(٣) أي: الذهب والفضة. النهاية (١/ ٤٣٨).

(٤) أي: مجتمعهم، وموضع سلطانهم، ومستقر دعوتهم. النهاية (١/ ١٧٢).

حتى يأتي أمر الله»[1].

والشاهد من هذا الحديث هو قوله: «**وأنا خاتم النبيِّين لا نبي بعدي**»، فهذا نصٌّ في كونه ﷺ هو خاتم الأنبياء.

٣ ـ وعن جابر بن عبد الله رضي الله عنهما أن النبي ﷺ قال: «**أنا قائد المرسلين ولا فخر، وأنا خاتم النبيين ولا فخر، وأنا أول شافع وأول مشفع ولا فخر**»[2].

□ ب ـ الأحاديث التي ورد فيها ضربه ﷺ الأمثال لختم النبوة، ومنها:

١ ـ عن جابر بن عبد الله رضي الله عنهما قال: قال النبي ﷺ: «**مثلي ومثل الأنبياء كرجل بنى داراً فأكملها وأحسنها، إلا موضع لبنة، فجعل الناس يدخلونها ويتعجبون ويقولون: لولا موضع اللبنة**» متفق عليه[3]،

---

(١) أخرجه بهذا اللفظ أبو داود في السنن، كتاب الفتن والملاحم، باب ذكر الفتن ودلائلها (٢/ ٤٥٠، ٤٥٢) (ح٤٢٥٢)؛ وأخرجه الإمام أحمد في المسند (٥/ ٢٧٨)، وابن ماجه في السنن، كتاب الفتن، باب ما يكون من الفتن (٢/ ١٣٠٤)؛ وأخرجه مختصراً مسلم في صحيحه إلى قوله: «**يسبي بعضهم بعضاً**»، كتاب الفتن، باب هلاك هذه الأمة (٨/ ١٧١)، وكذلك أخرج مسلم آخره من قول: «**لا تزال طائفة من أمتي....**»، كتاب الإمارة، باب قوله ﷺ: «**لا تزال طائفة من أمتي ظاهرين...**» إلخ (٦/ ٥٢)، وأخرج الترمذي في السنن بعضه من قوله: «**لا تقوم الساعة حتى تلحق قبائل من أمتي**» ـ إلى قوله ـ: «**لا نبي بعدي**»، كتاب الفتن، باب ما جاء لا تقوم الساعة حتى يخرج كذابون (٤/ ٤٩٨، ٤٩٩) (ح٢٢١٨)، وقال: هذا حديث حسن صحيح.

(٢) أخرجه الدارمي في السنن (١/ ٢٧) وقد اعتبره صاحب المشكاة من قسم الحسان وارتضاه الألباني المحقق (٣/ ١٢٨).

(٣) البخاري في صحيحه، كتاب المناقب، باب خاتم النبيين ﷺ. انظر: فتح الباري (٦/ ٥٥٨) (ح٣٥٣٤)، ومسلم في صحيحه، كتاب الفضائل، باب ذكر كونه ﷺ خاتم النبيين (٧/ ٦٥).

وعند مسلم بزيادة لفظ: «**فأنا موضع اللبنة جئت فختمت الأنبياء**».

٢ ـ وعن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «**إن مثلي ومثل الأنبياء من قبلي كمثل رجل بنى بيتاً فأحسنه وأجمله، إلا موضع لبنة من زاوية فجعل الناس يطوفون به ويعجبون له ويقولون: هلَّا وضِعت هذه اللبنة؟**»، قال: «**فأنا اللبنة وأنا خاتم النبيين**»[(١)].

□ ج ـ الأحاديث التي ورد فيها تصريحه ﷺ بانقطاع النبوة وأنه لا نبي بعده، ومنها:

١ ـ عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «**كان بنو إسرائيل تسوسهم الأنبياء، كلما هلك نبي خَلَفه نبي، وإنه لا نبي بعدي، وسيكون خلفاء فيكثرون...**» الحديث[(٢)].

٢ ـ عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: «كشف رسول الله ﷺ الستار والناس صفوف خلف أبي بكر رضي الله عنه، فقال: «**أيها الناس إنه لم يبق من مبشرات النبوة إلا الرؤيا الصالحة يراها المسلم أو تُرى له**»»[(٣)].

٣ ـ وعن سعد بن أبي وقاص[(٤)] رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ خرج إلى

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب المناقب، باب خاتم النبيين ﷺ واللفظ له. انظر: فتح الباري (٦/ ٥٥٨) (ح٣٥٣٥)؛ وأخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الفضائل، باب ذكر كونه ﷺ خاتم النبيين (٧/ ٦٤).

(٢) تقدم تخريجه (ص٦٧).

(٣) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الصلاة، باب النهي عن قراءة القرآن في الركوع والسجود (٢/ ٤٨).

(٤) سعد بن أبي وقاص: واسم أبيه مالك بن أهيب وكان سابع من أسلم، وقد شهد مع رسول الله ﷺ المشاهد كلها، وأحد العشرة، وكان مجاب الدعوة وهو أول من رمى بسهم في سبيل الله، توفي سنة (٥٤هـ). الإصابة (٢/ ٣٠ ـ ٣٢) رقم (٣١٩٤).

تبوك واستخلف علياً[١] فقال: أتخلفني في الصبيان والنساء؟ قال: «**ألا ترضى أن تكون مني بمنزلة هارون من موسى، إلا أنه ليس نبي بعدي**»[٢].

□ د ـ الأحاديث التي ورد فيها تحذيره ﷺ من المتنبِّئين بعده، ومنها:

١ ـ عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول ﷺ قال: «**لا تقوم الساعة حتى تقتتل فئتان عظيمتان تكون بينهما مقتلة عظيمة، دعوتهما واحدة، وحتى يُبعث دجالون كذابون قريب من ثلاثين كلهم يزعم أنه رسول الله...**»[٣].

٢ ـ عن جابر بن سمرة[٤] رضي الله عنه قال: سمعنا رسول الله ﷺ يقول: «**إن بين يدي الساعة كذابين فاحذروهم**»[٥].

---

(١) علي بن أبي طالب: ولد قبل البعثة بعشر سنين تربى في حجر النبي ﷺ وشهد معه المشاهد كلها ما عدا غزوة تبوك، حيث استخلفه النبي ﷺ على المدينة، وهو رابع الخلفاء الراشدين وأحد العشرة المبشرين ومناقبه كثيرة، قتل على يد عبد الرحمٰن بن ملجم عام (٤٠هـ). الإصابة (٢/ ٥٠١ ـ ٥٠٣) رقم (٥٦٩٠).

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب المغازي، باب غزوة تبوك. انظر: فتح الباري (٨/ ١١٢) (ح٤٤١٦)؛ وأخرجه مسلم في صحيحه، كتاب فضائل الصحابة، باب من فضائل علي بن أبي طالب رضي الله عنه (٧/ ١٢٠).

(٣) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الفتن واللفظ له. انظر: فتح الباري (١٣/ ٨١، ٨٢) (ح٧١٢١)؛ وأخرجه مختصراً مسلم في صحيحه، كتاب الفتن، باب إذا تواجه المسلمان بسيفيهما (٨/ ١٧٠).

(٤) جابر بن سمرة بن جنادة العامري: له ولأبيه صحبة، وهو ابن أخت سعد بن أبي وقاص، توفي سنة (٧٤هـ). الإصابة (١/ ٢١٣) رقم (١٠١٨).

(٥) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الإمارة، باب الناس تبع لقريش (٦/ ٤).

□ هـ ـ الحديث الذي ورد فيه التصريح بأنه آخر الأنبياء، وأن مسجده آخر المساجد، وأن أمته آخر الأمم:

عن أبي هريرة ﷺ قال: «صلاة في مسجد رسول الله ﷺ أفضل من ألف صلاة فيما سواه من المساجد إلا المسجد الحرام، فإن رسول الله ﷺ آخر الأنبياء وإن مسجده آخر المساجد...».

قال عبد الله بن إبراهيم بن قارظ(١): أشهد أني سمعت أبا هريرة يقول: قال رسول الله ﷺ: «**فإني آخر الأنبياء وإن مسجدي آخر المساجد**»(٢).

□ و ـ دلالة بعض أسمائه ﷺ على كونه خاتم الأنبياء:

عن جبير بن مطعم ﷺ أن النبي ﷺ قال: «**أنا محمد، وأنا أحمد، وأنا الماحي الذي يمحى بي الكفر، وأنا الحاشر الذي يحشر الناس على عقبي، وأنا العاقب الذي ليس بعده نبي**»(٣).

والأحاديث في مسألة ختم النبوة كثيرة لا يتسع المقام هنا لإيرادها جميعها، وقد جمع هذه الأحاديث صاحب كتاب «عقيدة ختم النبوة» فمن أراد الزيادة فليرجع إليه(٤).

❊ ❊ ❊

---

(١) ويقال: إبراهيم بن عبد الله بن قارظ الكناني وهما واحد، روى عن جابر بن عبد الله وأبي هريرة وغيرهم، ذكره ابن حبان في الثقات. تهذيب التهذيب (١/ ١٣٤).

(٢) أخرجه مسلم في صحيحه كتاب الحج، باب فضل الصلاة بمسجدي مكة والمدينة (٤/ ١٢٤، ١٢٥).

(٣) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب المناقب، باب ما جاء في أسماء رسول الله ﷺ. انظر: فتح الباري (٦/ ٥٥٤) (ح٣٥٣٢)؛ وأخرجه مسلم، كتاب الفضائل، باب في أسمائه ﷺ، واللفظ له (٧/ ٨٩).

(٤) وهي رسالة ماجستير مطبوعة.

المطلب الرابع

ما ورد عن الصحابة رضوان الله عليهم في تأكيد عقيدة ختم النبوة

لقد كان موقف الصحابة رضوان الله عليهم تجاه هذا الأمر متمثلاً في الأمور التالية:

أ ـ روايتهم للأحاديث الواردة عن النبي ﷺ في هذا الشأن والتي بلغت حد التواتر على تنوع عبارات تلك الأحاديث واختلاف المناسبات التي قيلت فيها، وهذا مما يدل على اعتقادهم لهذا الأمر وحرصهم على إبلاغه لهذه الأمة، ولم ينقل عن أحد من الصحابة أنه خالف هذا الأمر، ولو كانت هناك أدنى شبهة عن أحد منهم لنقلت لنا، «وقد بلغ عدد الصحابة ﷺ الذين رووا أحاديث الختم سبعة وثلاثين صحابياً»(١).

ب ـ إجماع الصحابة على قتال المتنبئين بعد وفاة رسول الله ﷺ، فلقد سيَّر أبو بكر ﷺ الجيوش ـ والتي كان معظم جندها من الصحابة رضوان الله عليهم ـ وذلك لقتال مسيلمة الكذاب(٢)، وطليحة الأسدي(٣) اللذين ادَّعيا النبوة.

---

(١) عقيدة ختم النبوة (ص٥٥).

(٢) هو: مسيلمة بن ثمامة بن كبير الكذاب: ادعى النبوة في آخر حياة النبي ﷺ، وذلك في أواخر سنة عشر، وتوفي النبي ﷺ قبل القضاء على فتنته، فلما انتظم الأمر لأبي بكر ﷺ، انتدب له خالد بن الوليد على رأس جيش قوي فقتل مسيلمة الكذاب. البداية (٥/ ٤٩ ـ ٥٢، ٦/ ٣٢٣ ـ ٣٢٧) والأعلام (٧/ ٢٢٦).

(٣) طليحة بن خويلد الأسدي: قدم على النبي ﷺ في وفد من بني أسد سنة =

ج ـ ما ورد من الأقوال المأثورة عنهم والتي تضمَّنت التأكيد على ختم النبوة وانقطاع الوحي بعد وفاة الرسول ﷺ، ومن تلك الأقوال: ما رُوي عن عمر بن الخطاب ﷺ أنه قال: «إن أناساً كانوا يؤخذون بالوحي في عهد رسول الله ﷺ، وإن الوحي قد انقطع، وإنما نأخذكم الآن بما ظهر لنا من أعمالكم...»[(١)].

وما روي عن ابن عباس ﷺ عند تفسير قوله تعالى: ﴿مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَآ أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَٰكِن رَّسُولَ ٱللَّهِ وَخَاتَمَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ﴾ [الأحزاب: ٤٠].

قال في تفسيرها: «إن الله تعالى لما حكم أنه لا نبي بعده لم يعطه ولداً ذكراً يصير رجلاً»[(٢)].

وعن ابن أبي أوفى[(٣)] ﷺ لما سئل عن إبراهيم ولد النبي ﷺ قال: «مات صغيراً، ولو قضى أن يكون بعد محمد ﷺ نبي عاش ابنه ولكن لا نبي بعده»[(٤)].

وعن أنس ﷺ قال: «كان إبراهيم ـ يعني: ابن النبي ﷺ ـ قد ملأ الأرض، ولو بقي لكان نبياً، ولكن لم يبق إلا نبيكم آخر الأنبياء»[(٥)].

= (٩هـ)، وأسلموا، ولما رجعوا ارتد طليحة، وادعى النبوة في حياة رسول الله ﷺ. سيَّر إليه أبو بكر خالد بن الوليد، فانهزم طليحة وفر إلى الشام ثم أسلم وحسن بلاؤه في الفتوح، واستشهد في نهاوند سنة (٢١هـ). الإصابة (٢/ ٢٢٦) رقم (٤٢٩٠)، والأعلام (٣/ ٢٣٠).

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الشهادات، باب الشهداء العدول. انظر: فتح الباري (٥/ ٢٥١) (ح٢٦٤١).

(٢) معالم التنزيل للبغوي (٦/ ٥٦٥).

(٣) هو: عبد الله بن أبي أوفى واسمه علقمة بن خالد الأسلمي: له ولأبيه صحبة، شهد الحديبية، وروى أحاديث شهيرة نزل الكوفة، ومات بها سنة ثمانين. الإصابة (٢/ ٢٧١) رقم (٤٥٥٥).

(٤) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الأدب، باب من سمى بأسماء الأنبياء. انظر: فتح الباري (١٠/ ٥٧٧).

(٥) أخرجه أحمد في المسند (٣/ ١٣٣).

المطلب الخامس

إجماع الأمة

تلقت الأمة النصوص الواردة في الكتاب والسُّنَّة بشأن ختم النبوة بالقبول التام، فحصل بهذا إجماعها على كون النبي ﷺ هو خاتم الأنبياء والمرسلين فلا نبي ولا رسول بعده، ورسالته هي خاتمة الرسالات وآخرها.

وقد نقل هذا الإجماع غير واحد من العلماء، أذكر على سبيل المثال قول بعض منهم:

قال ابن عطية[١] في معرض كلامه على آية الختم: «وهذه الألفاظ عند جماعة علماء الأمة خلفاً وسلفاً متلقاة على العموم التام مقتضية نصّاً أنه لا نبي بعده ﷺ»[٢].

وقال القاضي عياض[٣]: «أخبر ﷺ أنه خاتم النبيين لا نبي بعده، وأخبر عن الله تعالى أنه خاتم النبيين، وأنه أرسل كافة للناس وأجمعت الأمة على حمل هذا الكلام على ظاهره، وأن مفهومه المراد منه دون

---

(١) واسمه عبد الحق بن غالب بن عبد الرحمٰن بن عطية المحاربي الغرناطي: مفسر فقيه، عارف بالأحكام والحديث، توفي سنة (٥٤١هـ). طبقات المفسرين للداودي (١/ ٢٦٥)، والأعلام (٣/ ٢٨٢).

(٢) تفسيرالقرطبي (١٤/ ١٩٦).

(٣) عياض بن موسى بن عياض السبتي، أبو الفضل: عالم المغرب وإمام أهل الحديث في وقته، توفي عام (٥٤٤هـ). الأعلام (٤/ ٩٩).

تأويل ولا تخصيص»[١].

قال الألوسي[٢]: «وكونه ﷺ خاتم النبيين مما نطق به الكتاب، وصدعت به السُّنَّة، وأجمعت عليه الأمة، فيكفر مدَّعي خلافه ويقتل إن أصرَّ»[٣].

ولقد تكلم علماء الأمة على تقرير هذه المسألة وأقوالهم محفوظة في ذلك، فإن شئت فارجع إلى كتب التفسير عند تفسير قوله تعالى: ﴿مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَآ أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَٰكِن رَّسُولَ ٱللَّهِ وَخَاتَمَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ﴾ [الأحزاب: ٤٠]، وارجع كذلك إلى كتب العقيدة فقلَّ أن يخلو كتاب من الحديث في هذا الأمر وتقريره بما ورد في الكتاب والسُّنَّة وأقوال الصحابة، ومن بعدهم من علماء الأمة.

وبما تقدم من أدلة على تقرير ختم النبوة، فإنه يجب على كل من يؤمن بالله ورسوله أن يؤمن بهذا الأمر ويعتقده.

* * *

---

(١) الشفا (٢/ ١٠٧١).

(٢) محمود بن عبد الله الحسيني الألوسي: مفسر محدث، أديب وهو صاحب كتاب روح المعاني، توفي سنة (١٢٧٠هـ)، الأعلام (٧/ ١٧٦).

(٣) روح المعاني (٢٢/ ٣٢، ٣٩).

المبحث الخامس

وجوب الإيمان بأن النبي ﷺ قد بلّغ الرسالة وأكملها

المبحث الخامس

وجوب الإيمان بأن النبي ﷺ قد بلَّغ الرسالة وأكملها

من تمام نعمة الله سبحانه وتعالى على هذه الأمة أن أكمل لهم دينهم فلا ينقصه أبداً، ولا يحتاج إلى زيادة أبداً، واقترن هذا الإكمال برضاه سبحانه بأن يكون هذا الدين الكامل ديناً نتعبَّده به، قال تعالى: ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا﴾ [المائدة: ٣].

وهذه الآية دليل على كمال الدين وحياً من الله، وتبليغاً من رسوله ﷺ، ولقد نزلت هذه الآية الكريمة والنبي ﷺ واقف بعرفات في حجة الوداع، وعاش النبي ﷺ بعد نزولها إحدى وثمانين ليلة.

وهي شهادة من الله تعالى لنبيه ﷺ على تبليغه لما أرسله به أتم تبليغ وأكمله، وبذلك جعله الله خاتم النبيين؛ لأن الخلق بعد هذا لن يحتاجوا إلى نبي غير نبيهم ﷺ ليكمل لهم دينهم، كما أنهم لا يحتاجون إلى دين آخر وذلك لكمال دينهم.

ووجه الدلالة من الآية على ذلك: «أن الله أخبر في هذه الآية بأنه قد أكمل الدين، وإنما كمل بما بلغه، إذ الدين لم يعرف إلا بتبليغه، فعلم من ذلك أنه ﷺ قد بلغ جميع الدين الذي شرعه الله لعباده»(١).

وما كان من النبي ﷺ بعد نزول هذه الآية الكريمة إلا أن استشهد الناس على ذلك في نفس المناسبة التي نزلت فيها الآية.

فعن جابر بن عبد الله رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «**تركت فيكم**

(١) مجموع الفتاوى (٥/ ١٥٥، ١٥٦) بتصرف.

ما لن تضلوا بعده إن اعتصمتم به، كتاب الله، وأنتم تسألون عني فما أنتم قائلون؟». قالوا: نشهد أنك قد بلغت وأدَّيت ونصحت. فقال بأصبعه السبَّابة يرفعها إلى السماء وينكتها إلى الناس: «**اللَّهُمَّ اشهد، اللَّهُمَّ اشهد ثلاث مرات...**» الحديث(١).

فشهد له خير قرون هذه الأمة وهم صحابته رضوان الله عليهم، وكانوا في ذلك الموقف نحواً من أربعين ألفاً(٢).

ولقد أمر الله تبارك وتعالى رسوله ﷺ في مواطن متعددة من كتابه العزيز بأن يبلغ أمور هذا الدين البلاغ المبين الواضح، فقال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ ۝٦٧﴾ [المائدة]، وقال تعالى: ﴿فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ الْمُبِينُ ۝٨٢﴾ [النحل]، وقال تعالى: ﴿وَمَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ ۝٥٤﴾ [النور، والعنكبوت: ١٨]، وقال تعالى: ﴿إِنْ عَلَيْكَ إِلَّا الْبَلَاغُ﴾ [الشورى: ٤٨].

وهذا الأمر والحث من الله لرسوله ﷺ على البلاغ لشرع الله والدين الذي أوحاه إليه نابع من كون الرسول ﷺ هو الطريق الوحيد الذي يعرف بواسطة ما شرعه من دين يدين العباد له به، فليس ثمت طريق آخر إلى معرفة شرع الله وأوامره ونواهيه إلا طريقه ﷺ فهو المبلغ عن الله تعالى، وهذه هي سُنَّة الله في خلقه حيث جعل طريق معرفته وعبادته عن طريق من أرسله من الرسل، «فلا سبيل إلى السعادة والفلاح في الدارين إلا على أيدي الرسل، كما أنه لا سبيل إلى معرفة الطيب من الخبيث والحلال من الحرام إلا من جهتهم، ولا ينال رضى الله البتة إلا على أيديهم، فهم الميزان الراجح الذي على أقوالهم وأعمالهم وأخلاقهم

(١) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الحج، باب حجة النبي ﷺ (٤/ ٤١).
(٢) تفسير ابن كثير (٢/ ٧٧).

توزن الأقوال والأخلاق والأعمال، وبمتابعتهم يتميز أهل الهدى من أهل الضلال، فالضرورة إليهم أعظم من ضرورة البدن إلى روحه، والعين إلى نورها، والروح إلى حياتها، فأي ضرورة وحاجة فرضت، فضرورة العبد وحاجته إلى الرسل فوقها بكثير»(١)، وبهذا وبغيره نلمس عظم الحاجة إلى تبليغ الرسل.

ومما لا شك فيه أن الرسول ﷺ أعظم الأنبياء بلاغاً، فقد كان ﷺ حريصاً على هداية أمته، وقد قال تعالى في حقه: ﴿لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢٨﴾﴾ [التوبة]، وسيرته ﷺ كلها دليل على مدى حرصه على إبلاغ رسالة ربه والتفاني في إبلاغها دون أن تأخذه في الله لومة لائم. وهو ﷺ أحق الناس بالوصف الوارد في قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَٰلَٰتِ ٱللَّهِ وَيَخْشَوْنَهُۥ وَلَا يَخْشَوْنَ أَحَدًا إِلَّا ٱللَّهَ ۗ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ حَسِيبًا ﴿٣٩﴾﴾ [الأحزاب] «فقد امتدح الله تبارك وتعالى في هذه الآية الذين يبلِّغون رسالته إلى خلقه ويؤدُّونها بأماناتها ولا يخافون أحداً سواه، فلا تمنعهم سطوة أحد إبلاغ رسالات الله، وسيد الناس في هذا المقام بل وفي كل مقام محمد رسول الله ﷺ، فإنه قام بأداء الرسالة وإبلاغها إلى أهل المشارق والمغارب وإلى جميع أنواع بني آدم، وأظهر الله كلمته ودينه وشرعه على جميع الأديان والشرائع»(٢).

ولقد أيد الله تبارك وتعالى رسوله محمداً ﷺ بكل ما يلزم لتبليغ وحي الله وشرعه، فأعطاه العصمة في التبليغ، فقال تعالى: ﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ ﴿٣﴾ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْىٌ يُوحَىٰ ﴿٤﴾﴾ [النجم]، فهذه الآية دليل واضح على عصمته ﷺ في كل أمر بلغه عن ربه تبارك وتعالى، كما أنها شهادة

(١) زاد المعاد، لابن القيم (١/ ٦٩).
(٢) تفسير ابن كثير (٣/ ٤٩٢) بتصرف.

وتزكية من الله تبارك وتعالى لنبيه ﷺ على سلامة شرعه الذي أوحاه إليه من كل ما ينقص منه.

وقال ﷺ: «**إذا حدثتكم عن الله شيئاً فخذوا به فإني لن أكذب على الله**»(١)، وبالإضافة إلى عصمته في أمر التبليغ فقد عصمه الله كذلك من الناس حتى يتم له أمر إبلاغ هذا الدين وإكماله، قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ۖ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُۥ ۚ وَٱللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِ ۗ﴾ [المائدة: ٦٧]، فاقترن تعهد الله بعصمة رسوله من قتل الناس وإيذائهم له مع الأمر للنبي ﷺ بتبليغ ما أنزل إليه، وفي هذا الاقتران دليل جلي على أن عصمة الله تعالى وحفظه ونصره وتأييده على أعدائه قد صاحبت النبي ﷺ حتى تم له إبلاغ هذا الدين ونشره بين الناس.

ومع عصمة الله لنبيه في التبليغ، وعصمته من الناس، فكذلك عصم الله كتابه الذي أنزله إليه ليكون محفوظاً من كل تحريف أو تغيير قال تعالى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ﴿٩﴾﴾ [الحجر].

كما تعهد كذلك بحفظ هذا الدين وإبقاء طائفة في كل زمان من الأزمنة تنصر هذا الدين وتحفظه وتبلغه، كما جاء عن النبي ﷺ، وفي الحديث: «**لا تزال طائفة من أمتي ظاهرين على الحق لا يضرهم من خذلهم حتى يأتي أمر الله**»(٢). وفي هذه الأمور ضمان لاستمرار هذا الدين وإبلاغه لكل أهل زمان؛ لأنه شامل لكل الناس في كل وقت إلى أن يرث الله الأرض وما عليها.

---

(١) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الفضائل، باب وجوب امتثال ما قاله شرعاً برقم (٢٣٦١).

(٢) أخرجه بهذا اللفظ مسلم في صحيحه، كتاب الإمارة، باب قوله من: «**لا تزال طائفة من أمتي...**» (٦/ ٥٢، ٥٣).

وقد أخبر ﷺ في مواطن متعددة بأنه قد أبلغ أمور الرسالة وأوضحها لأمته، وهو ﷺ الصادق المصدوق ومن ذلك قوله ﷺ: **«قد تركتكم على مثل البيضاء ليلها كنهارها لا يزيغ عنها بعدي إلا هالك»**[١].

وهذا هو الحق، فقد بلَّغ وحي ربه وصدع بأمره، ونهض بأعباء الرسالة كما أراد الله منه، فأدَّى الأمانة ونصح لأمته وجاهد في الله حق جهاده، وما ترك لأمته من شيء يقرِّبهم إلى الجنة إلا وقد دلَّهم عليه ورغَّبهم فيه، ولا من شيء يبعدهم عن النار إلا وقد حذَّرهم به وحذرهم منه، وبيَّن لهم كل ما فيه صلاح دينهم ودنياهم وآخرتهم، فهذه هي مهمته ورسالته ﴿وَمَا عَلَى ٱلرَّسُولِ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ ۝٥٤﴾ [النور]، وقد أتم عليه الصلاة والسلام ما أوكل إليه على أتم وجه وأكمله، فأبان الطريق ودل على صراط الله المستقيم، وترك الأمة على مثل البيضاء ليلها كنهارها لا يزيغ عنها إلا هالك.

ولقد شهد الصحابة رضوان الله عليهم بهذا. فهم الذين كان النبي ﷺ بين ظهرانيهم، وكانوا ملازمين له في كل أحواله وحركاته، فهم أعلم بما كان. وسأورد بعض ما ورد عنهم في هذا الشأن:

فقد سئل سلمان الفارسي[٢] رضي الله عنه فقيل له: «أقد أعلمكم نبيكم ﷺ كل شيء حتى الخراءة؟ فقال: أجل لقد نهانا أن نستقبل القبلة بغائط أو

---

(١) أخرجه أحمد في مسنده (٤/ ١٢٦) واللفظ له، وابن أبي عاصم في السُّنَّة (١/ ٢٧) (ح٤٩)، وابن ماجه في السنن، المقدمة، باب اتباع سُنَّة الخلفاء الراشدين (١/ ١٦) (ح٤٣)، والحاكم في المستدرك (١/ ٩٦). وقال الألباني في ظلال الجنة في تخريج السُّنَّة (١/ ٢٧٠): «حديث صحيح».

(٢) سلمان أبو عبد الله الفارسي: أصله من رامهرمز، وقيل من أصبهان، سمع بالنبي ﷺ قبل مبعثه فتغرب بحثاً عنه، وتسبب ذلك إلى وقوعه في الرق ومنّ الله عليه بالإسلام. أول مشاهده الخندق، وكان رضي الله عنه خيّراً فاضلاً حبراً عالماً زاهداً، توفي عام (٣٥هـ). الإصابة (٢/ ٦٠، ٦١) رقم (٣٣٥٧).

بول، أو أن نستنجي باليمين، أو أن نستنجي بأقل من ثلاثة أحجار، أو أن نستنجي برجيع[١] أو بعظم»[٢].

وعن أبي ذر رضي الله عنه قال: «لقد تركنا محمداً ﷺ وما يحرك طائر جناحيه في السماء إلا أذكرنا منه علماً»[٣].

وعن عائشة[٤] رضي الله عنها قالت: «من حدَّثك أن محمداً كتم شيئاً مما أنزل الله عليه فقد كذب، والله يقول: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ﴾ [المائدة: ٦٧]»[٥]. وفي رواية: «من حدثك أن النبي ﷺ كتم شيئاً من الوحي فلا تصدِّقه، إن الله تعالى يقول: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُۥ﴾»[٦].

وعن عائشة رضي الله عنها قالت: «لو كتم رسول الله ﷺ شيئاً مما أوحي إليه من كتاب الله لكتم: ﴿وَتُخْفِى فِى نَفْسِكَ مَا ٱللَّهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى ٱلنَّاسَ وَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَىٰهُ﴾ [الأحزاب: ٣٧]»[٧].

---

(١) الرجيع: العذرة والروث، سُمي رجيعاً: لأنه رجع عن حالته الأولى بعد أن كان طعاماً أو علفاً. النهاية (٢/ ٢٠٣).

(٢) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الطهارة، باب الاستطابة (١/ ١٥٤).

(٣) أخرجه أحمد في مسنده (٥/ ١٥٣).

(٤) هي: الصديقة أم المؤمنين، واسمها عائشة بنت أبي بكر الصديق. ولدت بعد البعثة بأربع سنوات أو خمس، وتزوجها النبي ﷺ وهي بنت تسع، وكانت رضي الله عنها من أعلم الصحابة وأفقههم، وكانت أحب نساء النبي ﷺ، توفيت عام (٥٨هـ). الإصابة (٤/ ٣٤٨ ـ ٣٥٠) رقم (٧٠٤٠).

(٥) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب التفسير، باب تفسير قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ﴾. انظر: فتح الباري (٨/ ٢٧٥) (ح٤٦١٢).

(٦) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب التوحيد، باب قول الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُۥ﴾. انظر: فتح الباري (١٣/ ٥٠٣) (ح٧٥٣١).

(٧) أخرجه الطبري في تفسيره (٢٢/ ١٣).

فمن حقه ﷺ على أمته أن يقروا له بفضله وصدقه وأمانته في تبليغ رسالة ربه التي ائتمنه عليها، وكلَّفه أن يقوم بها، فلا يكون إيمانُ للمرء إذا لم يقر للرسول ﷺ بأنه قد بلَّغ الرسالة أعظم ما يكون التبليغ، وقام بأدائها أعظم ما يكون القيام، واحتمل في سبيلها أشق ما يحتمله البشر، ومن أنكر شيئاً من ذلك أو شك في صدقه فهو كافر مارق عن الإسلام مكذب لله ولرسوله.

❁ ❁ ❁

المبحث السادس

وجوب الإيمان بعصمته ﷺ

وفيه تمهيد وثلاثة مطالب:

المطلب الأول: تعريف العصمة.

المطلب الثاني: الجوانب التي عصم فيها النبي ﷺ.

المطلب الثالث: مسألة وقوع الخطأ منه.

تمهيد

تقدم في المبحث السابق الحديث عن وجوب الإيمان بأن النبي ﷺ قد بلَّغ الرسالة وأكملها، وأشرت إلى أن هذا البلاغ قد اقترن بعصمة الله لنبيه ﷺ في كل ما يبلغه عن ربه ﷻ.

ولقد رأيت أن أُفرد هذا المبحث في الحديث عن عصمته ﷺ في هذا الجانب وفي الجوانب الأخرى التي عُصم فيها باعتبار أن أمر الإيمان بعصمته من الأمور الداخلة في الحقوق الواجبة له، والتي يجب على الأمة الإيمان له بها.

وقد ضمَّنت هذا المبحث ثلاثة مطالب:

المطلب الأول

تعريف العصمة

❐ **المعنى اللغوي:**

العصمة وردت في اللغة لعدة معان، منها:

١ ـ المنع:

قال «صاحب اللسان»: «العصمة في كلام العرب: المنع، وعصمة الله عبده: أن يعصمه مما يوبقه. عَصَمه، يَعْصِمه، عَصْماً: منعه ووقاه»[(١)].

٢ ـ الحفظ:

قال «صاحب اللسان»: «والعصمة الحفظ، يقال: عصمته فانعصم، واعتصمت بالله إذا امتنعت بلطفه من المعصية»[(٢)].

٣ ـ القلادة:

قال «صاحب اللسان»: «العصمة القلادة»[(٣)]، وكذا في «القاموس المحيط»[(٤)].

٤ ـ الحبل:

قال الزجّاج[(٥)]: «أصل العصمة: الحبل وكل ما أمسك شيئاً فقد

---

(١) لسان العرب (١٢/ ٤٠٣) مادة: (عصم).
(٢) المصدر السابق (١٢/ ٤٠٤). (٣) المصدر السابق (١٢/ ٤٠٥).
(٤) (٤/ ١٥٢، ١٥٣).
(٥) الزجّاج ـ بفتح الزاي والجيم المشددة ـ أبو إسحاق إبراهيم بن السري بن سهل =

عصمه»[(١)].

٥ ـ السبب:

قال الطبري: «وللسبب الذي يتسبب به الرجل إلى حاجته: عاصم ومنه قول الشاعر:

إلى المرء قيس أطيل السرى وآخذ من كل حي عصم[(٢)]

يعنى: بالعصم: الأسباب، أسباب الذمة والأمان»[(٣)].

قلت: إذا أمعنت النظر في هذه المعاني وجدتها جميعاً ترجع إلى المعنى الأول الذي هو «المنع»، فالحفظ منع للشيء من الوقوع في المكروه أو المحظور، والقلادة تمنع سقوط الخرز منها، والحبل يمنع من السقوط والتردي، والسبب يمنع صاحبه عما يكره.

□ المعنى الشرعي:

أما عصمة النبي ﷺ فقد عرفت بعدة تعريفات ولعل من أحسنها وأسلمها ما ذكره صاحب كتاب «نسيم الرياض» بأنها «لطف من الله تعالى يحمل النبي على فعل الخير ويزجره عن الشر مع بقاء الاختيار تحقيقاً للابتلاء»[(٤)].

❁ ❁ ❁

= الزجاج النحوي: كان عالماً أديباً ديِّناً صنف كتاباً في معاني القرآن، روى عن المبرد وثعلب وغيرهما، توفي في بغداد سنة (٣١١هـ). وفيات الأعيان (١/ ٣٢).

(١) لسان العرب (١٢/ ٤٠٥).

(٢) ديوان الأعشى (ص٣٧) بشرح الدكتور محمد حسين.

(٣) تفسير الطبري (٤/ ٢٦).

(٤) نسيم الرياض في شرح الشفا للقاضي عياض (٤/ ٣٩).

المطلب الثاني

الجوانب التي عصم فيها النبي ﷺ

أ ـ العصمة في التبليغ ودعوى الرسالة:

وهذه العصمة هي التي عليها المناط، فبها يحصل المقصود من البعثة، فتبليغ شرع الله إلى الخلق هي مهمة الرسل من أولهم إلى آخرهم، فهم الواسطة بين الله وبين خلقه الذين أرسلوا إليهم، فبطريقهم يهتدي البشر ويرشدون إلى دين الله إذ هم المبلغون عن الله أمره ونهيه وشرعه.

ولذلك فقد أوجب الله العصمة لأنبيائه ورسله في هذا الجانب حتى تصل الرسالة إلى العباد كاملة تامة غير منقوصة ولا محرفة، وبذلك تقوم الحجة على العباد.

ولقد دلت نصوص القرآن والسُّنَّة على عصمة نبينا محمد ﷺ في هذا الجانب، وانعقد إجماع الأمة على ذلك.

فمن القرآن:

١ ـ قوله تعالى: ﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ ۝٣ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْىٌ يُوحَىٰ ۝٤﴾ [النجم]، فالآية نص في عصمة لسانه ﷺ من كل هوى وغرض، فهو لا ينطق إلا بما يوحى إليه من ربه، ولا يقول إلا ما أمر به فيبلغه إلى الناس كاملاً موفوراً من غير زيادة ولا نقصان.

وهذه الآية شهادة وتزكية من الله لنبيه ورسوله محمد ﷺ في كل ما بلَّغه للناس من شرع الله.

٢ ـ وقوله تعالى: ﴿وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ ٱلْأَقَاوِيلِ ﴿٤٤﴾ لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِٱلْيَمِينِ ﴿٤٥﴾ ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ ٱلْوَتِينَ ﴿٤٦﴾ فَمَا مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَٰجِزِينَ ﴿٤٧﴾﴾ [الحاقة]، فالآيات نصَّت على أن الله ﷻ لا يؤيد من يكذب عليه بل لا بد أن يظهر كذبه وأن ينتقم منه.

ولو كان محمد ﷺ من هذا الجنس كما يزعم الكافرون فيما حكاه الله عنهم ﴿أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا﴾ [الشورى: ٢٤] ـ وحاشاه ﷺ من ذلك ـ لأنزل الله به من العقوبة ما ذكره في هذه الآيات، وحيث إن الرسول ﷺ لم يقع له شيء من ذلك فلم يهلكه الله ولم يعذبه، فهو على هذا لم يتقوَّل على الله ما لم يقله ولم يفتر شيئاً من عند نفسه، وبهذا تثبت عصمته في كل ما بلَّغه عن ربه ﷻ.

قال ابن كثير بعد أن فسَّر هذه الآيات: «والمعنى في هذا بل هو صادق راشد لأن الله ﷻ مقر له ما يبلغه عنه ومؤيد له بالمعجزات الباهرات والدلالات القاطعات»[(١)].

٣ ـ وقوله تعالى: ﴿وَإِن كَادُوا۟ لَيَفْتِنُونَكَ عَنِ ٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ لِتَفْتَرِىَ عَلَيْنَا غَيْرَهُۥ ۖ وَإِذًا لَّٱتَّخَذُوكَ خَلِيلًا ﴿٧٣﴾ وَلَوْلَآ أَن ثَبَّتْنَٰكَ لَقَدْ كِدتَّ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْـًٔا قَلِيلًا ﴿٧٤﴾ إِذًا لَّأَذَقْنَٰكَ ضِعْفَ ٱلْحَيَوٰةِ وَضِعْفَ ٱلْمَمَاتِ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ عَلَيْنَا نَصِيرًا ﴿٧٥﴾﴾ [الإسراء]. وهذه الآيات دالة على عصمة الله وتثبيته لنبيه ﷺ في تبليغ ما أوحى إليه، ومعناها مقارب لمعنى الآيات التي ذكرناها قبلها، «فقد أخبر تعالى عن تأييده لرسوله صلوات الله عليه وسلامه وتثبيته وعصمته وسلامته من شر الأشرار وكيد الفجار، وأنه تعالى هو المتولي أمره ونصره، وأنه لا يكله إلى أحد من خلقه بل هو وليه وحافظه وناصره ومؤيده ومظفره ومظهر دينه على من عاداه وخالفه في مشارق الأرض ومغاربها»[(٢)].

---

(١) تفسير ابن كثير (٤/ ٤١٧).
(٢) المصدر السابق (٣/ ٥٣).

وأما الأدلة من السُّنَّة على ذلك، فمنها:

١ ـ حديث طلحة بن عبيد الله[١]، وجاء فيه قوله ﷺ: «**ولكن إذا حدَّثتكم عن الله شيئاً فخذوا به، فإني لن أكذب على الله**»[٢]، والحديث نصَّ على عصمته ﷺ من الكذب فيما يخبر به عن الله.

٢ ـ حديث عبد الله بن عمرو[٣] رضي الله عنهما قال: «كنت أكتب كل شيء أسمعه من رسول الله ﷺ أريد حفظه، فنهتني قريش فقالوا: إنك تكتب كل شيء تسمعه من رسول الله ﷺ، ورسول الله ﷺ بشر يتكلم في الغضب والرضا، فأمسكت عن الكتاب، فذكرت ذلك لرسول الله ﷺ فقال: «**اكتب فوالذي نفسي بيده ما خرج مني إلا حق**»»[٤].

٣ ـ حديث أبي هريرة رضي الله عنه عن رسول الله ﷺ أنه قال: «**إني لا أقول إلا حقاً**»، قال بعض أصحابه: فإنك تداعبنا يا رسول الله. قال: «**إني لا أقول إلا حقاً**»[٥].

---

(١) طلحة بن عبيد الله بن عثمان التيمي القرشي أبو محمد: أحد العشرة المبشرين بالجنة، وأحد الثمانية السابقين للإسلام، توفي سنة ست وثلاثين من الهجرة. الإصابة (٢/ ٢٢٠، ٢٢٢).

(٢) تقدم تخريجه (ص١٢٨).

(٣) عبد الله بن عمرو بن العاص: أسلم قبل أبيه وكان رضي الله عنه فاضلاً، حافظاً عالماً، توفي بالشام سنة (٦٥هـ)، وقيل غير ذلك. الإصابة (٢/ ٣٤٣ ـ ٣٤٤).

(٤) أخرجه الإمام أحمد في مسنده (٢/ ١٦٢، ١٩٢)، وأبو داود في سننه، كتاب العلم، باب في كتاب العلم (٤/ ٦٠) (ح٣٦٤٦)، والحاكم في المستدرك (١/ ١٠٤، ١٠٥) وصححه ووافقه الذهبي.

(٥) أخرجه أحمد في مسنده (٢/ ٣٤٠، ٣٦٠)، والترمذي في سننه، كتاب البر والصلاة، باب مما جاء في المزاح (٤/ ٣٥٧) (ح١٩٩٠) وقال: هذا حديث حسن صحيح.

دليل الإجماع:

نقل غير واحد من العلماء إجماع الأمة واتفاقها على عصمته ﷺ في تبليغ ما أوحي إليه من ربه ﷻ.

قال القاضي عياض: «وأجمعت الأمة في ما كان طريقه البلاغ أنه معصوم فيه من الإخبار عن شيء منها بخلاف ما هو به، لا قصداً ولا عمداً ولا سهواً ولا غلطاً»(١).

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية: «إن الأنبياء صلوات الله عليهم معصومون فيما يخبرون به عن الله سبحانه، وفي تبليغ رسالاته باتفاق الأمة، ولهذا وجب الإيمان بكل ما أوتوه... والعصمة فيما يبلغونه عن الله ثابتة فلا يستقر في ذلك خطأ باتفاق المسلمين»(٢).

□ ب ـ العصمة من الكفر والشرك:

الحديث عن عصمته ﷺ في هذا الجانب ذو شقين هما:

الأول: عصمته قبل مبعثه ﷺ.

الثاني: عصمته بعد مبعثه ﷺ.

□ أما الشق الأول: وهو عصمته من الشرك والكفر قبل بعثته ونزول الوحي إليه:

فقد دلت النصوص الثابتة على أن النبي ﷺ معصوم منذ نشأته من الكفر والشرك فلم يعهد عنه ﷺ أنه سجد لصنم أو استلمه أو إلى غير ذلك من أمور الشرك التي كان يفعلها قومه. فقد فطره الله على معرفته والاتجاه إليه وحده، وهذا هو المعلوم من سيرته. **فمن النصوص التي يستدل بها على هذا الأمر ما يلي:**

---

(١) الشفا (٢/ ٧٤٦).

(٢) مجموع الفتاوى (١٠/ ٢٨٩، ٢٩٠).

ـ حديث أنس بن مالك رضي الله عنه: «أن رسول الله ﷺ أتاه جبريل وهو يلعب مع الغلمان فأخذه فصرعه فشق عن قلبه فاستخرج القلب، فاستخرج منه علقة، فقال: هذا حظ الشيطان منك، ثم غسله في طست من ذهب بماء زمزم ثم لَأَمَه، ثم أعاده في مكانه، وجاء الغلمان يسعون إلى أمه ـ يعني: ظئره[(١)] ـ فقالوا: إن محمداً قد قتل، فاستقبلوه وهو منتقع اللون، قال أنس: وقد كنت أرى أثر ذلك الخيط في صدره»[(٢)].

فالحديث نص على إخراج جبريل لحظ الشيطان منه ﷺ وتطهيره لقلبه فلا يقدر الشيطان على إغوائه إذ لا سبيل له عليه. وهذا دليل على تنزيهه من الشرك منذ صغره ﷺ.

ـ وعن زيد بن حارثة رضي الله عنه قال: «كان صنم من نحاس يقال له: إساف أو نائلة يتمسَّح به المشركون إذا طافوا، فطاف رسول الله ﷺ فطفت معه، فلما مررت مسحت به، فقال رسول الله ﷺ: **«لا تمسه»**، فقال زيد: فطفت فقلت في نفسي لأمسنَّه حتى أنظر ما يكون فمسحته، فقال رسول الله ﷺ: **«ألم تنه؟»**، قال زيد: فوالذي هو أكرمه وأنزل عليه الكتاب ما استلم صنماً حتى أكرمه الله بالذي أكرمه وأنزل عليه»[(٣)].

وهذا الحديث نصٌّ في بُعده ﷺ عن عبادة الأوثان التي كان عليها أهل مكة، فنهيه لزيد ـ الذي كان ابنه بالتبني في ذلك الحين ـ يؤكد

---

(١) أي: مرضعته.

(٢) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الإيمان، باب الإسراء برسول الله ﷺ (١/١٠١، ١٠٢).

(٣) أخرجه الحاكم في المستدرك (٣/٢١٦ ـ ٢١٧) وقال: حديث صحيح على شرط مسلم ولم يخرجاه؛ وأخرجه أبو نعيم في دلائل النبوة (ص١٤٥)؛ وأخرجه البيهقي في دلائل النبوة (٢/٣٤) بتحقيق: عبد المعطي قلعجي، وأورده ابن كثير في البداية والنهاية (٢/٢٨٨)، وأورده السيوطي في الخصائص الكبرى (١/١٥١، ١٥٢).

نفرته ﷺ من تلك الأوثان التي كان يعكف عليها أهل مكة.

ولقد كان النبي ﷺ لا يحضر مع أهل مكة ما يقيمونه من أعياد لأصنامهم، فعن ابن عباس رضي الله عنهما قال: «حدثتني أم أيمن[١] قالت: كان بوانة صنم يحضره قريش يوماً في السنة، وكان أبو طالب[٢] يحضره مع قومه، وكان يكلم رسول الله ﷺ أن يحضر ذلك العيد مع قومه فيأبى حتى رأيت أبا طالب غضب عليه، ورأيت عمَّاته غضبن عليه يومئذ أشد الغضب وجعلن يقلن: إنا نخاف عليك مما تصنع من اجتناب آلهتنا، وجعلن يقلن يا محمد: ما تريد أن تحضر لقومك عيداً ولا تكثر لهم جمعاً، فلم يزالوا به حتى ذهب فغاب عنهم ما شاء الله ثم رجع إلينا مرعوباً فزعاً، فقلن عمَّاته: ما دهاك؟ قال: «**إني أخشى أن يكون بي لمم**»، فقلن: ما كان الله ليبتليك بالشيطان وفيك من خصال الخير ما فيك فما الذي رأيت؟ قال: «**إني كلما دنوت من صنم منها تمثل لي رجل أبيض طويل يصيح بي وراءك يا محمد لا تمسه**»، فما عاد إلى عيد لهم حتى تنبئ»[٣].

كما عُصم ﷺ من الحلف بأسماء تلك الأصنام التي كان يعبدها قومه ويحلفون بها تعظيماً لها، فقد جاء في قصة بحيرى الراهب[٤] أنه

---

(١) أم أيمن: مولاة النبي ﷺ وحاضنته، واسمها: بركة بنت ثعلبة، وهي أم أسامة بن زيد بن حارثة. الإصابة (٤/ ٤١٥، ٤١٦).

(٢) أبو طالب بن عبد المطلب: عم النبي ﷺ، شقيق أبيه، كفل النبي ﷺ وذبَّ عنه ونصره بعد بعثته، ولم يمت على الإسلام. الإصابة (٤/ ١١٥، ١١٨).

(٣) أخرجه أبو نعيم في دلائل النبوة (ص١٤٤). وأورده السيوطي في الخصائص الكبرى (١/ ١٥١)، وعزاه إلى ابن سعد وأبي نعيم وابن عساكر.

(٤) راهب من رهبان النصارى يقال: إنه كان من عبد القيس، وكان اسمه: جرجيس. البداية (٢/ ٢٨٦).

استحلف النبي ﷺ باللات والعزى حينما لقيه بالشام في سفرته مع عمه أبي طالب وهو صبي لما رأى فيه علامات النبوة، فقال بحيرى للنبي ﷺ: يا غلام أسألك باللات والعزى إلا ما أخبرتني عما أسألك عنه، فقال له النبي ﷺ: «**لا تسألني باللات والعزى شيئاً، فوالله ما أبغضت بغضهما شيئاً قط**»[١].

والنصوص في مثل هذا كثيرة، وقد عني بجمعها من ألَّف في دلائل النبوة مثل الحافظ أبي نعيم الأصبهاني[٢] فقد عقد فصلاً في كتابه «دلائل النبوة» بعنوان: «ذكر ما خصه الله ﷻ به من العصمة وحماه من التدين بدين الجاهلية...». وقد أورد تحت هذا العنوان العديد من الأحاديث والشواهد في هذا الشأن[٣].

وكذلك فعل البيهقي[٤] في «دلائل النبوة» أيضاً، فعقد عنواناً لهذا الموضوع فقال: «باب ما جاء في حفظ الله تعالى رسوله ﷺ في شبيبته عن أقذار الجاهلية ومعائبها، لما يريده به من كرامته برسالته حتى يبعث رسولاً»[٥].

---

(١) أخرجه أبو نعيم في دلائل النبوة (ص١٢٥ ـ ١٢٨)؛ وأخرجه البيهقي في دلائل النبوة (٢/ ٢٦، ٢٧) بتحقيق: عبد المعطي قلعجي، وأورده السيوطي في الخصائص الكبرى (١/ ١٤٢، ١٤٤) وعزاه للبيهقي.

(٢) أحمد بن عبد الله بن أحمد الأصبهاني وأبو نعيم: حافظ مؤرخ من الثقات في الحفظ والرواية، ولد ومات بأصبهان عام (٤٣٠هـ) من مؤلفاته: «حلية الأولياء ودلائل النبوة». الأعلام (١/ ١٥٧).

(٣) انظر (ص١٤٣ ـ ١٤٧).

(٤) أحمد بن الحسين البيهقي: صاحب التصانيف المشهورة ومنها: «السنن الكبرى»، و«شعب الإيمان»، و«دلائل النبوة»، ولد سنة (٣٨٤هـ) وتوفي سنة (٤٥٨هـ). تذكرة الحفاظ (٣/ ١١٣٢) والأعلام (١/ ١١٦)

(٥) انظر (٢/ ٣٠، ٤٢).

ومثلهما السيوطي في «الخصائص الكبرى»[١] حيث قال: «باب اختصاصه ﷺ بحفظ الله إياه في شبابه عما كان فيه أهل الجاهلية»[٢].

الإجماع:

نقل الجرجاني[٣] إجماع الأمة على عصمة الأنبياء من الكفر والشرك قبل النبوة وبعد حيث قال: «وأما الكفر فأجمعت الأمة على عصمتهم منه قبل النبوة وبعدها، ولا خلاف لأحد منهم في ذلك»[٤].

وهذا هو الحق فالله ﷻ قد نزَّه نبيه ﷺ عن الكفر والشرك وعصمه من الوقوع فيهما، وذلك داخل في باب إعداده لتحمل الرسالة، ومثل ذلك صيانة الله لنسبه الذي تناسل منه، فعن ابن عباس ﵄ قال: قال رسول الله ﷺ: «**لم يلتق أبواي على سفاح، لم يزل الله ينقلني من الأصلاب الطيبة إلى الأرحام الطاهرة مصفى مهذباً لا تتشعب شعبتان إلا كنت في خيرهما**»[٥].

وكل ذلك حتى لا يبقى لمنتقص حجة يتعلق بها لتنفير الناس من رسول الله ﷺ، فمن المعلوم أن كفار قريش كانوا حريصين أشد الحرص على تجريح النبي ﷺ ووصفه بما ينقص من قدره ويحط من شأنه لتنفير الناس منه وصدهم عن دعوته. فلقد رموه واتهموه بالسحر والجنون وغير

---

(١) عبد الرحمٰن بن أبي بكر السيوطي: حافظ، مؤرخ، أديب له نحو (٦٠٠ مصنف) ولد سنة (٨٤٩هـ) وتوفي سنة (٩١١هـ). الأعلام (٣/ ٣٠١ ـ ٣٠٢).

(٢) انظر (١/ ١٤٨، ١٥٢).

(٣) هو: علي بن محمد بن علي المعروف بالشريف الجرجاني: ولد سنة (٧٤٠هـ) وتوفي سنة (٨١٦هـ) له كتاب التعريفات، وشرح المواقف وغيرهما. الأعلام (٥/ ٧).

(٤) شرح المواقف (ص١٣٤).

(٥) أخرجه أبو نعيم في دلائل النبوة (ص٢٤) من عدة طرق والحديث له شواهد متعددة أوردها السيوطي في الخصائص الكبرى (١/ ٦٣، ٦٦).

ذلك من النقائص، ولكن لم يكن الشرك والكفر من ضمن ما رمَوه به، فسكوتهم عن ذلك دليل على أنهم لم يجدوا سبيلاً إليه إذ لو كان لنُقل، وما سكتوا عنه كما لم يسكتوا عند تحويل القبلة كما حكى الله ذلك عنهم في قوله تعالى: ﴿مَا وَلَّىٰهُمْ عَن قِبْلَتِهِمُ ٱلَّتِى كَانُوا۟ عَلَيْهَا﴾ [البقرة: ١٤٢].

وبهذا يتبين أن النبي ﷺ لم يكن على دين قومه من عبادة الأصنام وتعظيمها، فقد عصمه الله من ذلك فلم يجعل لكفار قريش طريقاً عليه فلذلك لجؤوا إلى تلفيق التهم الباطلة المتناقضة كاتهامه بالسحر تارة وبالجنون تارة وبالكهانة تارة أخرى.

وإذا كان الله قد عصم نبيه ﷺ فيما هو دون الشرك من الأمور المنكرة التي كان عليها أهل الجاهلية، ففي ذلك دليل على أن عصمته من أمور الشرك من باب أولى.

فعن جابر بن عبد الله رضي الله عنهما: «أن رسول الله ﷺ كان ينقل معهم الحجارة للكعبة وعليه إزاره، فقال له العباس عمَّه: يا ابن أخي لو حللت إزارك فجعلته على منكبك دون الحجارة، قال: فحلَّه فجعله على منكبه، فسقط مغشياً عليه، فما رؤي بعد ذلك عرياناً ﷺ»(١).

إزالة ما يوهم عدم إيمان نبينا وضلاله قبل بعثته:

وردت بعض النصوص التي قد يتوهم منها البعض أن رسول الله ﷺ كان على كفر وضلال قبل بعثته، وسوف أعرض لهذه النصوص وأبين التوجيه الصحيح لها بما يبين الحق، ويصحِّح الفهم، ويزيل ما يقع من الوهم إن شاء الله.

أ ـ فمن تلك النصوص قول الله تعالى للنبي ﷺ: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الصلاة، باب كراهية التعري في الصلاة وغيرها. انظر: فتح الباري (١/ ٤٧٤) (ح٣٦٤)؛ وأخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الحيض، باب الاعتناء بحفظ العورة (١/ ١٨٤).

إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَاۚ مَا كُنتَ تَدْرِي مَا ٱلْكِتَٰبُ وَلَا ٱلْإِيمَٰنُ﴾ [الشورى: ٥٢].

فقد يتوهم البعض أن هذه الآية تعني انتفاء معرفة النبي للإيمان بالكلية قبل بعثته بمعنى أنه لم يكن مؤمناً.

والجواب على ذلك: أن هذه الفهم خاطئ لأن الإيمان في قوله: ﴿وَلَا ٱلْإِيمَٰنُ﴾ مصدر بمعنى المفعول، فيكون المعنى المراد؛ أي: ما يجب الإيمان به من الفرائض والأحكام الشرعية التي كلف بها علماً وعملاً، فالمنفي هو الإيمان التفصيلي لا الإجمالي.

فقد كان النبي ﷺ قبل نزول الوحي إليه مبغضاً للشرك وعبادة الأصنام، ومتَّجهاً إلى الله وحده كما سبق الاستدلال على ذلك، فلما نزلت عليه الفرائض والأحكام الشرعية التي لم يكن يدري بها قبل الوحي آمن بها وطبقها. فهذا هو المعنى الصحيح للآية، كما ذكر ذلك علماء التفسير عند تفسيرها، قال ابن كثير: «﴿مَا كُنتَ تَدْرِي مَا ٱلْكِتَٰبُ وَلَا ٱلْإِيمَٰنُ﴾ على التفصيل الذي شرع لك في القرآن»[(١)].

وقال الشوكاني[(٢)]: «ومعنى ﴿وَلَا ٱلْإِيمَٰنُ﴾ أنه كان ﷺ لا يعرف تفاصيل الشرائع ولا يهتدي إلى معالمها، وخص الإيمان لأنه رأسها وأساسها»[(٣)].

ب ـ ومن النصوص كذلك قول الله تعالى: ﴿وَوَجَدَكَ ضَآلًّا فَهَدَىٰ ۝٧﴾ [الضحى] فقد يتوهم البعض أن الآية تعني أن نبينا كان على ضلال قبل مبعثه، وهذا فهم خاطئ وباطل ترده النصوص التي سبق إيرادها والتي نصَّت على أن النبي ﷺ كان من أول حاله إلى نزول الوحي عليه

---

(١) تفسير ابن كثير (٤/ ١٢٢).

(٢) محمد بن علي بن محمد الشوكاني: فقيه مجتهد، من كبار علماء اليمن له (١١٤) مؤلفاً، ولد سنة (١١٧٣هـ) وتوفي سنة (١٢٥٠هـ). الأعلام (٦/ ٢٩٨).

(٣) فتح القدير (٤/ ٥٣٠).

معصوماً من عبادة الأوثان وقاذورات أهل الفسق والعصيان.

وقد أشار إلى بطلان هذا الفهم القرطبي عند تفسيره لهذه الآية حيث قال: «فأما الشرك فلا يظن به»(١).

وأما المعنى الصحيح لهذه الآية فقد أشار العلماء إلى عدة معان صحيحة لهذه الآية تشترك جميعها في تنزيه النبي ﷺ عن أن ينسب إليه شيء من الشرك أو الكفر قبل بعثته، **ومن تلك المعاني ما يلي**:

١ ـ أن يفسر الضلال هنا بمعنى الغفلة كما في قوله تعالى: ﴿لَّا يَضِلُّ رَبِّي وَلَا يَنسَى ﴿٥٢﴾﴾ [طه]، وكما في قوله تعالى: ﴿وَإِن كُنتَ مِن قَبْلِهِۦ لَمِنَ ٱلْغَٰفِلِينَ ﴿٣﴾﴾ [يوسف] والمعنى: أنه وجدك غافلاً عما يراد بك من أمر النبوة(٢).

٢ ـ وقال بعضهم: معنى ﴿ضَآلًّا﴾ لم تكن تدري ما القرآن والشرائع فهداك الله إلى القرآن وشرائع الإسلام، وهو بمعنى قوله تعالى: ﴿مَا كُنتَ تَدْرِي مَا ٱلْكِتَٰبُ وَلَا ٱلْإِيمَٰنُ﴾ [الشورى: ٥٢]، وعلى هذا التفسير يكون المعنى: أي: وجدك ضالاً عن شريعتك التي أوحاها إليك لا تعرفها قبل الوحي إليك، فهداك إليها(٣).

٣ ـ وقال بعضهم: معنى الآية: أي: وجدك في قوم ضلال فهداهم الله بك(٤).

٤ ـ وقال بعضهم: الضلال بمعنى الطلب؛ أي: وجدك طالباً للقبلة

(١) تفسيرالقرطبي (٢٠/ ٩٩).
(٢) المصدر السابق (٢٠/ ٩٦)، وفتح القدير (٥/ ٤٥٨).
(٣) انظر: تفسير ابن كثير (٥/ ٥٢٣)، وتفسير القرطبي (٢٠/ ٩٦، ٩٧)، وفتح القدير (٥/ ٤٥٨).
(٤) انظر: تفسير القرطبي (٢٠/ ٩٧)، وفتح القدير (٥/ ٤٥٨).

فهداك إليها[١] كما في قوله تعالى: ﴿قَدْ نَرَىٰ تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي ٱلسَّمَآءِ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَىٰهَا﴾ [البقرة: ١٤٤].

ولقد أورد العلماء عدداً من المعاني لهذه الآية: منها ما هو معنوي، ومنها ما هو حسي، وهي معان كلها حسان[٢].

ج ـ ومن النصوص كذلك قوله تعالى: ﴿نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ ٱلْقَصَصِ بِمَآ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ وَإِن كُنتَ مِن قَبْلِهِۦ لَمِنَ ٱلْغَٰفِلِينَ ﴿٣﴾﴾ [يوسف].

فليس المقصود بالغفلة هنا الشرك والغواية، إنما المقصود منها الغفلة عن قصة يوسف مع الله وإخوته كما يوضح ذلك سياق الآية. فهذه القصة وأمثالها لا تعلم إلا من الوحي، فلهذا لا يلحقه نقص بسببها.

وهذا هو ما ذكره علماء التفسير عند هذه الآية.

قال القرطبي: «أي: من الغافلين عما عرَّفناكه»[٣]. وقال الشوكاني: «والمعنى أنك من قبل إيحائنا إليك من الغافلين عن هذه القصة»[٤].

د ـ ومن تلك النصوص ما رواه عثمان بن أبي شيبة[٥] بسنده عن جابر بن عبد الله ﵄: «أن النبي ﷺ قد كان يشهد مع المشركين مشاهدهم، فسمع ملكين من خلفه وأحدهما يقول لصاحبه: اذهب بنا حتى نقوم خلفه، فقال الآخر: كيف نقوم خلفه وإنما عهده باستلام

---

(١) انظر: تفسير القرطبي (٢٠/ ٩٧)، وفتح القدير (٥/ ٤٥٨).
(٢) انظر: تفسير القرطبي (٢٠/ ٩٧) بتصرف.
(٣) المصدر السابق (٩/ ١٢٠).
(٤) فتح القدير (٣/ ٤).
(٥) هو: عثمان بن محمد بن أبي شيبة الكوفي العبسي: من حفاظ الحديث، وله من المصنفات: «المسند»، و«التفسير»، ولد سنة (١٥٦هـ)، وتوفي سنة (٢٣٩هـ). تاريخ بغداد (١١/ ٢٨٣).

الأصنام، فلم يعد بعد ذلك يشهد مع المشركين مشاهدهم»[١].

والمنكر من هذا الحديث قوله عن الملك: «عهده باستلام الأصنام»، والجواب عن هذا الحديث ذو شقين هما:

أولاً: الكلام على سند الحديث:

تكلم العلماء على سند الحديث وأوردوا عللاً منها:

١ ـ أن عثمان بن أبي شيبة لم يتابع عليه[٢].

ولكن الذهبي[٣] أجاب عن هذا بقوله: «عثمان لا يحتاج إلى متابع ولا ينكر له أن ينفرد بأحاديث لسعة ما روى، وقد يغلط، وقد اعتمده الشيخان في صحيحيهما...»[٤].

٢ ـ قال الدارقطني[٥]: «يقال: إن عثمان بن أبي شيبة وهم في إسناده، وغيره يرويه عن جرير[٦] عن سفيان بن عبد الله[٧] بن محمد بن

(١) أخرجه ابن عدي في الكامل (٤/ ١٤٤٧)، والخطيب في تاريخ بغداد (١١/ ٢٨٦). وأبو يعلى الموصلي في مسنده، والعقيلي في الضعفاء، وابن الجوزي في العلل المتناهية (١/ ١٦٦)، والبيهقي في دلائل النبوة (٢/ ٣٥)، وأورده الذهبي في الميزان (٣/ ٣٥)، وأورده ابن حجر في لسان الميزان (٣/ ٥٣)، وأورده ابن كثير في التاريخ (٢/ ٢٨٨)، وأورده السيوطي في الخصائص الكبرى (١/ ١٥٢).

(٢) العلل المتناهية لابن الجوزي (١/ ١٦٧).

(٣) محمد بن أحمد بن عثمان الذهبي: حافظ، مؤرخ، علامة محقق، له تصانيف كثيرة تقارب المئة، منها: «سير أعلام النبلاء»، و«تذكرة الحفاظ» وغيرها، ولد سنة (٦٧٣هـ)، وتوفي سنة (٧٤٨هـ). الأعلام (٥/ ٣٢٦).

(٤) ميزان الاعتدال (٣/ ٣٥).

(٥) علي بن عمر الدارقطني الشافعي: إمام عصره في الحديث، ولد سنة (٣٠٦هـ) وتوفي سنة (٣٨٥هـ)، وله كتاب «السنن» و«العلل». الأعلام (٤/ ٣١٤).

(٦) جرير بن عبد الحميد الضبي: نزيل الري وقاضيها ثقة صحيح الكتاب، مات سنة ثمان وثمانين ومائة. تهذيب التهذيب (٢/ ٧٥).

(٧) سفيان بن عبد الله بن زياد بن جدير: مجهول، لسان الميزان (٣/ ٥٣).

زياد بن جدير مرسلاً وهو الصواب»[١].

ومن كلام الدارقطني تتبين لنا علتان:

أ ـ أن الحديث مرسل وليس متصلاً.

ب ـ جعله لسفيان الثوري[٢] مكان سفيان بن عبد الله، وهذا وهم في السند، فسفيان بن عبد الله مجهول، وأما الثوري فهو ثقة[٣].

٣ ـ أن في سند عثمان بن أبي شيبة، عبد الله بن محمد بن عقيل[٤] وهو ضعيف عند القوم[٥]، وبهذا يتبين ضعف إسناد الحديث.

ثانياً: الكلام على متن الحديث:

بالإضافة إلى ضعف هذا الحديث الذي لا تقوم به حجة، فإن ظاهر اللفظ وهو قوله: «إنما عهده باستلام الأصنام» يخالف ما عُرف عن النبي ﷺ من أنه لم يكن على شيء مما كان عليه أهل مكة من الشرك وذلك منذ ولادته إلى أن بعثه الله رسولاً نبياً ليدعوهم إلى عبادة الله وحده لا شريك له وترك ما يعبد من دونه. ولقد سبق إيراد الأدلة على ذلك فليرجع إليها.

وقد ذكر بعض العلماء: أن ظاهر الحديث ليس مراداً، فليس المقصود أنه باشر الاستلام، وإنما المقصود أنه شهد مباشرة المشركين

---

(١) العلل المتناهية (١/ ١٦٧).

(٢) سفيان بن سعيد بن مسروق الثوري، ثقة حافظ فقيه، عابد إمام حجة، مات سنة إحدى وستين ومائة. تهذيب التهذيب (٤/ ١١١).

(٣) لسان الميزان (٣/ ٥٣) بتصرف.

(٤) عبد الله بن محمد بن عقيل بن أبي طالب الهاشمي: كان خيراً فاضلاً موصوفاً بالعبادة، ولكن لم يكن متقناً في الحديث فضعفوه. تهذيب التهذيب (٦/ ١٣ ـ ١٦).

(٥) العلل المتناهية (١/ ١٦٧).

استلام أصنامهم(١).

□ الشق الثاني: عصمته ﷺ من الكفر والشرك بعد النبوة:

بعث الله تعالى نبيه محمداً ﷺ ليدعو الناس إلى عبادة الله وحده وترك ما هم فيه من الكفر والشرك.

ولقد كان ﷺ في تطبيق ما أمر به هو المثل الأعلى الذي يحتذى به. قال تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٦٢﴾ لَا شَرِيكَ لَهُ وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ ﴿١٦٣﴾﴾ [الأنعام].

فهو منزَّه عن كل ضلال وغواية كما أخبر الله بذلك في كتابه العزيز: ﴿مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَى ﴿٢﴾﴾ [النجم]، فهذه شهادة للرسول ﷺ بأنه راشد تابع للحق ليس بضال ولا غاو، بل هو صلوات الله وسلامه عليه في غاية من الاستقامة والاعتدال والسداد والهداية.

وإجماع الأمة منعقد على ذلك، قال الرازي(٢): «واجتمعت الأمة على أن الأنبياء معصومون عن الكفر والبدعة»(٣).

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية: «ففي الجملة كل ما يقدح في نبوتهم وتبليغهم عن الله تعالى فهم متفقون على تنزيههم عنه»(٤).

وقال الآمدي(٥): «فما كان منها كفراً فلا نعرف خلافاً بين أهل

---

(١) ميزان الاعتدال (٣/ ٣٥)، وتاريخ بغداد (١١/ ٢٨٦).

(٢) هو: محمد بن عمر الرازي الملقب بالفخر الرازي، ولد سنة (٥٤٤هـ) وتوفي سنة (٦٠٦هـ). الأعلام (٤/ ٣١٣).

(٣) عصمة الأنبياء (ص١٨).

(٤) منهاج السُّنَّة النبوية (١/ ١٣٠).

(٥) علي بن محمد بن سالم التغلبي، أبو الحسن سيف الدين الآمدي: أصولي باحث، ولد سنة (٥٥١هـ) وتوفي سنة (٦٣١هـ)، من أشهر مؤلفاته: «الإحكام في أصول الأحكام». الأعلام (٤/ ٣٣٢).

الشرائع في عصمتهم عنه»[(١)].

ولم يخالف هذا الإجماع إلا من لا يعتد بخلافهم[(٢)].

والمعلوم من خلال سيرته ﷺ أنه كان حرباً على الكفر والشرك على اختلاف صوره وألوانه، فلم يدع طريقاً أو سبيلاً لهدم الشرك والكفر إلا وقد سلكه مستخدماً في ذلك لسانه وسنانه، وهذا كله يؤكد عصمته ﷺ من الكفر والشرك، وهذا أمر مشتهر وأعظم من أن يحتاج إلى دليل يؤكده.

---

(١) الإحكام في أصول الأحكام (١/ ١٢٨).

(٢) الذين خالفوا في هذه المسألة هم:

أ ـ **الأزارقة**: وهم فرقة من فرق الخوارج، وقد نقل عنهم أنهم قالوا بجواز بعثة نبي علم الله أنه يكفر بعد نبوته. انظر: الإحكام في أصول الأحكام (١/ ١٢٨)، والمواقف للإيجي (٣٥٨، ٣٥٩).

ب ـ **والفضيلية**: وهم من فرق الخوارج، ويقولون بجواز الكفر على الأنبياء من جهة كونهم يعتقدون جواز صدور الذنوب عن الأنبياء، وكل ذنب هو كفر ـ على حسب اعتقادهم ـ فمن هذا الباب جوَّزوا صدور الكفر عنهم. انظر: عصمة الأنبياء للرازي (ص١٨)، والإحكام في أصول الأحكام للآمدي (١/ ١٢٨).

ج ـ **الرافضة**: فقد جوَّزوا على الأنبياء إظهار الكفر على سبيل التقية عند خوف الهلاك، بل نقل عنهم أنهم أوجبوه. ويعلِّلون ذلك بقولهم: إن إظهار الإسلام إن كان مفضياً إلى القتل كان إلقاء للنفس في التهلكة، وإلقاء النفس في التهلكة حرام لقوله تعالى: ﴿وَلَا تُلْقُوا۟ بِأَيْدِيكُمْ إِلَى ٱلتَّهْلُكَةِ﴾ [البقرة: ١٩٥]، وإذا كان إظهار الإسلام حراماً كان إظهار الكفر واجباً. انظر: عصمة الأنبياء للرازي (ص١٨).

د ـ ذكر ابن حزم في كتابه الفِصَل (٤/ ٢): «أنه رأى في كتاب أبي جعفر السمناني قاضي الموصل صاحب الباقلاني أنه كان يقول: كل ذنب دق أو جل فإنه جائز على الرسل، حاشا الكذب في التبليغ فقط، قال: وجائز عليهم أن يكفروا».

ج ـ عصمته من الكذب في غير الوحي والتبليغ:

من المعروف عن سيرته ﷺ قبل البعثة وبعدها أنه متصف بكل خُلق فاضل من صدق وأمانة وبر وصلة رحم وإحسان وجود إلى غير ذلك من محاسن الأخلاق التي جبله الله عليها منذ نشأته، وحري به ﷺ أن يكون كذلك، فقد اختاره الله لحمل الأمانة العظمى التي هي أداء الرسالة وتبليغها إلى الناس كافة، فكان لا بد من إعداده لهذه المهمة، ولذا فقد فطره الله على كل خلق فاضل كريم، وقد جمع الله له خصال الخير كلها، فلم يكن يدعى إلا بالأمين، ومن الأدلة التي يستدل بها على اتصافه بالصدق قبل بعثته **ما يلي**:

١ ـ قول خديجة بنت خويلد[(١)] رضي الله عنها حينما أتاها النبي ﷺ خائفاً بعد أن لقيه جبريل في غار حراء وقال لها: «**إني قد خشيت على نفسي**»، فقالت له: «كلا أبشر، فوالله لا يخزيك الله أبداً، فوالله إنك لتصل الرحم، وتصدق الحديث، وتحمل الكَلّ، وتكسب المعدوم، وتقري الضيف، وتعين على نوائب الحق»[(٢)].

٢ ـ إجماع قريش على الإقرار بصدقه حينما جمعها ليصدع بالدعوة جهراً، فعن ابن عباس رضي الله عنهما قال: «لما نزلت: ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ ﴿٢١٤﴾﴾ [الشعراء]، صعد النبي ﷺ على الصفا فجعل ينادي: «**يا بني فِهر، يا بني عدي**» ـ لبطون قريش ـ حتى اجتمعوا، فجعل الرجل إذا لم يستطع أن

---

(١) خديجة بنت خويلد بن أسد بن عبد العزى بن قصي القرشية الأسدية: زوج النبي ﷺ، وأول من صدَّقت ببعثته مطلقاً، توفيت بعد خروج بني هاشم من الشعب. الإصابة (٤/ ٢٧٣ ـ ٢٧٦).

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب التفسير. انظر: فتح الباري (٨/ ٧١٥) (ح٤٩٥٣).

يخرج أرسل رسولاً لينظر ما هو، فجاء أبو لهب[(١)] وقريش، فقال: «**أرأيتكم لو أخبرتكم أن خيلاً بالوادي تريد أن تغير عليكم أكنتم مصدِّقي**». قالوا: ما جربنا عليك إلا صدقاً.

قال: «**فإني نذير لكم بين يدي عذاب شديد...**»» الحديث[(٢)]

فالشاهد من الحديث قولهم: «ما جربنا عليك إلا صدقاً»، فالنبي ﷺ انتزع منهم هذه الشهادة الجماعية بصدقه وانتفاء الكذب عنه، لعلمه بما قد سيقع من تكذيبهم له عند إخبارهم بأمر الرسالة.

٣ ـ على تكذيب قريش للنبي ﷺ في دعوة النبوة إلا أن أحداً منهم لم يجرؤ على وصفه بالكذب في سواها، فقد قال أبو جهل[(٣)] للنبي ﷺ: إنا لا نكذبك، ولكن نكذب الذي جئت به[(٤)]، فأنزل الله تعالى: ﴿فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَٰكِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ يَجْحَدُونَ ﴿٣٣﴾﴾ [الأنعام].

وكذلك عندما سأل الأخنس بن شريق[(٥)] أبا جهل بعد ما خلا به يوم بدر فقال: «يا أبا الحكم، أخبرني عن محمد أصادق هو أم كاذب؟ فإنه لا يمر ههنا من قريش أحد غيري وغيرك يسمع كلامنا، فقال أبو جهل: ويحك، والله إن محمداً لصادق، وما كذب محمد قط، ولكن

---

(١) اسمه عبد العزى بن عبد المطلب، وكنيته أبو عتبة: وهو أحد أعمام الرسول ﷺ، كان كثير الأذية لرسول الله ﷺ والبغضة له ولدينه. تفسير ابن كثير (٤/ ٥٦٤).

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه كتاب التفسير، باب ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ ﴿٢١٤﴾﴾ [الشعراء]، انظر: فتح الباري (١٨/ ٥٠١) (ح٤٧٧٠)، واللفظ له.

(٣) اسمه عمرو بن هشام: وكان من أشد الناس عداوة للنبي ﷺ قتل يوم بدر. ابن الأثير (١/ ٢٣ ـ ٤٧).

(٤) انظر: تفسير الطبري (٧/ ١٨٢).

(٥) الأخنس بن شريق الثقفي: كان من المؤلفة، وشهد حنيناً، ومات في أول خلافة عمر. الإصابة (١/ ٣٩ ـ ٤٠).

إذا ذهب بنو قصي باللواء والحجابة والسقاية والنبوة، فماذا يكون لسائر قريش؟»[١].

٤ ـ ومما يستدل به كذلك جواب أبي سفيان[٢] لهرقل[٣] عندما سأله عن النبي ﷺ، عندما أرسل إليه في ركب من قريش وكانوا تجاراً بالشام في المدة التي كان رسول الله ﷺ هادن فيها أبا سفيان وكفار قريش، فكان مما سأله عنه: فهل كنتم تتهمونه بالكذب قبل أن يقول ما قال؟ فقال أبو سفيان: لا. فقال هرقل: ما كان ليدع الكذب على الناس ويكذب على الله[٤].

وبعد؛ فهذه نماذج على صدقه ﷺ وعصمته من الكذب قبل بعثته.

وكذا الحال بعد بعثته ﷺ، فهذه أخبار نبينا محمد ﷺ وآثاره وسيره وشمائله معتنى بها مستوفاة تفاصيلها لم يرد في شيء منها تداركه ﷺ لخبر صدر منه رجوعاً عن كذبة كذبها، أو اعترافاً بخلف في خبر أخبر به ولو وقع شيء من ذلك لنقل إلينا.

ومن المعلوم من دين الصحابة وعادتهم مبادرتهم إلى تصديق النبي ﷺ في جميع أقواله والثقة بجميع إخباره في أي باب كانت وعن أي شيء وقعت دون توقف أو تردد في شيء منها أو استثبات عن حاله

---

(١) أخرجه الطبري في تفسيره (٧/ ١٨٢)، وأورده ابن كثير في تفسيره (٢/ ١٣٠).

(٢) اسمه صخر بن حرب بن أمية، أبو سفيان القرشي الأموي: مشهور باسمه وكنيته، أسلم عام الفتح وشهد حنيناً والطائف، وكان من المؤلفة، توفي في آخر خلافة عثمان.
الإصابة (٢/ ١٧٢، ١٧٣).

(٣) هِرَقل: هو ملك الروم، وهرقل اسمه ـ وهو بكسر الهاء وفتح الراء وسكون القاف ـ ولقبه قيصر، كما يلقب ملك الفرس كسرى ونحوه. فتح الباري (١/ ٣٣).

(٤) الحديث أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب بدء الوحي. انظر: فتح الباري (١/ ٣١) (ح٧).

تلك هل وقع فيها سهواً أم لا»[١].

وهذا كله يؤكد عصمته ﷺ من الكذب بأي حال من الأحوال.

قال القاضي عياض: «وأما أقواله الدنيوية من إخباره عن أحواله وأحوال غيره وما يفعله أو فعله، فقد قدمنا أن الخلف فيها ممتنع عليه في كل حال وعلى أي وجه من عمد أو سهو، أو صحة أو مرض، أو رضاً أو غضب وأنه معصوم منه ﷺ.

هذا فيما طريقه الخبر المحض مما يدخله الصدق والكذب، فأما المعاريض الموهم ظاهرها خلاف باطنها فجائز ورودها منه في الأمور الدنيوية لا سيما لقصد المصلحة كتوريته عن وجه مغازيه لئلا يأخذ العدو حذره.

وكما روي من ممازحته ودعابته لبسط أمته وتطييب قلوب المؤمنين من صحابته، وتأكيداً في تحببهم ومسرة نفوسهم، كقوله: «**إني حاملك على ولد الناقة**»[٢]، وقوله للمرأة التي سألته عن زوجها: «**أهو الذي بعينه بياض**»[٣]، وهذا كله صدق لأن كل جمل ابن ناقة، وكل إنسان بعينه بياض، وقد قال ﷺ: «**إني أمزح ولا أقول إلا حقاً**»[٤].

---

(١) الشفا (٢/٧٦٨ ـ ٧٦٩).

(٢) أخرجه أبو داود في السنن، كتاب الأدب، باب ما جاء في المزاح (٥/ ٢٧٠ ـ ٢٧١) (ح٤٩٩٨)؛ وأخرجه الترمذي في السنن، كتاب البر والصلة، باب ما جاء في المزاح (٤/ ٣٥٧) (ح١٩٨٩)، وقال: هذا حديث حسن صحيح غريب.

(٣) عزاه السيوطي إلى ابن أبي الدنيا. انظر: مناهل الصفا (ص٢٣٣) (ح رقم ١٢٧٠).

(٤) أخرجه الإمام أحمد في المسند (٢/ ٣٤٠)؛ وأخرجه الترمذي في السنن، كتاب البر والصلة، باب ما جاء في المزاح (٤/ ٣٥٧) وقال: حديث حسن صحيح؛ وأخرجه الطبراني في الصغير والأوسط والكبير عن ابن عمر كما في المجمع (٨/ ٨٩)، وقال الهيثمي: «وفيه من لم أعرفه»، والطبراني في الأوسط عن =

❐ د ـ عصمته ﷺ من الكبائر التي دون الشرك:

جبل الله نبيه محمداً ﷺ على كل خُلُق فاضل كريم، قال تعالى: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ۝٤﴾ [القلم]، فخَلَّقه بأكرم السجايا، وجميل الأخلاق، وحسن الطوية وصفات الخير جميعها، كما نزهه عن كل ما يحط من قدره ويُنقص من منزلته، قال تعالى: ﴿مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَىٰ ۝٢﴾ [النجم]، فهو ﷺ منزه من كل ضلال وغواية، وقد كان من صيانة الله وحفظه له أن حماه من أقذار الجاهلية قبل مبعثه ونزول الوحي إليه، فهو معصوم عن كل ما يحط من قدره ويدق في شخصه، **ومما ورد في هذا الشأن من الأحاديث ما يلي:**

ـ حديث جابر بن عبد الله رضي الله عنهما: «أن رسول الله ﷺ كان ينقل معهم الحجارة للكعبة وعليه إزاره، فقال له العباس عمه[1]: يا ابن أخي لو حللت إزارك، فجعلته على منكبك دون الحجارة، قال: فحلَّه على منكبه فسقط مغشياً عليه، فما رؤي بعد عرياناً ﷺ»[2].

ـ وعن علي بن أبي طالب رضي الله عنه سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**ما هممت بشيء مما كان أهل الجاهلية يهمُّون به من النساء إلا ليلتين كلتاهما عصمني الله منهما، قلت ليلة لبعض فتيان مكة ونحن في رعاية غنم أهلنا، فقلت لصاحبي: أبصر لي غنمي حتى أدخل مكة فأسمر بها كما يسمر الفتيان، فقال: بلى، فدخلت حتى إذا جئت أول دار مكة**

= أبي هريرة كما في المجمع (٩/ ١٧) وقال الهيثمي: إسناده حسن. وانظر: الشفا (٢/ ٨٧٧، ٨٧٨).

(١) العباس بن عبد المطلب بن هاشم القرشي الهاشمي: عم الرسول ﷺ، ولد قبل الرسول ﷺ بسنتين يقال: إنه أسلم وكتم إسلامه، هاجر إلى المدينة قبل الفتح بقليل، وشهد الفتح وثبت يوم حنين، مات بالمدينة سنة اثنتين وثلاثين. الإصابة (٢/ ٢٦٣).

(٢) تقدم تخريجه (ص١٤٦).

سمعت عزفاً بالغرابيل والمزامير، قلت: ما هذا؟ فقيل: تزوج فلان فلانة، فجلست أنظر وضرب الله على أذني فوالله ما أيقظني إلا مس الشمس، فرجعت إلى صاحبي فقال: ما فعلت؟، قلت: ما فعلت شيئاً، ثم أخبرته بالذي رأيت، ثم قلت له ليلة أخرى: أبصر لي غنمي حتى أسمر بمكة، ففعل فدخلت فلما جئت مكة سمعت مثل الذي سمعت تلك الليلة فجلست أنظر وضرب الله على أذني فوالله ما أيقظني إلا مس الشمس فرجعت إلى صاحبي فقال: ما فعلت؟، قلت: لا شيء ثم أخبرته الخبر، فوالله ما هممت ولا عدت بعدهما لشيء من ذلك حتى أكرمني الله بنبوته»(١).

وعن علي رضي الله عنه قال: قيل للنبي ﷺ: هل عبدت وثناً قط؟، قال: «**لا**».

قالوا: فهل شربت خمراً قط؟

قال: «**لا وما زلت أعرف أن الذي هم عليه كفر، وما كنت أدري ما الكتاب ولا الإيمان**»(٢).

فهذا عن عصمته قبل مبعثه، فما بالك بعد مبعثه والأمر لا يتعلق بنفسه فقط بل يتعداه لغيره بكونه هو القدوة ومعلم الناس وهاديهم ومرشدهم، بل إن كل قول من أقواله وكل فعل من أفعاله يعد تشريعاً تأخذ به أمته إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها، فأمر عصمته ﷺ من

---

(١) أخرجه أبو نعيم في دلائل النبوة (ص١٤٣)، والبيهقي في دلائل النبوة (٢/ ٣٣، ٣٤)، وأورده السيوطي في الخصائص الكبرى (١/ ١٤٩، ١٥٠)، وعزاه لابن راهويه في مسنده وابن اسحاق والبزار والبيهقي وأبي نعيم وابن عساكر وقال: قال ابن حجر: إسناده حسن متصل ورجاله ثقات. وأورده ابن كثير في البداية (٢/ ٢٨٧).

(٢) أورده السيوطي في الخصائص الكبرى (١/ ١٥٠) وعزاه لأبي نعيم وابن عساكر.

الكبائر أمر دلت عليه النصوص من القرآن والسُّنَّة، ويكفي المسلم أن يقرأ في ذلك قوله تعالى: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ۝٤﴾ [القلم]، فهذه تزكية من الله لرسوله ﷺ توجب سلامته من كل ما يحط من منزلته ويقدح في نبوته بما في ذلك الكبائر.

وكذلك قوله ﷺ: «**أما والله إني لأخشاكم لله وأتقاكم له**» الحديث[1]. ومما يندرج تحت هذه الخشية والتقوى، بُعده عن كل ما يُسخط الرب ﷻ، ومن ضمن ما يسخطه ارتكاب الكبائر، فهو ﷺ أبعد الناس عنها لكمال خشيته وتقواه لربه ﷻ، فلقد زكاه الله وطهر نفسه ولم يجعل للشيطان عليه من سبيل، وقد تقدم إيراد الحديث الذي جاء فيه أن جبريل شق قلب النبي ﷺ وهو صغير فاستخرج منه علقة وقال: هذا حظ الشيطان منك[2].

❁ ❁ ❁

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب النكاح، باب الترغيب في النكاح. انظر: فتح الباري (٩/ ١٠٤) (ح٥٠٦٣)؛ وأخرجه مسلم في صحيحه، كتاب النكاح، باب استحباب النكاح لمن تاقت نفسه إليه (٤/ ١٢٨).

(٢) انظر: تخريجه (ص١٤٢).

المطلب الثالث

مسألة وقوع الخطأ منه

تقدم ذكر الأمور التي عُصم فيها ﷺ، وبقي أن نعلم هل يقع الخطأ منه في غير ما تقدم؟، والجواب على هذا: أن القول الذي عليه أكثر علماء الإسلام(١) والذي دلت عليه نصوص القرآن والسُّنَّة أن الخطأ يقع منه ﷺ في غير ما تقدم ذكره، ولكنهم يعتقدون الأمور التالية:

١ ـ أن الله لا يقره على هذا الخطأ الذي وقع منه ﷺ، بل يوجهه الله للحق وقد يحصل له العتاب على ذلك.

٢ ـ أن الخطأ يقع منه ﷺ على سبيل الاجتهاد من غير أن يتعمَّده، ولذلك لا تسمَّى «معصية»، فهذه العبارة تعد إساءة أدب معه ﷺ ولا يصح إطلاقها في حقه ﷺ.

٣ ـ أن ما يقع منه من هذا القبيل ليس مما يقدح في حقه أو ينقص من منزلته وقدره، ولقد سبق بيان الأمور التي عصم فيها ﷺ وتلك الأمور هي التي في حالة وقوعها تقدح في حقه ومنزلته، وقد عصم فيها.

٤ ـ أن التوبة حاصلة منه عن هذا الخطأ، وهذا مما يرفع من قدره ويعلي منزلته(٢)، كما أن الله قد وعده بالمغفرة بقوله تعالى: ﴿لِّيَغْفِرَ لَكَ ٱللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنۢبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ﴾ [الفتح: ٢].

وأما النصوص التي يستدل بها على هذا القول فمنها:

قوله تعالى: ﴿عَبَسَ وَتَوَلَّىٰٓ ۝١ أَن جَآءَهُ ٱلْأَعْمَىٰ ۝٢ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهُۥ

---

(١) مجموع الفتاوى (٤/ ٣١٩).
(٢) المصدر السابق (١٠/ ٢٩٣).

يَزَّكَّىٰ ﴿٣﴾﴾ [عبس]. فهذه الآيات نزلت عتاباً من الله تعالى لنبيه ﷺ[(١)]، فقد ذكر غير واحد من المفسرين أن رسول الله ﷺ كان يوماً يخاطب بعض عظماء قريش وقد طمع في إسلامه، فبينما هو يخاطبه ويناجيه إذ أقبل ابن أم مكتوم[(٢)] وكان ممن أسلم قديماً، فجعل يسأل رسول الله ﷺ من شيء ويلح عليه، وودَّ النبي ﷺ أن لو كف ساعته ليتمكن من مخاطبة ذلك الرجل طمعاً ورغبة في هدايته، وعبس في وجه ابن أم مكتوم وأعرض عنه وأقبل على الآخر، فأنزل الله تعالى: ﴿عَبَسَ وَتَوَلَّىٰٓ ﴿١﴾ أَن جَآءَهُ ٱلْأَعْمَىٰ ﴿٢﴾ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهُۥ يَزَّكَّىٰٓ ﴿٣﴾﴾[(٣)].

وكذلك قوله تعالى: ﴿مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَكُونَ لَهُۥٓ أَسْرَىٰ حَتَّىٰ يُثْخِنَ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ تُرِيدُونَ عَرَضَ ٱلدُّنْيَا وَٱللَّهُ يُرِيدُ ٱلْـَٔاخِرَةَ ۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٦٧﴾ لَّوْلَا كِتَـٰبٌ مِّنَ ٱللَّهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمْ فِيمَآ أَخَذْتُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٦٨﴾﴾ [الأنفال].

وقوله تعالى: ﴿عَفَا ٱللَّهُ عَنكَ لِمَ أَذِنتَ لَهُمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا۟ وَتَعْلَمَ ٱلْكَـٰذِبِينَ ﴿٤٣﴾﴾ [التوبة].

قال قتادة: «ثنتان فعلهما النبي ﷺ ولم يؤمر بهما، إذنه لطائفة من المنافقين في التخلف عنه ولم يكن له أن يمضي شيئاً إلا بوحي، وأخذه من الأسارى الفدية، فعاتبه الله كما تسمعون»[(٤)].

وأما ما يقع من الخطأ منه في جانب الأمور الدنيوية فمن الأدلة على ذلك حديث رافع بن خديج[(٥)] رضي الله عنه قال: «قدم نبي الله ﷺ المدينة

---

(١) تفسير القرطبي (١٩/ ٢١٢).

(٢) ابن أم مكتوم: اختلف في اسمه، فقيل: عمرو، وقيل: عبد الله، وعمرو أكثر، وهو ابن قيس بن زائدة القرشي، أسلم قديماً بمكة، وكان من المهاجرين الأولين، قيل: استشهد بالقادسية وقيل مات بالمدينة. الإصابة (٢/ ٥١٦ ـ ٥١٧).

(٣) تفسير ابن كثير (٤/ ٤٧٠).
(٤) تفسير القرطبي (٨/ ١٥٤، ١٥٥).

(٥) رافع بن خديج بن رافع الأنصاري الأوسي، عرض على النبي ﷺ يوم بدر =

وهم يؤبِّرون النخل، يقولون: يلقحون النخل، فقال: ما تصنعون؟ قالوا: كنا نصنعه. قال: لعلكم لو لم تفعلوا كان خيراً. فتركوه، فنقصت قال: فذكروا ذلك له، فقال: «**إنما أنا بشر، إذا أمرتكم بشيء من دينكم فخذوا به، وإذا أمرتكم بشيء من رأي فإنما أنا بشر**»[(١)].

وفي رواية أنس: «**أنتم أعلم بأمر دنياكم**»[(٢)]، وفي رواية طلحة: «**إن كان ينفعهم ذلك فليصنعوه، فإني إنما ظننت ظناً فلا تؤاخذوني بالظن، ولكن إذا حدَّثتكم عن الله شيئاً فخذوا به فإني لا أكذب على الله** ﷻ»[(٣)]، وكما حكى ابن إسحاق[(٤)] أنه ﷺ لما نزل بأدنى مياه بدر قال له الحباب بن المنذر[(٥)]: أهذا منزل أنزلكه الله ليس لنا أن نتقدمه، أم هو الرأي والحرب والمكيدة؟ قال: «**لا بل هو الرأي والحرب والمكيدة**»، قال: فإنه ليس بمنزل، انهض حتى نأتي أدنى ماء من القوم فننزله ثم نغوِّر ما وراءه من القُلُب، فنشرب ولا يشربون، فقال: «**أشرت بالرأي**»، وفعل ما قاله[(٦)].

= فاستصغره وأجازه يوم أحد فخرج بها وشهد ما بعدها، مات في زمن معاوية. الإصابة (١/ ٤٨٣، ٤٨٤).

(١) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الفضائل، باب وجوب امتثال ما قاله شرعاً دون ما ذكره ﷺ من معايش الدنيا على سبيل الرأي (٧/ ٩٥).

(٢) أخرجه مسلم في صحيحه (٧/ ٩٥).

(٣) أخرجه مسلم في صحيحه (٧/ ٩٥).

(٤) محمد بن إسحاق بن يسار المدني المطلبي: مولاهم، نزيل العراق، إمام المغازي، مات سنة (١٥٠هـ). تهذيب التهذيب (٩/ ٣٨).

(٥) الحباب بن المنذر بن الجموح الأنصاري الخزرجي: شهد بدراً، مات في خلافة عمر. الإصابة (١/ ٣٠٢).

(٦) الشفا للقاضي عياض (٢/ ٨٧١، ٨٧٢) وأخرجه البيهقي في دلائل النبوة (٣/ ٣١ ـ ٣٥)، وعزاه السيوطي في مناهل الصفا (ص٨٠) لابن اسحاق والبيهقي عن عروة والزهري وجماعة.

قال القاضي عياض: «فمثل هذا وأشباهه من أمور الدنيا التي لا مدخل فيها بعلم ديانة ولا اعتقادها ولا تعليمها، يجوز عليه فيه ما ذكرنا[١]، إذ ليس في هذا كله نقيصة ولا محطة، وإنما هي أمور اعتيادية يعرفها من جرَّبها، وجعلها همَّه وشغل نفسه بها، والنبي ﷺ مشحون القلب بمعرفة الربوبية ملآن الجوانح بعلوم الشريعة، مقيد البال بمصالح الأمة الدينية والدنيوية، ولكن هذا[٢] إنما يكون في بعض الأمور، ويجوز في النادر فيما سبيله التدقيق في حراسة الدنيا واستثمارها، لا في الكثير المؤذن بالبله والغفلة»[٣].

وكذلك الأمر بالنسبة لأحكام البشر الجارية على يديه وقضاياهم، ومعرفة المحق من المبطل، وعلم المصلح من المفسد، فهذه أمور اجتهادية يجتهد فيها برأيه، فقد قال ﷺ: «**إنكم تختصمون إلي ولعل بعضكم أن يكون ألحن بحجته من بعض فأقضي له على نحو ما أسمع منه، فمن قطعت له من حق أخيه شيئاً فلا يأخذه فإنما أقطع له به قطعة من النار**»[٤].

قال القاضي عياض: «وتجرى أحكامه ﷺ على الظاهر وموجب غلبات الظن بشهادة الشاهد، ويمين الحالف، ومراعاة الأشبه، ومعرفة العفاص والوكاء مع مقتضى حكمة الله في ذلك»[٥].

فاقتضت حكمته تعالى أن لا يكون معصوماً في هذا الجانب،

---

(١) أي: من وقوع الخطأ. (٢) أي: الخطأ.
(٣) الشفا (٢/ ٨٧٢، ٨٧٣).
(٤) أخرجه البخاري في صحيحه كتاب الشهادات، باب من أقام البينة مع اليمين. انظر: فتح الباري (٥/ ٢٨٨) (ح٢٦٨٠). وأخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الأقضية، باب الحكم بالظاهر واللحن بالحجة، واللفظ له (٥/ ١٢٨، ١٢٩).
(٥) الشفا (٢/ ٨٧٥).

وذلك حتى تقتدي به الأمة من بعده في النظر في القضايا والأحكام على ما كان يقضي به بين الناس؛ لأنه قد استوى في ذلك هو وغيره من الناس.

وكذا الأمور بالنسبة لما يقع عليه من الأسقام والأمراض فهو ﷺ بشر من البشر يقع عليه مثل ما يقع على غيره من البشر.

وهذا هو الحق الذي دلت وأرشدت عليه النصوص الثابتة في القرآن والسُّنَّة. وهذا هو القول الوسط بين أهل الإفراط وأهل التفريط في هذه المسألة. فمن قال بالعصمة المطلقة وهم الرافضة[(١)] وبعض المعتزلة[(٢)] وبعض المتأخرين[(٣)]، فهؤلاء قد خالفوا نصوص القرآن والسُّنَّة وتعسَّفوا في دفعها وتأويلها بتأويلات هي من جنس تأويلات الجهمية[(٤)]

---

(١) الرافضة: عبارة تطلق على الشيعة الغلاة، وهم عدة فرق من أشهرها: الإمامية الاثنا عشرية، ولهم مخالفات كثيرة في الاعتقاد من أشهرها: مسائل الإمامة، والصحابة، والغلو في آل البيت. وأصل تسميتهم بالرافضة مأخوذ من قول زيد بن علي بن الحسين عندما سُئل عن أبي بكر وعمر فترحم عليهما، فرفضه جماعة من أتباعه فقال: رفضتموني، فسموا رافضة.
مقالات الإسلاميين (١/ ٨٨، ٨٩، ١٤٤)، والملل والنحل (١/ ١٧٣ ـ ١٧٤).

(٢) أتباع واصل بن عطاء الذي اعتزل مجلس الحسن البصري، ولهم مخالفات كثيرة في مسائل الاعتقاد، منها: أنهم يقولون بنفي الصفات، والمنزلة بين المنزلتين. ميزان الاعتدال (٣/ ٢٧٤)، والفرق بين الفرق (٢٠، ٢١)، والملل والنحل (١/ ٤٩).

(٣) مجموع الفتاوى (٤/ ٣٢٠).

(٤) الجهمية: فرقة من الفِرَق التي ظهرت في بداية القرن الثاني وانتحلت مذهب الجهم بن صفوان في مسائله المدونة في كتب المقالات، ومن أشهرها نفي الأسماء والصفات، والقول بالجبر، وفناء الجنة والنار. الرد على الزنادقة والجهمية للإمام أحمد (ص٦٥). تاريخ الجهمية والمعتزلة (ص٥٩، ٦٠).

والباطنية[١]، ومن تدبر تلك التأويلات تبين له فسادها، وعرف أنها من باب تحريف الكلم عن مواضعه[٢].

وأما من نفى عنه العصمة من الذنوب وأجاز عليه الإقدام على الكبائر والصغائر وهم: الكرَّامية[٣]، والأزارقة[٤]، والفضيلية[٥]، وغيرهم[٦] فهؤلاء قوم فرطوا في حق النبي ﷺ، فذكروا عنه ما دل القرآن والسُّنَّة على براءته منه، وأضافوا إليه ذنوباً نزَّهه الله منها، فقولهم هذا مخالف للقرآن والسُّنَّة وواضح البطلان.

❁ ❁ ❁

---

(١) عبارة تطلق على عدة فرقٍ من أشهرها: الإسماعيلية، القرامطة، والنُّصيرية، وهم الذين يجعلون لكل ظاهر من الكتاب باطناً، ولكل تنزيل تأويلاً. الملل والنحل (١/ ٤٢٦ ـ ٤٤٧)، والفَرْق بين الفِرَق (ص١٦٩).

(٢) مجموع الفتاوى (١٠/ ٣١١ ـ ٣١٤) بتصرف.

(٣) أتباع محمد بن كرَّام السجستاني المتوفى سنة (٢٥٥هـ)، لهم عدد من المخالفات في مسائل العقيدة، منها: «التشبيه في الصفات»، و«الإرجاء في الإيمان». الملل والنحل (١/ ١٨٠، ١٩٣)، والفَرْق بين الفِرَق (٣٠، ١٣٧).

(٤) إحدى فرق الخوارج، وهم أتباع نافع بن الأزرق، كانت أكثر فرق الخوارج عدداً وأشدهم شوكة. الفَرق بين الفِرَق (ص٨٣).

(٥) من الخوارج، ذكرهم الأشعري في المقالات (ص١١٨).

(٦) الفصل (٤/ ٢)، وعصمة الأنبياء للرازي (ص١٨)، والإحكام في أصول الأحكام للآمدي (١/ ١٢٨).

الفصل الثاني

وجوب طاعة النبي ﷺ
ولزوم سُنَّته والمحافظة عليها

وفيه تمهيد وثلاث مباحث:

المبحث الأول: الأدلة على وجوب طاعته ﷺ.

المبحث الثاني: منهج السلف في اتباعه وطاعته ﷺ.

المبحث الثالث: التحذير من معصية الرسول ﷺ وحكم من خالفه.

تمهيد

«فرض الله على جميع الخلق الإيمان بنبيه ﷺ وطاعته واتباعه، وإيجاب ما أوجبه، وتحريم ما حرَّمه، وشرع ما شرعه. وبه فرَّق الله بين الهدى، والضلال، والرشاد، والغي، والحق، والباطل، والمعروف، والمنكر. وهو الذي شهد الله له بأنه يدعو إليه بإذنه، ويهدي إلى صراط مستقيم، وأنه على صراط مستقيم، قال تعالى في سورة الأحزاب: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِنَّآ أَرۡسَلۡنَٰكَ شَٰهِدٗا وَمُبَشِّرٗا وَنَذِيرٗا ۝٤٥ وَدَاعِيًا إِلَى ٱللَّهِ بِإِذۡنِهِۦ وَسِرَاجٗا مُّنِيرٗا ۝٤٦﴾. وقال تعالى: ﴿وَإِنَّكَ لَتَهۡدِيٓ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ ۝٥٢﴾ [الشورى].

وقال تعالى: ﴿فَٱسۡتَمۡسِكۡ بِٱلَّذِيٓ أُوحِيَ إِلَيۡكَۖ إِنَّكَ عَلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ ۝٤٣﴾ [الزخرف]، وهو الذي جعل الرب طاعته طاعة له في مثل قوله تعالى: ﴿مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدۡ أَطَاعَ ٱللَّهَۖ﴾ [النساء: ٨٠].

وقوله تعالى: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذۡنِ ٱللَّهِۚ﴾ [النساء: ٦٤].

وهو الذي لا سبيل لأحد إلى النجاة إلا بطاعته، ولا يسأل الناس يوم القيامة إلا عن الإيمان به واتباعه وطاعته، وبه يمتحنون في القبور، قال تعالى: ﴿فَلَنَسۡـَٔلَنَّ ٱلَّذِينَ أُرۡسِلَ إِلَيۡهِمۡ وَلَنَسۡـَٔلَنَّ ٱلۡمُرۡسَلِينَ ۝٦﴾ [الأعراف].

وهو الذي أخذ الله له الميثاق على النبيين وأمرهم أن يأخذوا على أممهم الميثاق أنه إذا جاءهم أن يؤمنوا به ويصدقوه وينصروه.

وهو الذي فرق الله به بين أهل الجنة وأهل النار، فمن آمن به وأطاعه كان من أهل الجنة، ومن كذبه وعصاه كان من أهل النار.

قال تعالى: ﴿تِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ ۚ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ يُدْخِلْهُ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ وَذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿١٣﴾ وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَتَعَدَّ حُدُودَهُۥ يُدْخِلْهُ نَارًا خَٰلِدًا فِيهَا وَلَهُۥ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿١٤﴾﴾ [النساء].

والوعد بسعادة الدنيا والآخرة والوعيد بشقاء الدنيا والآخرة معلق بطاعته. فطاعته هي الصراط المستقيم وهي حبل الله المتين، وهي العروة الوثقى، وأصحابها هم أولياء الله المتقون وحزبه المفلحون وجنده الغالبون. والمخالفون له هم أعداء الله حزب إبليس اللعين.

قال تعالى: ﴿وَيَوْمَ يَعَضُّ ٱلظَّالِمُ عَلَىٰ يَدَيْهِ يَقُولُ يَٰلَيْتَنِى ٱتَّخَذْتُ مَعَ ٱلرَّسُولِ سَبِيلًا ﴿٢٧﴾ يَٰوَيْلَتَىٰ لَيْتَنِى لَمْ أَتَّخِذْ فُلَانًا خَلِيلًا ﴿٢٨﴾ لَّقَدْ أَضَلَّنِى عَنِ ٱلذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جَآءَنِى ۗ وَكَانَ ٱلشَّيْطَٰنُ لِلْإِنسَٰنِ خَذُولًا ﴿٢٩﴾﴾ [الفرقان].

وقال تعالى: ﴿يَوْمَ تُقَلَّبُ وُجُوهُهُمْ فِى ٱلنَّارِ يَقُولُونَ يَٰلَيْتَنَآ أَطَعْنَا ٱللَّهَ وَأَطَعْنَا ٱلرَّسُولَا۠ ﴿٦٦﴾ وَقَالُوا۟ رَبَّنَآ إِنَّآ أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَآءَنَا فَأَضَلُّونَا ٱلسَّبِيلَا۠ ﴿٦٧﴾ رَبَّنَآ ءَاتِهِمْ ضِعْفَيْنِ مِنَ ٱلْعَذَابِ وَٱلْعَنْهُمْ لَعْنًا كَبِيرًا ﴿٦٨﴾﴾ [الأحزاب].

وقال تعالى: ﴿قُلْ أَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ ۖ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٣٢﴾﴾ [آل عمران].

وقال تعالى: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا۟ تَسْلِيمًا ﴿٦٥﴾﴾ [النساء].

وقال تعالى: ﴿فَلْيَحْذَرِ ٱلَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِۦٓ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٦٣﴾﴾ [النور].

وقال تعالى: ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَعَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّٰلِحِينَۚ﴾ [النساء: ٦٩].

وجميع الرسل أخبروا أن الله أمر بطاعتهم كما قال تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذْنِ ٱللَّهِۚ﴾ [النساء: ٦٤].

فهم يأمرون بعبادة الله وحده وخشيته وحده وتقواه وحده، ويأمرون بطاعتهم كما قال تعالى: ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَخْشَ ٱللَّهَ وَيَتَّقْهِ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ ﴿٥٢﴾﴾ [النور].

وقال نوح عليه السلام: ﴿أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱتَّقُوهُ وَأَطِيعُونِ ﴿٣﴾﴾ [نوح].

وقال في سورة الشعراء: ﴿فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿٥٠﴾﴾ [الشعراء].

وكذلك قال هود وصالح وشعيب ولوط(١).

والناس محتاجون إلى الإيمان بالرسول وطاعته في كل مكان، وزمان، ليلاً ونهاراً، سفراً وحضراً، سراً وعلانية، جماعة وفرادى، وهم أحوج إلى ذلك من الطعام والشراب بل من النَّفَس، فإنهم متى فقدوا ذلك فالنار جزاء من كذب بالرسول وتولى عن طاعته، كما قال تعالى: ﴿فَأَنذَرْتُكُمْ نَارًا تَلَظَّىٰ ﴿١٤﴾ لَا يَصْلَىٰهَآ إِلَّا ٱلْأَشْقَى ﴿١٥﴾ ٱلَّذِى كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ ﴿١٦﴾﴾ [الليل]؛ أي: كذب به وتولى عن طاعته، كما قال في موضع آخر: ﴿فَلَا صَدَّقَ وَلَا صَلَّىٰ ﴿٣١﴾ وَلَٰكِن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ ﴿٣٢﴾﴾ [القيامة]. وقال تعالى: ﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَآ إِلَيْكُمْ رَسُولًا شَٰهِدًا عَلَيْكُمْ كَمَآ أَرْسَلْنَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ رَسُولًا ﴿١٥﴾ فَعَصَىٰ فِرْعَوْنُ ٱلرَّسُولَ فَأَخَذْنَٰهُ أَخْذًا وَبِيلًا ﴿١٦﴾﴾ [المزمل]. وقال تعالى: ﴿فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍۭ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ شَهِيدًا ﴿٤١﴾﴾ [النساء]. وقال تعالى: ﴿يَوْمَئِذٍ يَوَدُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَعَصَوُا۟ ٱلرَّسُولَ لَوْ تُسَوَّىٰ بِهِمُ ٱلْأَرْضُ﴾ [النساء: ٤٢].

والله تعالى قد سمَّاه سراجاً منيراً، وسمَّى الشمس سراجاً وهاجاً،

(١) انظر: الآيات (١٢٦، ١٣١، ١٤٤، ١٥٠، ١٦٣، ١٧٩) من سورة الشعراء.

والناس إلى هذا السراج المنير أحوج منهم إلى السراج الوهاج، فإنهم محتاجون إليه سراً وعلانية، ليلاً ونهاراً، بخلاف الوهاج، وهو أنفع لهم فإنه منير ليس فيه أذى بخلاف الوهاج فإنه ينفع تارة ويضر أخرى(١).

ولما كانت حاجة الناس إلى الرسول بهذه الدرجة، فقد أوجب الله ﷻ على العباد طاعة الرسل واتباعهم، فقال تعالى: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذۡنِ ٱللَّهِۚ﴾ [النساء: ٦٤]، فهذا الإلزام ناشئ من ضرورة العباد وحاجتهم للرسالة إذ لا بد لهم منها، بل إن حاجتهم إليها فوق حاجتهم إلى كل شيء، «فالرسالة ضرورية في إصلاح العباد في معاشهم ومعادهم، فكما أنه لا صلاح لهم في آخرتهم إلا باتباع الرسالة، فكذلك لا صلاح لهم في معاشهم ودنياهم إلا باتباع الرسالة.

والإنسان مضطر إلى الشرع لأنه بين حركتين: حراسة يجلب بها ما ينفعه، وحركة يدفع بها ما يضره.

والشرع هو النور الذي يبين ما ينفعه وما يضره، والشرع نور الله في أرضه، وعدله بين عباده، وحصنه الذي من دخله كان آمناً.

وليس المراد بالشرع التمييز بين الضار والنافع بالحس، فإن ذلك يحصل للحيوانات العُجم، فإن الحمار والجمل يميز بين الشعير والتراب، وإنما المراد بالشرع التمييز بين الأفعال التي تنفع فاعلها والأفعال التي تضر فاعلها في معاشه ومعاده؛ كنفع الإيمان والتوحيد، والعدل والبر، والتصدق والإحسان، والأمانة والعفة، والشجاعة والحِلم، والصبر، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وصلة الأرحام، وبر الوالدين، والإحسان إلى المماليك والجار، وأداء الحقوق وإخلاص العمل لله والتوكل عليه، والاستعانة به والرضا بمواقع القدر به، والتسليم

(١) الرد على الأخنائي (ص١٨٠ ـ ١٨٣).

لحكمه والانقياد لأمره، وموالاة أوليائه ومعاداة أعدائه، وخشيته في الغيب والشهادة، والتقوى إليه بأداء فرائضه واجتناب محارمه، واحتساب الثواب عنده، وتصديقه وتصديق رسله في كل ما أخبروا به، وطاعتهم في كل ما أمروا به، مما هو نفع وصلاح للعبد في دنياه وآخرته، وفي ضد ذلك شقاوته ومضرته في دنياه وآخرته.

فلولا الرسالة لم يهتد العقل إلى تفاصيل النافع والضار في المعاش والمعاد، فمن أعظم نعم الله على عباده وأشرف منة عليهم أن أرسل إليهم رسله، وأنزل عليهم كتبه، ودوَّن لهم الصراط المستقيم، ولولا ذلك لكانوا بمنزلة البهائم بل أشر حالاً منها.

فمن قبل رسالة الله واستقام عليها فهو من خير البرية، ومن ردها وخرج عنها فهو من شر البرية، وأسْوَأُ حالاً من الكلب والخنزير والحيوان البهيم»(١). والرسل هم وسائط بين الله وبين خلقه في أمره ونهيه، وهم السفراء بينه وبين عباده، يبلغونهم شرع ربهم ويرشدونهم إلى ما فيه صلاح معاشهم ومعادهم، وقد جعلهم الله: ﴿رُّسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةُۢ بَعۡدَ ٱلرُّسُلِۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴿١٦٥﴾﴾ [النساء].

وقد بعث الرسل جميعاً بأصول ثلاثة هي:

١ ـ الدعوة الى الله.

٢ ـ إرشاد العباد وتعريفهم بالطريق الموصل إلى الله.

٣ ـ بيان حال العباد في معادهم.

فالأصل الأول: يتضمن إثبات الصفات والتوحيد والقدر، وذكر أيام الله في أوليائه وأعدائه وهي القصص التي قصَّها الله على عباده والأمثال التي ضربها لهم.

---

(١) مجموع الفتاوى (١٩/ ٩٩، ١٠٠) بتصرف.

والأصل الثاني: يتضمن تفصيل الشرائع والأمر والنهي والإباحة، وبيان ما يحبه الله ويكرهه.

والأصل الثالث: يتضمَّن الإيمان باليوم الآخر، والجنة والنار والثواب والعقاب. فعلى هذه الأصول الثلاثة مدار الخلق والأمر؛ بل السعادة والفلاح موقوفة عليها، ولا سبيل إلى معرفتها إلا من جهة الرسل، فإن العقل لا يهتدي إلى تفاصيلها ومعرفة حقائقها، وإن كان قد يدرك وجه الضرورة إليها من حيث الجملة(١).

ومن أجل ذلك فإن الله خصَّ بالفلاح من اتبع رسوله ونصره، فقال تعالى: ﴿فَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِهِۦ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَٱتَّبَعُوا۟ ٱلنُّورَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ مَعَهُۥٓ ۙ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿١٥٧﴾﴾ [الأعراف]؛ أي: لا مفلح إلا هم، كما قال تعالى: ﴿وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى ٱلْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ۚ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿١٠٤﴾﴾ [آل عمران]، فخص هؤلاء بالفلاح كما خص المتقين الذين يؤمنون بالغيب ويقيمون الصلاة وينفقون مما رزقهم ويؤمنون بما أنزل إلى رسوله وما أنزل من قبله ويوقنون بالآخرة بالهدى والفلاح قال تعالى: ﴿الٓمٓ ﴿١﴾ ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ لَا رَيْبَ ۛ فِيهِ ۛ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٢﴾ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱلْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٣﴾ وَٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ وَبِٱلْءَاخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ﴿٤﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٥﴾﴾ [البقرة]، فعلم بذلك أن الهدى والفلاح دائر على الرسالة وجوداً وعدماً.

كما جعل الله سعادة العباد ونجاتهم في يوم المعاد متعلقة بطاعته وطاعة رسوله، وجعل شقاءهم وهلاكهم متعلقاً بمعصيته ومعصية رسوله، قال تعالى: ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ يُدْخِلْهُ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ وَذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿١٣﴾ وَمَن

(١) مجموع الفتاوى (١٩/ ٩٦) بتصرف.

يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَتَعَدَّ حُدُودَهُۥ يُدْخِلْهُ نَارًا خَٰلِدًا فِيهَا وَلَهُۥ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿١٤﴾ [النساء].

وخاتم المرسلين وسيدهم وأكرمهم على ربه ـ نبينا محمد ﷺ ـ الذي جعله الله رحمة للعالمين: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿١٠٧﴾﴾ [الأنبياء]، وأرسله بالهدى ودين الحق بين يدي الساعة بشيراً ونذيراً وداعياً إلى الله بإذنه وسراجاً منيراً، فختم به الرسالة وهدى به من الضلالة، وعلَّم به من الجهالة، وفتح برسالته أعيناً عمياً، وآذاناً صماً، وقلوباً غلفاً، فأشرقت برسالته الأرض بعد ظلماتها، وتألفت به القلوب بعد شتاتها، فأقام بها الملة العوجاء وأوضح بها المحجة البيضاء، فبيَّن عن طريقه ﷺ الكفر من الإيمان، والربح من الخسران، والهدى من الضلال، وأهل الجنة من أهل النار، والمتقين من الفجار، فهو المبعوث رحمة للعالمين، ومحجة للسالكين وحجة على الخلائق أجمعين.

وقد أوجب الله وافترض على العباد طاعته ومحبته وتعزيره وتوقيره والقيام بحقوقه، وأوصاه باتباع شرعه ونهجه والسير على هداه، وجعل طريقه هي الطريق الوحيد الموصلة إليه، وسد باقي الطرق فلم يفتح لأحد طريقاً غير طريقه، وسمَّى تلك الطرق سبلاً تضل عن سبيله، فقال تعالى: ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِى مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ ۚ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٥٣﴾﴾ [الأنعام].

ولذلك فإن الخير كل الخير في اتباعه والاقتداء به، والشر كل الشر في مخالفته والبعد عن شرعه وما جاء به.

والأدلة على وجوب طاعته ﷺ ولزوم سُنَّته واتباع شريعته كثيرة، وهذا ما سأتطرق إليه في هذا الفصل باذن الله تعالى، والله الموفق وهو الهادي إلى سواء السبيل.

❁ ❁ ❁

المبحث الأول

الأدلة على وجوب طاعته ﷺ

وفيه ثلاثة مطالب:

المطلب الأول: الأدلة من القرآن على وجوب طاعته ﷺ.

المطلب الثاني: الأدلة من السُّنَّة على وجوب طاعته ﷺ

المطلب الثالث: دليل الإجماع على وجوب طاعته.

المطلب الأول

الأدلة من القرآن على وجوب طاعته ﷺ

قال الإمام أحمد بن حنبل رحمه الله تعالى: «نظرت في المصحف فوجدت طاعة الرسول ﷺ في ثلاثة وثلاثين موضعاً»[١].

وقال الآجري[٢]: «فرض على الخلق طاعته ﷺ في نيف وثلاثين موضعاً من كتابه ﷻ»[٣].

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية: «وقد أمر الله بطاعة رسوله ﷺ في أكثر من ثلاثين موضعاً من القرآن، وقرن طاعته بطاعته، وقرن بين مخالفته ومخالفته، كما قرن بين اسمه واسمه، فلا يذكر الله إلا ذكر معه»[٤].

قلت: إن الآيات الواردة في الأمر بطاعة النبي ﷺ واتباعه والاقتداء به جاءت في مواطن متعددة من القرآن الكريم. واتصفت تلك الآيات بتنوع أساليبها وتعدد صيغها مع اتحادها جميعها في الأمر بالاقتداء بالنبي ﷺ وطاعته في جميع ما جاء به من شرائع وأحكام من عند الله ﷻ، وسوف أعرض لهذه الآيات بعد تقسيمها على حسب ما اتحدت به في السياق على النحو التالي:

---

(١) الصارم المسلول، لشيخ الإسلام ابن تيمية (ص٥٦).
(٢) محمد بن الحسين بن عبد الله أبو بكر الآجري: فقيه شافعي، محدث، توفي سنة (٣٦٠هـ) بمكة، وله مصنفات كثيرة منها: «كتاب الشريعة». الأعلام (٦/ ٩٧).
(٣) الشريعة (ص٤٩).
(٤) مجموع الفتاوى (١٩/ ١٠٣).

أ ـ الآيات التي جاء فيها الأمر بطاعته ﷺ:

ومن تلك الآيات قوله تعالى: ﴿مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ ٱللَّهَ﴾ [النساء: ٨٠].

وهذه الآية ضمن سلسلة من الآيات ربطت بين طاعة الله تبارك وتعالى وطاعة رسوله ﷺ، فقد جعل الله طاعته وطاعة رسوله شيئاً واحداً، وجعل الأمر بطاعة رسوله مندرجاً في الأمر بطاعته سبحانه، وفي ذلك بيان للعباد بأن طاعته سبحانه لا تتحقق إلا بطاعة الرسول ﷺ.

ومن تلك الآيات الواردة بهذه الصيغة:

١ ـ قوله تعالى: ﴿قُلْ أَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ ۖ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٣٢﴾﴾ [آل عمران].

٢ ـ وقوله تعالى: ﴿وَأَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿١٣٢﴾﴾ [آل عمران].

٣ ـ وقوله تعالى: ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ يُدْخِلْهُ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ وَذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿١٣﴾﴾ [النساء].

٤ ـ وقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَا تَوَلَّوْا۟ عَنْهُ وَأَنتُمْ تَسْمَعُونَ ﴿٢٠﴾﴾ [الأنفال].

٥ ـ وقوله تعالى: ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَخْشَ ٱللَّهَ وَيَتَّقْهِ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ ﴿٥٢﴾﴾ [النور].

٦ ـ وقوله تعالى: ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا ﴿٧١﴾﴾ [الأحزاب].

٧ ـ وقوله تعالى: ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ يُدْخِلْهُ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ۖ وَمَن يَتَوَلَّ يُعَذِّبْهُ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٧﴾﴾ [الفتح].

وفي آيات أُخر يأمر الله سبحانه بطاعته وطاعة رسوله ﷺ مع إعادة الفعل، وفي ذلك إشارة إلى أن ما يأمر به رسول الله ﷺ تجب طاعته فيه

وإن لم يكن مأموراً به بعينه في كلام الله الذي هو القرآن، فتجب طاعة الرسول مفردة كما تجب مقرونة بأمره سبحانه، ومن هذه الآيات:

١ ـ قوله تعالى: ﴿وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَاحْذَرُوا فَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَاعْلَمُوا أَنَّمَا عَلَىٰ رَسُولِنَا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ ﴿٩٢﴾﴾ [المائدة].

٢ ـ وقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَلَا تُبْطِلُوا أَعْمَالَكُمْ ﴿٣٣﴾﴾ [محمد].

٣ ـ وقوله تعالى: ﴿قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ ۖ فَإِن تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْهِ مَا حُمِّلَ وَعَلَيْكُم مَّا حُمِّلْتُمْ ۖ وَإِن تُطِيعُوهُ تَهْتَدُوا ۚ وَمَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ ﴿٥٤﴾﴾ [النور].

٤ ـ وقوله تعالى: ﴿وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ ۚ فَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَإِنَّمَا عَلَىٰ رَسُولِنَا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ ﴿١٢﴾﴾ [التغابن].

وقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنكُمْ ۖ﴾ [النساء: ٥٩].

ويقول ابن القيم(١) عند هذه الآية: «أمر تعالى بطاعته وطاعة رسوله وأعاد الفعل إعلاماً بأن طاعة الرسول تجب استقلالاً من غير عرض ما أمر به على الكتاب، بل إذا أمر وجبت طاعته مطلقاً سواء كان ما أمر به في الكتاب أو لم يكن فيه، فإنه أوتي الكتاب ومثله معه(٢). ولم يأمر بطاعة أولي الأمر استقلالاً بل حذف الفعل وجعل طاعتهم في

---

(١) محمد بن أبي بكر بن أيوب الزرعي ثم الدمشقي المشهور بابن القيم: ولد سنة إحدى وتسعين وستمائة، تفنن في علوم الإسلام، لازم شيخ الإسلام ابن تيمية، وله مؤلفات كثيرة في الدفاع عن العقيدة والسُّنَّة، توفي سنة إحدى وخمسين وسبعمائة. طبقات المفسرين للداودي (٢/ ٩٣، ٩٧).

(٢) كما جاء في قوله ﷺ: «**ألا إني أوتيت الكتاب ومثله معه**...» الحديث. أخرجه أبو داود في سننه، كتاب السُّنَّة، باب في لزوم السُّنَّة (٥/ ١٠) (ح٤٤٦٠).

ضمن طاعة الرسول، إيذاناً بأنهم إنما يطاعون تبعاً لطاعة الرسول، فمن أمر منهم بطاعة الرسول وجبت طاعته، ومن أمر منهم بخلاف ما جاء به الرسول فلا سمع له ولا طاعة، كما صح عنه ﷺ أنه قال: «**لا طاعة في معصية الله إنما الطاعة في المعروف**»(١)، وقال: «**إنما الطاعة في المعروف**»(٢)، وقال: «**على المرء المسلم السمع والطاعة فيما أحب وكره إلا أن يؤمر بمعصية، فإن أُمر بمعصية فلا سمع ولا طاعة**»(٣).

وقد أخبر ﷺ عن الذين أرادوا دخول النار لما أمرهم أميرهم بدخولها: «**إنهم لو دخلوها لما خرجوا منها**» مع أنهم إنما كانوا يدخلونها طاعة لأميرهم، وظناً أن ذلك واجب عليهم، ولكن لما قصروا في الاجتهاد وبادروا إلى طاعة من أمر بمعصية الله وحملوا عموم الأمر بالطاعة بما لم يرده الأمر ﷺ وما قد علم من دينه إرادة خلافه، فقصروا في الاجتهاد وأقدموا على تعذيب أنفسهم وإهلاكها من غير تثبيت وتبين هل ذلك طاعة لله ورسوله أم لا؟، فما الظن بمن أطاع غيره في صريح مخالفة ما بعث الله به رسوله»(٤).

---

(١) أخرجه مسلم في صحيحه كتاب الإمارة، باب وجوب طاعة الأمراء في غير معصية وتحريمها في المعصية (٦/ ١٥).

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب أخبار الآحاد، باب ما جاء في إجازة خبر الواحد. انظر: فتح الباري (١٣/ ٢٣٣) (ح٧٢٥٧)، ومسلم في صحيحه، كتاب الإمارة، باب وجوب طاعة الأمراء في غير معصية وتحريمها في المعصية. انظر: (٦/ ١٥).

(٣) أخرجه بهذا اللفظ مسلم في صحيحه، كتاب الإمارة، باب وجوب طاعة الأمراء في غير معصية وتحريمها في المعصية (٦/ ١٢)؛ وأخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الأحكام، باب السمع والطاعة للإمام ما لم تكن معصية. فتح الباري (١٣/ ١٢١، ١٢٢) (ح٧١٤٤).

(٤) إعلام الموقعين (١/ ٤٨، ٤٩).

وأما قوله تعالى: ﴿قُلْ أَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُوا۟ ٱلرَّسُولَ ۖ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَإِنَّمَا عَلَيْهِ مَا حُمِّلَ وَعَلَيْكُم مَّا حُمِّلْتُمْ ۖ وَإِن تُطِيعُوهُ تَهْتَدُوا۟ ۚ وَمَا عَلَى ٱلرَّسُولِ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ ﴿٥٤﴾﴾ [النور]، فقد أخبر تعالى في هذه الآية أن الهداية في طاعة الرسول ﷺ لا في غيرها، فإنه معلق بالشرط فينتفي بانتفائه، وليس هذا من باب دلالة المفهوم، كما يغلط فيه كثير من الناس ويظن أنه محتاج في تقرير الدلالة منه لا تقرير كون المفهوم حجة.

بل هذا من الأحكام التي ترتبت على شروط وعلقت فلا وجود لها بدون شروطها، إذ ما علق على الشرط فهو عدم عند عدمه، وإلا لم يكن شرطاً له وإذا ثبت هذا: فالآية نص في انتفاء الهداية عند عدم طاعته، وقوله: ﴿فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَإِنَّمَا عَلَيْهِ مَا حُمِّلَ﴾ الفعل للمخاطبين وأصله فإن تتولوا، فحذفت إحدى التائين تخفيفاً، والمعنى: أنه قد حمل أداء الرسالة وتبليغها، وحملتم طاعته والانقياد له والتسليم.

روي عن الزهري[1] أنه قال: «من الله البيان وعلى الرسول البلاغ وعلينا التسليم».

فإن تركتم أنتم ما حملتم من الإيمان والطاعة فعليكم لا عليه. فإنه لم يحمل إيمانكم وإنما حمل تبليغكم، وإنما حمل أداء الرسالة إليكم.

﴿وَإِن تُطِيعُوهُ تَهْتَدُوا۟ ۚ وَمَا عَلَى ٱلرَّسُولِ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ ﴿٥٤﴾﴾ ليس عليه هداهم وتوفيقهم»[2].

---

(١) محمد بن مسلم بن عبيد الله بن عبد الله بن شهاب الزهري: الفقيه الحافظ متفق على جلالته وإتقانه، مات سنة (١٢٥هـ)، وقيل قبل ذلك. تذكرة الحفاظ (١/ ١٠٢).

(٢) الرسالة التبوكية (ص٣٧، ٣٨).

ب ـ الآيات التي جاء فيها الأمر باتباعه والتأسي به والأخذ بما شرعه:

جاء الأمر من الله تبارك وتعالى باتباع رسوله ﷺ والتأسي به في مواطن متعددة من كتابه العزيز.

١ ـ قال تعالى: ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣١﴾﴾ [آل عمران].

٢ ـ وقال تعالى: ﴿فَـَٔامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِ ٱلنَّبِىِّ ٱلْأُمِّىِّ ٱلَّذِى يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَكَلِمَـٰتِهِۦ وَٱتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٥٨﴾﴾ [الأعراف].

٣ ـ وقال تعالى: ﴿وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا۟﴾ [الحشر: ٧].

٤ ـ وقال تعالى: ﴿لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِى رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْـَٔاخِرَ وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرًا ﴿٢١﴾﴾ [الأحزاب].

وهذه الآيات تضمَّنت توجيهات عظيمة يجب على المسلم تدبرها، ففي الآية الأولى جعل الله الاتباع سبيلاً إلى نيل حبه ووسيلة إلى تحقيق رضاه وحصول غفرانه، إذ باتباع الرسول ﷺ يحصل حب الله تعالى ورضاه ومثوبته، فالخير كل الخير في اتباعه والشر كل الشر في مخالفته والابتعاد عن سُنَّته.

فالاتباع هو دليل المحبة وبرهانها، وبتحققه تكون المحبة التي هي إحدى ثمراته كما قال تعالى: ﴿فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ﴾، كما أن من ثمراته غفران الذنوب كما جاء في هذه الآية نفسها: ﴿وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ﴾.

وهذه المنزلة والمكانة لاتباع الرسول ﷺ نابعة من كون هذا الاتباع إنما هو في الحقيقة اتباع لله، إذ الرسول إنما جاء بهذا الدين من عند الله ﷻ، فهو شرع الله ودينه الذي أوحاه لرسوله ﷺ ليبلغه للعباد،

فالرسول إنما هو مبلِّغ عن الله ولم يأت بشيء من عند نفسه، قال تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰٓ إِلَيَّ﴾ الآية [الكهف: ١١٠]، وقال تعالى: ﴿ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِۦ﴾ الآية [البقرة: ٢٨٥].

وفي الآية الأخرى وهي قوله تعالى: ﴿فَـَٔامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِ ٱلنَّبِيِّ ٱلْأُمِّيِّ ٱلَّذِى يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَكَلِمَـٰتِهِۦ وَٱتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٥٨﴾﴾ [الأعراف]، جاء الأمر بالاتباع عقب الأمر بالإيمان تأكيداً على وجوب اتباع النبي ﷺ، وإلا فإن الاتباع داخل في الإيمان، ولكن أفرد بالذكر هنا تنبيهاً على أهميته وعظم منزلته.

وأما قوله تعالى: ﴿وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُواْ﴾ [الحشر: ٧]، فهذه الآية أوجبت الاتباع المطلق للنبي ﷺ، فما أمر به من شيء فإن علينا فعله، وما نهى عن شيء فإن علينا تركه واجتنابه، فهو لا يأمر إلا بخير ولا ينهى إلا عن شر.

وفي هذا الاتباع والانقياد حياتنا وفلاحنا، كما قال تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱسْتَجِيبُواْ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ ۖ وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ ٱلْمَرْءِ وَقَلْبِهِۦ وَأَنَّهُۥٓ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٢٤﴾﴾ [الأنفال].

فهنا أمر من الله تعالى للمؤمنين جميعاً بأن يستجيبوا للرسول ﷺ فيما أمرهم به ونهاهم عنه، ففي ذلك الحياة النافعة الطيبة، وهذه الحياة إنما تحصل بالاستجابة لما جاء به الرسول أمراً ونهياً، وأما من لم تحصل منه الاستجابة فلا حياة له، وإن كانت له حياة بهيمية مشتركة بينه وبين أرذل الحيوانات، «إذ الحياة الحقيقية الطيبة هي حياة من استجاب لله ولرسوله ظاهراً وباطناً، فهؤلاء هم الأحياء وإن ماتوا، وغيرهم أموات وإن كانوا أحياء الأبدان، ولهذا كان أكمل الناس حياة أكملهم استجابة لدعوة الرسول ﷺ، فإن كل ما دعا إليه ففيه الحياة، فمن فاته جزء منه فاته جزء من الحياة، وفيه من الحياة

بحسب ما استجاب للرسول»[(١)].

ولقد أعقب هذا الأمر بالاستجابة تحذير من ترك الاستجابة له أو تثاقل وتباطؤ عنها، فقال تعالى: ﴿وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يَحُولُ بَيۡنَ ٱلۡمَرۡءِ وَقَلۡبِهِۦ﴾ [الأنفال: ٢٤] والمعنى: «أنكم إن تثاقلتم عن الاستجابة وأبطأتم عنها فلا تأمنوا أن الله يحول بينكم وبين قلوبكم فلا يمكنكم بعد ذلك من الاستجابة عقوبة لكم بعد وضوح الحق واستبانته»[(٢)].

وأما قوله تعالى: ﴿لَّقَدۡ كَانَ لَكُمۡ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسۡوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرۡجُواْ ٱللَّهَ وَٱلۡيَوۡمَ ٱلۡأٓخِرَ وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرًا ﴿٢١﴾﴾ [الأحزاب]، فقد جعل الله تبارك وتعالى من رسوله الأسوة والقدوة ليحتذي به الخلق في أقواله وأفعاله وجميع ما جاء به ﷺ. قال ابن كثير: «هذه الآية الكريمة أصل كبير في التأسي برسول الله ﷺ في أقواله وأفعاله وأحواله...»[(٣)].

❐ ج ـ الآيات التي جاء فيها وجوب التسليم لحكمه والانقياد له:

قال تعالى: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤۡمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيۡنَهُمۡ ثُمَّ لَا يَجِدُواْ فِيٓ أَنفُسِهِمۡ حَرَجٗا مِّمَّا قَضَيۡتَ وَيُسَلِّمُواْ تَسۡلِيمٗا ﴿٦٥﴾﴾ [النساء].

وفي هذه الآية أقسم سبحانه بأجل مقسم به ـ وهو نفسه ﷻ ـ على أنه لا يثبت لهم إيمان ولا يكونون من أهله، حتى يحكموا رسول الله ﷺ في جميع موارد النزاع وفي جميع أبواب الدين، فإن لفظة «ما» من صيغ العموم. ولم يقتصر الأمر على مجرد التحاكم بل ضم إليه انشراح صدورهم بحكمه بحيث لا يجدون في أنفسهم حرجاً ـ وهو الضيق والحصر ـ من حكمه، بل يقبلوا حكمه بالانشراح، ويقابلوه بالتسليم

---

(١) الفوائد لابن القيم (ص٨٨) بتصرف.
(٢) المصدر السابق (ص٩٥).
(٣) تفسير ابن كثير (٣/ ٤٧٤).

لا أنهم يأخذونه على إغماض، ويشربونه على قذى، فإن هذا مناف للإيمان، بل لا بد أن يكون أخذه بقبول ورضا وانشراح صدر.

ثم لم يقتصر سبحانه على ذلك حتى ضم إليه قوله تعالى: ﴿وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا ﴿٦٥﴾﴾ فذكر الفعل مؤكداً بمصدره القائم ذكره مرتين، وهو التسليم والخضوع له والانقياد لما حكم به طوعاً ورضاً، وتسليماً لا قهراً ومصابرة كما يسلم المقهور لمن قهره كرهاً، بل تسليم عبد مطيع لمولاه وسيده الذي هو أحب شيء إليه، يعلم أن سعادته وفلاحه في تسليمه إليه ويعلم بأنه أولى به من نفسه، وأبر به منها وأقدر على تخليصها، كما قال تعالى: ﴿النَّبِيُّ أَوْلَى بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ وَأَزْوَاجُهُ أُمَّهَاتُهُمْ﴾ [الأحزاب: ٦].

فمتى علم العبد هذا من الرسول ﷺ واستسلم له، وسلم إليه انقادت له كل علة في قلبه ورأى أن لا سعادة له إلا بهذا التسليم والانقياد.

وتأمل تأكيده سبحانه لهذا المعنى المذكور في الآية بوجوه عديدة من التأكيد:

أولها: تصديرها بتضمُّن المقسم عليه للنفي وهو قوله: ﴿لَا يُؤْمِنُونَ﴾ [النساء: ٦٥]، وهذا منهج معروف في كلام العرب، إذا أقسموا على شيء منفي صدَّروا جملة القسم بأداة نفي مثل هذه الآية.

وثانيها: تأكيده بنفس المقسم.

وثالثها: تأكيده بالمقسم به وهو إقسامه بنفسه لا بشيء من مخلوقاته، وهو سبحانه يقسم بنفسه تارة وبمخلوقاته تارة.

ورابعها: تأكيده بانتفاء الحرج وهو وجود التسليم.

وخامسها: تأكيد الفعل بالمصدر، وما هذا التأكيد إلا لشدة الحاجة إلى هذا الأمر العظيم، وإنه مما يعتنى به ويقرر في نفوس العباد بما هو

من أبلغ أنواع التقرير(١).

وقال ابن كثير عند تفسيره لهذه الآية: «يقسم تعالى بنفسه الكريمة المقدسة أنه لا يؤمن أحد حتى يحكِّم الرسول ﷺ في جميع الأمور فما حكم به فهو الحق الذي يجب الانقياد له باطناً وظاهراً، ولهذا قال: ﴿ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا ﴿٦٥﴾﴾ [النساء]؛ أي: إذا حكموك يطيعونك في بواطنهم فلا يجدون في أنفسهم حرجاً مما حكمت به وينقادون له في الظاهر والباطن، فيسلمون لك تسليماً كلياً من غير ممانعة ولا مدافعة ولا منازعة...»(٢).

وهذه الآية ينبغي لكل مسلم أن يعرض نفسه عليها.

وفي هذا يقول ابن القيم: «ومتى أراد العبد أن يعلم هذا(٣)، فلينظر في حاله ويطالع قلبه عند ورود حكمه على خلاف هواه وغرضه، أو على خلاف ما قلد فيه أسلافه من المسائل الكبار وما دونها: ﴿بَلِ الْإِنسَانُ عَلَىٰ نَفْسِهِ بَصِيرَةٌ ﴿١٤﴾ وَلَوْ أَلْقَىٰ مَعَاذِيرَهُ ﴿١٥﴾﴾ [القيامة].

فسبحان الله كم من حزازة في نفوس كثير من الناس من كثير من النصوص بودهم أن لو لم ترد؟ وكم من حرارة في أكبادهم منها؟ وكم من شجى في حلوقهم منها ومن موردها؟ ستبدو لهم تلك السرائر بالذي يسوء ويخزي يوم تبلى السرائر»(٤).

وقال تعالى: ﴿إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ الْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَن يَقُولُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا ۚ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿٥١﴾﴾ [النور].

وقال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَن

---

(١) الرسالة التبوكية لابن القيم (ص٢٥، ٢٦).
(٢) تفسير ابن كثير (١/ ٥٢٠).
(٣) أي: قبوله لحكم الرسول والتسليم له.
(٤) الرسالة التبوكية (ص٢٥).

يَكُونَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْۗ وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًا مُّبِينًا ﴿٣٦﴾﴾ [الأحزاب]، وكلا الآيتين توجبان التسليم الكامل والانقياد التام من أهل الإيمان لما حكم به الله تعالى وحكم به رسوله ﷺ، فليس في ذلك اختيار، بل السمع والطاعة والقبول والتسليم بما جاء عن الله ورسوله.

ومن الملاحظ في كلا الآيتين أن الخطاب فيهما لأهل الإيمان، ففي الآية الأولى: ﴿إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [النور: ٥١]. وفي الثانية: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ﴾، وهذا التخصيص للمؤمنين فيه من الدلالة ما فيه، فاسم الإيمان يُشعِر بأن هذا المطلوب منهم من موجبات الاسم الذي نسبوا إليه، ولذلك فإنه يجب على كل من يؤمن بالله ورسوله ﷺ أن يضع هاتين الآيتين وأمثالهما من الآيات الموجبة للامتثال لأمر الله ورسوله ﷺ نصب عينيه فيسمع ويطيع، ويؤمن بأنه لا اختيار له في ذلك ولا رأي، بل التسليم المطلق الذي لا يصاحبه شك ولا ارتياب.

فهذه حقيقة الإيمان ومعنى شهادة أن محمداً رسول الله التي تعني طاعته فيما أمر وتصديقه فيما أخبر، واجتناب ما نهى عنه وزجر، وألا يُعبد الله إلا بما شرع.

ومثل هذه الآيات هي الفاصل بين دعوى الإيمان الحقيقية التي هي للمؤمنين الصادقين، وبين دعوى الإيمان الزائفة الباطلة التي هي سمة المنافقين الكاذبين المظهرين خلاف ما يبطنون.

❁ ❁ ❁

المطلب الثاني

الأدلة من السُنَّة على وجوب طاعته ﷺ

حثَّ النبي ﷺ أمته على طاعته وامتثال أمره واتباع ما جاء به والسير على سُنَّتة والاقتداء به في كل ما جاء به عن ربه ﷻ.

وأحاديثه ﷺ في هذا المجال أعطت للأمه توجيهات عظيمة متى ما ساروا عليها وامتثلوا ما فيها واستناروا بها فقد تحققت لهم سعادة الدارين وفازوا وأفلحوا بإذن الله تعالى.

وقد امتازت الأحاديث في هذا الشأن بكثرتها وتنوع عبارتها وتعدد أساليبها واشتمال بعضها على الأمثلة التي ضربها رسول الله ﷺ لأمته في هذا الشأن، ومما لا شك فيه أن هذه المميزات زادت الأمر توكيداً وتوضيحاً وبياناً، بحيث إنها لم تدع مجالاً لمتأول يأولها أو محرف يغير معناها بهواه ورأيه الفاسد، وهذه الأحاديث على تنوع عبارتها وتعدد أساليبها اتحدت جميعها في مضمون واحد هو التأكيد على وجوب طاعته ﷺ واتباع ما جاء به والترغيب في ذلك، إضافة إلى التحذير من مخالفته، وتحريم معصيته وبيان الوعيد الشديد في ذلك.

والخطاب في تلك الأحاديث شامل لكل من كان في عصره ﷺ ومن سيأتي بعده إلى يوم القيامة.

وسأشير ههنا إلى طرف من تلك الأحاديث مع بيان ما فيها من توجيهات وإرشادات تنير الطريق للسالكين الراغبين بالفوز برضى الله وجنات النعيم.

□ أ ـ كون طاعته واتباعه ﷺ سبباً لدخول الجنة، ومخالفته ومعصيته سبباً لدخول النار:

أولاً: عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «**كل أمتي يدخلون الجنة إلا من أبى**»، قالوا: يا رسول الله ومن يأبى؟، قال: «**من أطاعني دخل الجنة، ومن عصاني فقد أبى**»(١).

ثانياً: وعن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «**من أطاعني فقد أطاع الله، ومن عصاني فقد عصى الله...**» الحديث(٢).

ثالثاً: وعن أبي سعيد الخدري(٣) رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**والذي نفسي بيده لتدخلن الجنة كلكم إلا من أبى وشرد على الله كشراد(٤) البعير**». قال: يا رسول الله ومن يأبى أن يدخل الجنة؟، قال: «**من أطاعني دخل الجنة، ومن عصاني فقد أبى**»(٥).

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الاعتصام بالكتاب والسُّنَّة، باب الاقتداء بسنن رسول الله ﷺ. انظر: فتح الباري (١٣/ ٢٤٩) (ح٧٢٨٥).

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الأحكام، باب قول الله تعالى: ﴿أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنكُمْ﴾ [النساء: ٥٩]، انظر: فتح الباري (١٣/ ١١١) (ح٧١٣٧)؛ وأخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الإمارة، باب وجوب طاعة الأمراء في غير معصية وتحريمها في المعصية (٦/ ١٣).

(٣) سعد بن مالك بن سنان الأنصاري أبو سعيد الخدري: شهد الغزوات بعد أحد وكان من أفاضل الصحابة وحفظ حديثاً كثيراً، توفي سنة (٧٤هـ) وقيل غير ذلك. الإصابة (٢/ ٣٢، ٣٣).

(٤) يقال: شرد البعير، يشرد، شُروداً، وشِراداً: إذا نفر وذهب في الأرض. النهاية (٢/ ٤٥٧).

(٥) أخرجه ابن حبان في صحيحه (١/ ١٥٣) وأورده الهيثمي في مجمع الزوائد (١٠/ ٨٠)، وقال: رواه الطبراني ورجاله رجال الصحيح، وله شاهد من طريق أبي هريرة بنحوه، أخرجه الحاكم في مستدركه (٤/ ٢٤٧) وقال: صحيح على شرطهما ووافقه الذهبي، وله شاهد آخر من طريق أبي أمامة بنحوه. أخرجه =

قال ابن حبان(١): «طاعة الرسول هي الانقياد لسُنَّته، مع رفض قول كل من قال شيئاً في دين الله ﷻ بخلاف سُنَّته، دون الاحتيال في دفع السنن بالتأويلات المضمحلة والمخترعات الداحضة...»(٢).

وهذه الأحاديث الثلاثة تؤكد وجوب طاعة الرسول ﷺ وامتثال ما جاء به، وذلك بفعل ما أمر به واجتناب ما نهى عنه.

وتؤكد كذلك على أن هذه الطاعة هي مفتاح الجنة وسبيل النجاة الوحيد التي متى ما سلكها الإنسان فاز برضى الله وجنته ونجى من سخطه وعذابه.

فعلى المسلم أن يسلك هذه الطريق ـ أي: طاعة النبي ﷺ ـ وألا يحيد عنها يميناً أو شمالاً، فهذه الطاعة هي صراط الله المستقيم الذي أمر الله باتباعه لقوله تعالى: ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِي مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٥٣﴾﴾ [الأنعام].

وعن عبد الله بن مسعود ؓ أن رسول الله ﷺ قال: **«ما من نبي بعثه الله في أمة قبلي إلا كان له من أمته حواريون وأصحاب يأخذون بسُنَّته ويقتدون بأمره، ثم إنها تخلف من بعدهم خلوف يقولون ما لا يفعلون ويفعلون ما لا يؤمرون، ومن جاهدهم بيده فهو مؤمن، ومن جاهدهم بلسانه فهو مؤمن، ومن جاهدهم بقلبه فهو مؤمن، وليس وراء ذلك من الإيمان حبة خردل»**(٣).

= الحاكم في المستدرك (٤/ ٢٤٧) وقال: صحيح على شرطهما ووافقه الذهبي.

(١) محمد بن حبان بن أحمد التميمي، أبو حاتم البستي: الإمام الحافظ الثبت الحجة، كان من أوعية العلم، ولد سنة (٢٧٠هـ)، وتوفي سنة (٣٥٤هـ). ميزان الاعتدال (٣/ ٥٠٦).

(٢) صحيح ابن حبان (١/ ١٥٣).

(٣) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الإيمان، باب بيان كون النهي عن المنكر من الإيمان (١/ ٥٠، ٥١).

وهذه الأحاديث تبين صفة أتباع الأنبياء، فهم يطيعون أنبيائهم، ويأخذون بسُنَّتهم، ويأتمرون بأمرهم، ولا يحيدون عن ذلك ولا يخالفونه إلى ما سواه. وأما المخالفون لهم فمنهم الذين ابتدعوا أموراً في الدين لم تشرع لهم، وأخذوا يتعبدون الله بها وهم المشار إليهم بقوله: «**ويفعلون ما لا يؤمرون**»، وأمثال هؤلاء يتحدثون عن الطاعة والاتباع ولكن بالقول دون العمل، فهم يقولون ما لا يفعلون، وهذا الوصف ينطبق تماماً على أهل البدع المخالفين لشرع نبي هذه الأمة.

فإن الناظر في أحوال هؤلاء يجدهم متمسِّكين أشد التمسك بأمور ليست من سُنَّة المصطفى ولا من هديه، إذ ليس لهم عليها دليل من الكتاب أو السُّنَّة، بينما تجدهم أكثر الناس بعداً عن هدي المصطفى وما جاء به عن ربه، ومع ذلك كله فهم كثيراً ما يتحدثون عن اتباع الرسول والاقتداء به.

ولكن هذا الحديث عن السُّنَّة والاتباع لا يتجاوز ألسنتهم، فهم أبعد الناس عن ذلك، فصدق على هؤلاء قوله ﷺ: «**يقولون ما لا يفعلون، ويفعلون ما لا يؤمرون**».

فانظر أخي المسلم في أحوال الصوفية وعبَّاد القبور والأضرحة وغيرهم من أهل البدع، فهل تجد أبلغ من وصفهم بقول النبي ﷺ هذا: «**يقولون ما لا يفعلون، ويفعلون ما لا يؤمرون**».

فالحذر كل الحذر من سبل أهل البدع والأهواء، وكن على بصيرة من أمر دينك، ولا تغرنَّك مظاهرهم وطراوة ألسنتهم، فكم من إنسان خدعوه بذلك فروَّجوا عليه بدعتهم، ولكن أمرهم لا يروج إلا على خفافيش الأبصار وكل جاهل بسُنَّة نبيه، من لا يفرق بين ما هو من الدين وما ليس من الدين.

وأما العالم بدينه وسُنَّة نبيه ﷺ المتمسك بها، فهو على دراية

ويقين بحال هؤلاء، فلا تنطلي عليه أباطيلهم وأكاذيبهم وما يستندون إليه من المنامات التي جعلوها مصدراً للتشريع والابتداع في دين الإسلام.

وصاحب السُّنَّة يعلم كذلك عاقبة بدعهم فيطبق عليهم بذلك قوله تعالى: ﴿قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُم بِٱلْأَخْسَرِينَ أَعْمَٰلًا ۝١٠٣ ٱلَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا ۝١٠٤﴾ [الكهف].

وقوله ﷺ: «**من أحدث في أمرنا هذا ما ليس منه فهو رد**»(١).

فتلك هي النتيجة الحتمية لكل بدعة، فالله تعالى قد جعل للعمل المقبول شرطين: أحدهما: الإخلاص، وثانيهما: الاتباع، قال تعالى: ﴿فَمَن كَانَ يَرْجُوا۟ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا ۝١١٠﴾ [الكهف].

فقوله: ﴿فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا﴾؛ أي: ما كان موافقاً لشرع الله، ﴿وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا ۝١١٠﴾، وهو الذي يراد به وجه الله وحده لا شريك له، وهذان ركنا العمل المتقبَّل، فلا بد أن يكون خالصاً لله صواباً على شريعة رسول الله ﷺ»(٢).

□ ب ـ ضربه ﷺ الأمثال في الحث على طاعته:

أولاً: عن أبي موسى رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «**إنما مثلي ومثل ما بعثني الله به كمثل رجل أتى قوماً فقال: يا قوم إني رأيت الجيش بعيني، وإني أنا النذير العريان، فالنجاء. فأطاعه طائفة من قومه فأدلجوا(٣) فانطلقوا على مهلهم فنجوا. وكذبت طائفة منهم فأصبحوا مكانهم**

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الصلح، باب إذا اصطلحوا على جور. فتح الباري (٥/ ٣٠١) (ح٢٦٩٧)؛ وأخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الأقضية، باب نقض الأحكام الباطلة (٥/ ١٣٢).

(٢) تفسير ابن كثير (٣/ ١٠٨).

(٣) أي: ساروا بالليل. النهاية (٢/ ١٢٩).

فصبَّحهم الجيش فأهلكهم واجتاحهم. فذلك مثل من أطاعني فاتبع ما جئت به، ومثل من عصاني وكذب بما جئت به من الحق»[١].

ثانياً: وعن جابر بن عبد الله رضي الله عنهما قال: «**جاءت الملائكة إلى النبي ﷺ وهو نائم، فقال بعضهم: إنه نائم. وقال بعضهم: إن العين نائمة والقلب يقظان، فقالوا: إن لصاحبكم هذا مثلاً، قال: فاضربوا له مثلان، فقال بعضهم: إنه نائم، وقال بعضهم: إن العين نائمة والقلب يقظان، فقالوا: مثله كمثل رجل بنى داراً وجعل فيها مأدبة وبعث داعياً فمن أجاب الداعي دخل الدار وأكل من المأدبة، ومن لم يجب الداعي لم يدخل الدار ولم يأكل من المأدبة، فقالوا: أوِّلوها له يفقهها، فقال بعضهم: إنه نائم، وقال بعضهم: إن العين نائمة والقلب يقظان، فقالوا: فالدار الجنة والداعي محمد ﷺ، فمن أطاع محمداً ﷺ فقد أطاع الله، ومن عصى محمداً فقد عصى الله، ومحمد فرَّق بين الناس**»[٢].

ثالثاً: وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**إنما مثلي ومثل الناس كمثل رجل استوقد ناراً فلما أضاءت ما حوله جعل الفراش وهذه الدواب التي تقع في النار يقعن فيها، فجعل الرجل يَزَعُهن[٣] وَيغْلِبْنَه فيقتحمن فيها، فأنا آخذ بحُجزكم عن النار وأنتم تقتحمون فيها**»[٤].

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الاعتصام، باب الاقتداء بسنن الرسول ﷺ. انظر: فتح الباري (١٣/ ٢٥٠) (ح٧٢٨٣). وأخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الفضائل، باب شفقته ﷺ على أمته. انظر: (٧/ ٦٣).

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الاعتصام بالكتاب والسُّنَّة، باب الاقتداء بسنن الرسول ﷺ. انظر: فتح الباري (١٣/ ٢٤٩) (ح٧٢٨١).

(٣) بفتح التحتانية والزاي وضم العين المهملة؛ أي: يدفعهن. فتح الباري (١٣/ ٣١٨).

(٤) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الرقاق، باب الانتهاء عن المعاصي. =

فهذه ثلاثة أحاديث اشتمل كل حديث منها على مثل معين، والأمثال كما هو معلوم توضع لتقريب المعنى وتوضيحه في ذهن السامع ليكون أسهل في فهم المعنى وأبلغ في ترسخه في ذهنه.

ففي المثل الذي جاء في الحديث الأول ضرب النبي ﷺ لنفسه مثلاً بالنذير الذي جاء لقومه يحذرهم من أن أعداءهم في طريقهم إليهم بعد أن رأى جيشهم على مقربة منهم وطلب منهم أن ينجوا بأنفسهم قبل أن يهلكهم عدوهم ويفنيهم.

وضرب لأمته مثلاً بقوم ذلك الرجل الذين انقسموا إلى قسمين فكان منهم من صدَّقه وأطاعه فساروا من الليل فنجوا بأنفسهم من فتك عدوهم، وكان منهم من لم يصدقه فبقوا في منازلهم فصبحهم عدوهم فقضى عليهم. فالنبي ﷺ هو النذير لهذه الأمة كما قال تعالى: ﴿قُلْ يَتَأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّمَآ أَنَا۠ لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ۝٤٩﴾ [الحج]، فقد أرسله الله تعالى: ﴿لِيَكُونَ لِلْعَٰلَمِينَ نَذِيرًا ۝١﴾ [الفرقان]، لينذرهم عذاب ربهم الذي توعد به المخالفين منهم، وبيَّن لهم شرع ربهم وما أمرهم به من قواعد وأحكام.

فمن أطاعه واتبع النور الذي جاء به والتزم شريعته فقد نجا من عذاب الله. ومن عصاه وخالفه ولم يتبع ما جاء به فقد استحق بذلك عذاب الله فله جهنم يصلاها مذموماً مدحوراً.

وهذا المثل يمثل جانب الإنذار والوعيد وهو جانب من جوانب الرسالة، وأما الجانب الثاني وهو جانب البشارة؛ إذ أن الرسول ﷺ أخبر الله عنه بقوله تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا كَآفَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا﴾ [سبأ: ٢٨].

وأما جانب البشارة فهذا ما تحدث عنه الحديث الثاني وهو حديث

= انظر: فتح الباري (١١/ ٣١٦) (ح٦٤٨٣)؛ وأخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الفضائل، باب شفقته ﷺ على أمته... (٧/ ٦٤).

جابر بن عبد الله رضي الله عنهما، فالمثل يتحدث عن ثلاثة أمور: دار، ومأدبة، وداعي. وقد جاء تأويل هذا المثل في الحديث نفسه، فالداعي هو النبي ﷺ، والدار هي الجنة، فمن أطاعه ﷺ واتبع ما جاء به فقد أجاب الدعوة واستحق دخول الجنة والتمتع في نعيمها. وأما من عصى النبي ﷺ وخالفه ولم يستجب لما جاء به، فذلك الذي لم يستجب لدعوته فحُرم من الدخول في الدار التي هي الجنة، وحُرم من الأكل من المأدبة التي هي النعيم الدائم في الجنة.

وأما الحديث الثالث: فالمثل المضروب فيه يصور مدى حرصه ﷺ على حماية الأمة من الوقوع فيما يسخط الرب تبارك وتعالى ويوجب عقابه وأليم عذابه، فهو ﷺ الموصوف بقوله تعالى: ﴿عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢٨﴾﴾ [التوبة].

والشاهد من الحديث قوله: «**أنا آخذ بحُجزكم عن النار وأنتم تقتحمون فيها**»، ومما لا شك فيه أن اقتحام الناس للنار ناتج عن مخالفتهم لأوامر النبي ﷺ ووقوعهم فيما نهى وحذر منه، فبهذا يكون هلاكهم وعذابهم.

والمتأمل لهذه الأحاديث الثلاثة وما ضرب فيها من أمثال يدرك ـ إن كان له قلب وسمع سَلِيمان ـ ما في هذه الأحاديث من الحث على طاعة النبي ﷺ واتباعه والأجر العظيم المترتب على ذلك، كما يدرك عظم العقوبة والخسارة المترتبة على عصيانه ومخالفته وعدم الانقياد له.

والسؤال الذي يفرض نفسه ههنا هو التالي:

هل أنت ممن أطاع البشير النذير ﷺ؟

وهل أنت ممن أجاب الداعي ﷺ؟

وهل أنت ممن استجاب لتحذيره ﷺ فحمى نفسه من نار جهنم؟.

وقبل أن تعجل بالإجابة، انظر إلى أعمالك وأقوالك هل هي وفق شريعته وما جاء به ﷺ أم لا؟ فههنا يكمن الجواب.

فيا سعادة من أطاعه واتبعه، صلوات الله وسلامه عليه.

ويا خزي وندامة من خالفه وعصى أمره، والله تعالى يقول: ﴿وَيَوْمَ يَعَضُّ ٱلظَّالِمُ عَلَىٰ يَدَيْهِ يَقُولُ يَٰلَيْتَنِي ٱتَّخَذْتُ مَعَ ٱلرَّسُولِ سَبِيلًا ﴿٢٧﴾﴾ [الفرقان]، وقال تعالى: ﴿يَوْمَ تُقَلَّبُ وُجُوهُهُمْ فِي ٱلنَّارِ يَقُولُونَ يَٰلَيْتَنَآ أَطَعْنَا ٱللَّهَ وَأَطَعْنَا ٱلرَّسُولَا۠ ﴿٦٦﴾﴾ [الأحزاب].

❑ ج ـ حثه ﷺ لأمته على التمسُّك بسُنَّته وتحذيره من مخالفتها:

عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: «جاء ثلاثة رهط إلى بيوت أزواج النبي ﷺ يسألون عن عبادة النبي ﷺ، فلما أخبروا كأنهم تقالُّوها، فقالوا: وأين نحن من النبي ﷺ وقد غفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر؟ قال أحدهم: أما أنا فأنا أصلي الليل أبداً.

وقال آخر: أنا أصوم الدهر ولا أفطر.

وقال آخر: أنا أعتزل النساء فلا أتزوج أبداً.

فجاء رسول الله ﷺ فقال: «**أنتم الذين قلتم كذا وكذا؟، أما والله إني لأخشاكم لله وأتقاكم له، لكني أصوم وأفطر، وأصلي وأرقد، وأتزوج النساء، فمن رغب عن سُنَّتي فليس مني**»»(١).

وحديث أنس هذا يعد قاعدة جليلة من قواعد التأسي والاتباع، وذلك لما حواه من توجيهات هامة جداً في هذا الشأن منها:

١ ـ أن الابتداع في الدين أمر مردود وغير مقبول، بل يعد من

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب النكاح، باب الترغيب في النكاح. انظر: فتح الباري (٩/١٠٤) (ح٥٠٦٣) واللفظ له. ومسلم في صحيحه، كتاب النكاح، باب استحباب النكاح لمن تاقت نفسه إليه... انظر: (٤/١٢٨).

الرغبة عن سُنَّة المصطفى ﷺ والخروج عن شريعته، ومن أجل ذلك فليس لأحد كائناً من كان سوى النبي ﷺ حتى وإن كان من أصحابه: أن يشرع في هذا الدين أو يدخل فيه أمراً حتى وإن كان ذلك بدافع التقرب إلى الله. فأولئك النفر من الصحابة رضوان الله عليهم دفعهم حب التقرب إلى الله إلى أن قالوا ما قالوه من الأمور التي تعد من الرهبانية، ولما كان قولهم ذلك يعد مخالفة لما كان عليه النبي ﷺ من الحنيفية السمحة، وجَّههم النبي ﷺ إلى الصواب وحذَّرهم من أن يحيدوا عن سُنَّته ويرغبوا عنها بقوله: «**فمن رغب عن سُنَّتي فليس مني**» والمراد أن من ترك طريقتي وأخذ طريقة غيري فليس مني.

ومن هذا الحديث يعلم أن كل أمر ليس من سُنَّته ﷺ والشرع الذي جاء به فهو أمر مبتدع مردود على صاحبه، إضافة الى اعتبار فاعله راغباً عن سُنَّة المصطفى ﷺ.

٢ ـ حثه ﷺ على التمسُّك بما هو عليه وهي الحنيفية السمحة، فهذا ما دل عليه قوله: «**لكني أصوم وأفطر، وأصلي وأرقد، وأتزوج النساء**».

فالإسلام دين الفطرة، ونبينا ﷺ حرص بقوله هذا على سد باب التشديد المتمثل في الرهبانية، فلا رهبانية في الإسلام، وفي هذا يقول ﷺ: «**إن الرهبانية لم تكتب علينا**»(١)، فعلى هذا فهي أمر مخالف لسُنَّته وهديه ﷺ.

وعن العرباض بن سارية(٢) رضي الله عنه قال: «وعظنا رسول الله ﷺ موعظة وجلت منها القلوب وذرفت منها العيون. فقلنا: يا رسول الله

(١) أخرجه أحمد بن حنبل في المسند (٦/ ٢٢٦).

(٢) العرباض بن سارية السلمي أبو نجيح: صحابي مشهور من أهل الصفة، مات سنة خمس وسبعين للهجرة، وقيل قبل ذلك. الإصابة (٢/ ٤٦٦).

كأنها موعظة مودِّع فأوصنا. قال: «**أوصيكم بتقوى الله والسمع والطاعة وإن تأمَّر عليكم عبد، وإنه من يعش منكم فسيرى اختلافاً كثيراً، فعليكم بسُنَّتي وسُنَّة الخلفاء الراشدين المهديين عضوا عليها بالنواجذ، وإياكم ومحدثات الأمور فإن كل بدعة ضلالة**»[(١)].

فوصية النبي ﷺ لأصحابه ولأمته من بعدهم هي أن يتمسَّكوا بما سَنَّه من أحكام وتشريعات أشد التمسُّك، وأن يحذروا الابتداع في الدين، وحَكَم على تلك المحدثات بالضلال والانحراف عن الطريق الذي رسمه.

وقد رسم النبي ﷺ في هذا الحديث ركيزتين أساسيتين في هذا الدين هما:

* **الاتباع.**
* **ترك الابتداع.**

ولقد سار الصحابة رضوان الله عليهم على هذه الوصية النبوية وعملوا بها، فلم يحيدوا عن سُنَّته ﷺ، بل عملوا بها ونقلوها للأمة المحمدية من بعدهم كما سمعوها منه ﷺ، وكذلك فقد كانوا أشد الناس

---

(١) أخرجه الإمام أحمد في مسنده (٤/ ١٢٦، ١٢٧)؛ وأخرجه أبو داود في سننه، كتاب السُّنَّة، باب في لزوم السُّنَّة (٥/ ١٣، ١٥) (ح٤٦٠٧)؛ وأخرجه الترمذي في سننه، كتاب العلم، باب في الأخذ بالسُّنَّة واجتناب البدعة (٥/ ٤٤) (ح٢٦٧٦) وقال: هذا حديث حسن صحيح؛ وابن ماجه في سننه، في المقدمة، باب اتباع سُنَّة الخلفاء الراشدين (١/ ١٦)؛ وابن حبان في صحيحه (١/ ١٣٩)؛ والحاكم في المستدرك (١/ ٩٦) وصححه ووافقه الذهبي؛ والآجري في الشريعة (٤٦، ٤٧)؛ والدارمي في سننه، باب اتباع السُّنَّة (١/ ٤٤، ٤٥) وقال الألباني: سنده صحيح، وصححه جماعة منهم: الضياء المقدسي في اتباع السنن واجتناب البدع. انظر: مشكاة المصابيح (١/ ٥٨) (ح١٦٥).

تمسُّكاً بسُنَّته، وأشدهم محاربة للابتداع في الدين، وقد كان في هذا صلاحهم وفلاحهم ونجاتهم، ولن يصلح آخر هذه الأمة إلا بما صلح أولها.

ومن المؤسف أن كثيراً من المسلمين في وقتنا الحاضر قد اختلَّت عندهم كلا الركيزتين فتركوا الاتباع والاقتداء بسُنَّة النبي ﷺ حتى أصبحت السُّنَّة عندهم أمراً مستغرباً مستنكراً لجهلهم بها وبُعدهم عنها، واستبدلوا بذلك البدع التي لا أصل لها ولا دليل عليها من كتاب الله وسُنَّة نبيه ﷺ، فاتخذوها ديناً يدينون به فانعكست بذلك الموازين لديهم فأصبحوا يرون الحق باطلاً والباطل حقاً، والمعروف منكراً والمنكر معروفاً، وما ذلك إلا لكونهم لم يعرفوا من الإسلام إلا اسمه ولا من الدين إلا رسمه بسبب ما هم عليه من قلة العلم وعدم معرفتهم بالسُّنَّة.

فأين هؤلاء من وصية المصطفى ﷺ بأن يتبعوا ولا يبتدعوا؟

وعن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «**ذروني ما تركتكم، فإنما أهلك من كان قبلكم بسؤالهم واختلافهم على أنبيائهم، فإذا نهيتكم عن شيء فاجتنبوه، وإذا أمرتكم بشيء فأتوا منه ما استطعتم**»(١).

والشاهد من الحديث قوله ﷺ: «**فإذا نهيتكم عن شيء فاجتنبوه، وإذا أمرتكم بشيء فأتوا منه ما استطعتم**».

وهذا التوجيه النبوي الكريم مماثل لما سبق في الأحاديث السابقة من الحث على لزوم السُّنَّة والتأكيد على اتباعها والأخذ بها، إلا أنه يضيف أمراً هاماً وهو أن الطاعة في جانب المأمورات تجب في حدود الاستطاعة والطاقة، وهذا من اليسر الذي امتازت به الرسالة المحمدية،

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الاعتصام، باب الاقتداء بسنن الرسول ﷺ. انظر: فتح الباري (١٣/ ٢٥١) (ح٧٢٨٨)؛ ومسلم في صحيحه، كتاب الحج، باب فرض الحج مرة في العمر (٤/ ١٠٢).

قال تعالى: ﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَاۚ﴾ [البقرة: ٢٨٦].

ففي جانب الأوامر علينا السمع والطاعة في حدود ما نطيق ونستطيع، أما في جانب النواهي فيجب التسليم المطلق دون قيد أو شرط.

فبهذه الإضافة يتحدد مَعْلَم من معالم الطاعة يجب على المسلم أن يدركه ويعي مضمونه.

❑ د ـ بيانه لمواقف الناس من الأخذ بدعوته واتباع سُنَّته ﷺ:

عن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه عن النبي ﷺ أنه قال: «**إن مثل ما بعثني الله به ﷻ من الهدى والعلم كمثل غيث أصاب أرضاً فكان منها طائفة طيبة قبلت الماء فأنبتت الكلأ والعشب الكثير، وكان منها أجادب أمسكت الماء فنفع الله منها الناس، فشربوا منها، وسقوا، وزرعوا. وأصاب طائفة منها أخرى إنما هي قيعان لا تمسك ماء ولا تنبت كلأً، فذلك مثل من فقه في دين الله ونفعه الله به فعَلِم وعَلَّم، ومثل من لم يرفع بذلك رأساً، ولم يقبل هدى الله الذي أُرسلت به**»(١).

وفي هذا الحديث قسم النبي ﷺ الناس ـ فيما يتصل بدعوته ـ إلى ثلاثة أقسام. وشبه ﷺ العلم الذي جاء به بالغيث لأن كلّاً منهما سبب الحياة، فالغيث سبب حياة الأبدان، والعلم سبب حياة القلوب.

وشبَّه القلوب بالأودية كما في قوله تعالى: ﴿أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةُۢ بِقَدَرِهَا﴾ [الرعد: ١٧].

وكما أن الأراضين ثلاثة بالنسبة إلى قَبول الغيث:

* **إحداها**: أرض زكية قابلة للشراب والنبات، فإذا أصابها الغيث ارتوت، ومنه يثمر النبت من كل زوج بهيج.

---

(١) تقدم تخريجه (ص٤٧).

فذلك مثل القلب الزكي الذكي، فهو يقبل العلم بذكائه، فيثمر فيه وجوه الحِكَم ودين الحق بزكائه، فهو قابل للعلم، مثمر لموجبه وفقهه وأسرار معادنه.

* **والثانية**: أرض صلبة قابلة لثبوت ما فيها وحفظه، فهذه تنفع الناس لورودها والسقي منها والازدراع.

وهو مثل القلب الحافظ للعلم الذي يحفظه كما سمعه، فلا تصرف فيه، ولا استنبط، بل للحفظ المجرد، فهو يؤدي كما سمع، وهو من القسم الذي قال فيه النبي ﷺ: «**فرُبَّ حامل فقه إلى من هو أفقه منه، ورُبَّ حامل فقه غير فقيه**»[(١)].

فالأول: كمثل الغني التاجر الخبير بوجوه المكاسب والتجارات فهو يكسب بماله ما شاء.

والثاني: مثل الغني الذي لا خبرة له بوجوه الربح والمكسب، ولكنه حافظ لما لا يحسن التصرف والتقلب فيه.

* **والأرض الثالثة**: أرض قاع، وهو المستوي الذي لا يقبل النبات، ولا يمسك ماء، فلو أصابها من المطر ما أصابها لم تنتفع منه بشيء.

فهذا مثل القلب الذي لا يقبل العلم والفقه والدراية، وإنما هو بمنزلة الأرض البور التي لا تنبت ولا تحفظ، وهو مثل الفقير الذي لا مال له ولا يحسن يمسك مالاً.

---

(١) أخرجه ابن ماجه في السنن (٢/١٨٨)، كتاب المناسك، باب الخطبة يوم النحر؛ وأخرجه الحاكم في المستدرك (١/٨٧)، وقال: «وفي الباب عن جماعة من الصحابة»، وقد جمع طرق هذا الحديث الشيخ عبد المحسن العباد في كتاب سمَّاه «دراسة حديث: «**نضر الله امرءاً سمع مقالتي...**» رواية ودراية» وذكر أن الحديث صحيح وبلغ حد التواتر.

فالأول: عالم معلم، وداع إلى الله على بصيرة، فهذا من ورثة الرسل.

والثاني: حافظ مؤد لما سمعه، فهذا يحمل لغيره ما يتجر به المحمول إليه ويستثمر.

والثالث: لا هذا ولا هذا، فهو الذي لم يقبل هدى الله ولم يرفع به رأساً، فاستوعب هذا الحديث أقسام الخلق في الدعوة النبوية ومنازلهم.

منها قسمان: قسم سعيد، وقسم شقي»[1].

❊ ❊ ❊

(١) الرسالة التبوكية (ص٥٥، ٥٦).

المطلب الثالث

دليل الإجماع على وجوب طاعته

الإجماع من الأمة منعقد على وجوب طاعة الرسول ﷺ واتباعه في جميع ما جاء به من ربه ﷻ، وذلك لثبوت الأمر بهذا في كتاب الله وسُنَّة رسوله ﷺ، بل إن الأمر بوجوب طاعته ﷺ يعد من الأمور المعلومة من الدين بالضرورة التي لا يعذر إنسان بجهلها.

وقد حكى الشافعي رحمه الله تعالى إجماع الصحابة والتابعين ومن بعدهم، على أن من استبانت له سُنَّة رسوله ﷺ لم يكن له أن يدعها لقول أحد.

ولم يسترب أحد من أئمة الإسلام في صحة ما قاله الشافعي، فإن الحجة الواجب اتباعها على الخلق كافة إنما هو قول المعصوم الذي لا ينطق عن الهوى(١).

وقد تمثَّل إجماع الأمة على وجوب طاعة الرسول ﷺ واتباعه في اعتبار السُّنَّة هي المصدر الثاني من مصادر التشريع، وذلك بعد المصدر الأول الذي هو القرآن الكريم(٢).

والمقصود بالسُّنَّة هنا ما صح عن النبي ﷺ من أقواله وأفعاله وتقريراته. فالصحابة والتابعون وتابعوهم ومن سار على نهجهم يؤمنون بهذا الأصل الذي هو سُنَّة المصطفى ﷺ ويوجبون العمل والاحتجاج

---

(١) الرسالة التبوكية لابن القيم (ص٣٧).
(٢) مجموع الفتاوى (١١/ ٣٣٩).

بها، ويعتبرونها مصدراً مستقلاً في التشريع، فلا يجب عرض ما جاء عنه ﷺ على القرآن، بل يجب اتباعه وطاعته مطلقاً سواء كان ما أمر به في الكتاب أو لم يكن.

ولقد كان من مظاهر ذلك الإجماع الاعتناء بسُنَّته وحفظها ونقلها، وتعليمها في كل عصر من العصور.

فلقد اعتُني بالسُّنَّة فنقلها الخلف عن السلف، وحافظوا عليها، ووضعوا لها القواعد التي اعتنت بسلامتها سنداً ومتناً.

والنقول عن السلف من الصحابة والتابعين وتابعيهم ومن سار على نهجهم في وجوب طاعته ﷺ واتباع ما جاء به وتعظيمهم لسُنَّته والعمل بها كثيرة جدّاً. **ومن تلك النقول ما يلي:**

□ أ ـ الصحابة رضوان الله عليهم أجمعين:

ـ أبو بكر الصديق رضي الله عنه:

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: «لما توفي رسول الله ﷺ وارتد من ارتد من العرب، قال أبو بكر الصديق رضي الله عنه: والله لأقاتلن من فرَّق بين الصلاة والزكاة. فقال له عمر رضي الله عنه: كيف تقاتلهم وقد قال النبي ﷺ: «**أُمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا لا إله إلا الله، فإذا قالوها عصموا مني دماءهم وأموالهم إلا بحقها**». فقال أبو بكر الصديق: أليست الزكاة من حقها؟، والله لو منعوني عناقاً[(١)] كانوا يؤدُّونها إلى رسول الله ﷺ لقاتلتهم على منعها. فقال عمر رضي الله عنه: فما هو إلا أن عرفت أن الله قد شرح صدر أبي بكر للقتال فعرفت أنه الحق»[(٢)].

---

(١) العناق: هي الأنثى من أولاد المعز ما لم يتم له سنة. النهاية (٣/ ٣١١).

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الزكاة، باب وجوب الزكاة. انظر: فتح الباري (٣/ ٢٦٢) (ح١٣٩٩). وأخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الإيمان، باب الأمر بقتال الناس حتى يقولوا لا إله إلا الله محمد رسول الله (١/ ٢٨).

فهذه الحادثة تمثل مدى تمسك خليفة رسول الله ﷺ بما كان عليه الرسول ﷺ، وحرصه على تطبيق شرعه في وقت ارتد فيه أكثر العرب في جزيرة العرب، ولم يبق على الإسلام سوى أهل المدينة ومكة والطائف، ولقد تابع الصحابة أبا بكر في موقفه ذلك فقاتلوا أهل الردة بما فيهم مانعي الزكاة، فكان موقفهم ذلك أوضح دليل على تعظيم السُّنَّة ووجوب العمل بها.

وقد جاءت الجدة إلى الصديق رضي الله عنه تسأله عن ميراثها فقال لها: ليس لك في كتاب الله شيء، ولا أعلم أن رسول الله ﷺ قضى لك بشيء وسأسأل الناس. ثم سأل رضي الله عنه الصحابة فشهد عنده بعضهم بأن النبي ﷺ أعطى الجدة السدس فقضى لها بذلك[(١)].

وفي هذا دليل على: تمسك الصديق بسُنَّة المصطفى والعمل بها، وقال رضي الله عنه: «لست تاركاً شيئاً كان رسول الله ﷺ يعمل به إلا عملت به، إني أخشى إن تركت شيئاً من أمره أن أزيغ»[(٢)].

وعن ابن سيرين[(٣)] قال: «لم يكن أحد أهيب بما لا يعلم من أبي

---

(١) أخرجه مالك في الموطأ، كتاب الفرائض، باب ميراث الجدة (ص٣٤٦) رقم (١٠٨٧)؛ وأخرجه أبو داود في السنن، كتاب الفرائض، باب ما جاء في ميراث الجدة (٣/ ٣١٦، ٣١٧) (ح٢٨٩٤)؛ وأخرجه الترمذي في السنن، كتاب الفرائض، باب ما جاء في ميراث الجدة (٤/ ٤١٩، ٤٢٠) (ح٢١٠٠، ٢١٠١)؛ وأخرجه ابن ماجه في السنن، أبواب الفرائض، باب ميراث الجدة (٢/ ١٢٠) (ح٢٧٥٦).

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب فرض الخمس، باب فرض الخمس فتح الباري (٦/ ١٩٧) (ح٣٠٩٣)؛ وأخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الجهاد والسير، باب قول النبي ﷺ: **«لا نورث وما تركنا صدقة»** (٥/ ١٥٥).

(٣) محمد بن سيرين الأنصاري: مولاهم، مولى أنس بن مالك، تابعي جليل كان إمام وقته، مات سنة (١١٠هـ). تهذيب التهذيب (٩/ ٢١٤، ٢١٧).

بكر رضي الله عنه، ولم يكن أحد بعد أبي بكر أهيب بما لا يعلم من عمر رضي الله عنه وإن أبا بكر نزلت به قضية فلم يجد في كتاب الله منها أصلاً، ولا في السُّنَّة أثراً فاجتهد برأيه، ثم قال: هذا رأيي فإن كان صواباً فمن الله، وإن يكن خطأ فمني وأستغفر الله»[(١)].

- **عمر بن الخطاب رضي الله عنه:**

ورد عنه أنه كان يقول: «إن أصدق القيل قيل الله، ألا وإن أحسن الهدي هدي محمد، وشر الأمور محدثاتها، وكل محدثة ضلالة...»[(٢)].

وكان عمر رضي الله عنه يوصي عماله أن يقضوا بين الناس بكتاب الله، فإن لم يجدوا القضية في كتاب الله فبسُنَّة رسول الله ﷺ.

فعن الشعبي[(٣)] عن شريح[(٤)] أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه كتب إليه: إن جاءك شيء في كتاب الله فاقض به ولا يلتفتك عنه الرجال، فإن جاءك ما ليس في كتاب الله فانظر سُنَّة رسول الله ﷺ فاقض بها، فإن جاءك ما ليس في كتاب الله ولم يكن فيه سُنَّة من رسول الله ﷺ، فانظر ما اجتمع عليه الناس فخذ به، فإن جاءك ما ليس في كتاب الله ولم يكن في سُنَّة رسول الله ﷺ ولم يتكلم فيه أحد من قبلك فاختر أي الأمرين شئت: إن شئت أن تجتهد برأيك ثم تقدم فتقدم، وإن شئت أن تتأخر

---

(١) إعلام الموقعين (١/ ٥٤).
(٢) السُّنَّة للالكائي (١/ ٨٤) (ح١٠٠)، والبدع والنهي عنها لابن وضاح (ص٢٤).
(٣) عامر بن شراحيل الشعبي: أهله من حمير اليمن، قال فيه مكحول: «ما رأيت أحداً أعلم بسنة ماضية من الشعبي»، وقد تولى القضاء في عهد عمر بن عبد العزيز على الكوفة، توفي سنة (١٠٥هـ)، وقيل قبل ذلك. تهذيب التهذيب (٥/ ٦٥ ـ ٦٩).
(٤) شريح بن الحارث بن قيس الكندي: القاضي، مخضرم، ثقة، استقضاه عمر. مات قبل الثمانين أو بعدها. تهذيب التهذيب (٤/ ٣٢٦، ٣٢٨).

فتأخر، ولا أرى التأخر إلا خيراً لك»[١].

وروى البخاري بسنده عن أبي وائل[٢] قال: «جلست إلى شيبة في هذا المسجد، قال: جلس إلي عمر في مجلسك هذا فقال: هممت أن لا أدع فيها صفراء ولا بيضاء إلا قسمتها بين المسلمين. قلت: ما أنت بفاعل. قال: لم؟ قلت: لم يفعله صاحباك. قال: هما المرءان يُقتدى بهما»[٣].

وعن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما قال: «قيل لعمر: ألا تستخلف؟، قال: إن أستخلف فقد استخلف من هو خير مني أبو بكر، وإن أترك فقد ترك من هو خير مني رسول الله ﷺ. فأثنوا عليه، فقال: راغب وراهب[٤]، وددت أني نجوت منها كفافاً لا لي ولا علي، لا أتحملها حياً وميتاً»[٥].

---

(١) أخرجه الدارمي في السنن (١/ ٦٠)، وأورده السيوطي في مفتاح الجنة (ص٤٦) وعزاه للبيهقي والدارمي.

(٢) شقيق بن سلمة الأسدي أبو وائل الكوفي: أدرك النبي ﷺ ولم يره. قال ابن معين: «ثقة لا يسأل عن مثله» مات سنة (٨٢هـ). تهذيب التهذيب (٤/ ٣٦١، ٣٦٣).

(٣) أخرجه في صحيحه، كتاب الاعتصام بالكتاب والسُّنَّة، باب الاقتداء بسنن رسول الله ﷺ. انظر: فتح الباري (١٣/ ٢٤٩) (ح١٢٧٥).

(٤) قال ابن حجر: «قال ابن بطال: يحتمل أمرين: أحدهما: أن الذين أثنوا عليه إما راغب في حسن رأيي فيه وتقريري له، وإما: راهب من إظهار ما يضره من كراهته. أو المعنى: راغب فيما عندي وراهب مني. أو المراد: الناس راغب في الخلافة وراهب منها، فإن وليت الراغب فيها خشيت أن لا يعان عليها، وإن وليت الراهب منها خشيت أن لا يقوم بها.
وذكر القاضي عياض توجيهاً آخر: أنهما وصفان لعمر؛ أي: راغب فيما عند الله، وراهب من عقابه، فلا أعول على ثنائكم وذلك يشغلني عن العناية بالاستخلاف عليكم». فتح الباري (٣/ ٢٠٧).

(٥) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الأحكام، باب الاستخلاف واللفظ له. انظر: فتح الباري (١٣/ ٢٥٥، ٢٥٦). وأخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الإمارة، باب الاستخلاف وتركه (٦/ ٤، ٥).

وجاء في رواية لمسلم قال عبد الله: «فوالله ما هو إلا أن ذكر رسول الله ﷺ وأبا بكر فعلمت أنه لم يكن ليعدل برسول الله ﷺ أحداً وأنه غير مستخلف»[١].

فعمر بن الخطاب ﷺ تمسك بسُنَّة رسول الله ﷺ وقدَّمها على سُنَّة أبي بكر مع أن العمل بها جائز عنده.

ولما قبَّل ﷺ الحجر الأسود قال: «أما والله إني لأعلم أنك حجر لا تضر ولا تنفع، ولولا أني رأيت رسول الله ﷺ استلمك ما استلمتك»[٢].

ـ عثمان بن عفان[٣] ﷺ:

عن زينب بنت كعب بن عجرة[٤] أن الفريعة بنت مالك بن سنان[٥] وهي أخت أبي سعيد الخدري، أخبرتها: «أنها جاءت إلى رسول الله ﷺ تسأله أن ترجع إلى أهلها في بني خدرة، وأن زوجها خرج في طلب أعبد له أَبقَوا حتى إذا كان بطرف القدوم لحقهم فقتلوه. قالت: فسألت رسول الله ﷺ أن أرجع إلى أهلي فإن زوجي لم يترك لي مسكناً يملكه

---

(١) أخرجه في صحيحه، كتاب الإمارة، باب الاستخلاف وتركه (٦/ ٥).

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الحج، باب الرمل في الحج والعمرة، واللفظ له. انظر: فتح الباري (٣/ ٤٧١) (ح١٦٠٥). وأخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الحج، باب استحباب تقبيل الحجر الأسود في الطواف (٤/ ٦٧).

(٣) عثمان بن عفان: ولد بعد الفيل بست سنين، أسلم على يد الصديق، وقد تزوج بنتي رسول الله ﷺ: رقية وأم كلثوم، ولذلك سُمي ذا النورين، وقد ولي الخلافة سنة (٢٤هـ)، وقعت في عهده الفتنة فقتل ﷺ سنة (٣٥هـ). تهذيب التهذيب (٧/ ١٣٩، ١٤٢).

(٤) زينب بنت كعب بن عجرة: صحابية تزوجها أبو سعيد الخدري. الإصابة (٤/ ٣١٢).

(٥) الفريعة بنت مالك بن سنان الخدرية: صحابية جليلة، وقصتها مذكورة في الحديث الذي معنا. الإصابة (٤/ ٣٧٥).

ولا نفقة. قالت: فقال رسول الله ﷺ: «**نعم**». قالت: فانصرفت حتى إذا كنت في الحجرة (أو في المسجد) ناداني رسول الله ﷺ، أو أمر لي فنوديت له، فقال: «**كيف قلت؟**»، قالت: فرددت عليه القصة التي ذكرت له من شأن زوجي. قال: «**امكثي في بيتك حتى يبلغ الكتاب أجله**». قالت: فاعتددت فيه أربعة أشهر وعشراً. قالت: فلما كان عثمان أرسل إلي فسألني عن ذلك فأخبرته وقضى به»(١).

والشاهد من هذا الحديث أن عثمان لما أشكل عليه حكم اعتداد المرأة في بيتها بعد وفاة زوجها، أرسل إلى الفريعة بنت مالك يسألها فأخبرته أن النبي ﷺ أمرها بعد وفاة زوجها أن تمكث في بيته حتى يبلغ الكتاب أجله. فقضى عثمان رضي الله عنه بسُنَّة المصطفى ﷺ.

ـ علي بن أبي طالب رضي الله عنه:

لما بلغه أن عثمان رضي الله عنه ينهى عن متعة الحج، أهلَّ علي رضي الله عنه بالعمرة والحج جميعاً وقال: «ما كنت لأدع سُنَّة النبي ﷺ لقول أحد»(٢). وعنه رضي الله عنه أنه قال: «ألا إني لست بنبي ولا يوحى إلي، ولكني أعمل بكتاب الله وسُنَّة محمد ﷺ ما استطعت»(٣).

---

(١) أخرجه الإمام مالك في الموطأ (٢/ ٥٩١) في الطلاق، باب مقام المتوفى عنها زوجها في بيتها. وأخرجه أبو داود في السنن، كتاب الطلاق، باب في المتوفى عنها تنتقل (٢/ ٧٢٣، ٧٢٤) (ح٢٣٠٠)؛ وأخرجه الترمذي في سننه، كتاب الطلاق، باب ما جاء أين تعتد المتوفى عنها زوجها واللفظ له، وقال: هذا حديث حسن صحيح (٣/ ٥٠٨) (ح١٢٠٤)؛ وأخرجه النسائي، في السنن الصغرى، كتاب الطلاق باب مقام المتوفى عنها زوجها في بيتها حتى تحل (٦/ ١٩٩).

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الحج، باب التمتع والقران والإفراد بالحج... انظر: فتح الباري (٣/ ٤٢١). وأخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الحج، باب جواز التمتع (٤/ ٤٦).

(٣) أورده القاضي عياض في الشفا (٢/ ٥٥٦).

ـ أُبي بن كعب رضي الله عنه[(١)]:

روي عنه أنه قال: «عليكم بالسبيل والسُّنَّة فإنه ما على الأرض من عبد على السبيل والسُّنَّة ذكر الله في نفسه ففاضت عيناه من خشية ربه فيعذبه الله أبداً، وما على الأرض من عبد على السبيل والسُّنَّة ذكر الله في نفسه فاقشعر جلده من خشية الله إلا كان مثله كمثل شجرة قد يبس ورقها فهي كذلك إذ أصابتها ريح شديدة، فتحاتَّ عنها ورقها، إلا حطَّ الله خطاياه كما تحات من الشجرة ورقها، فإن اقتصاداً في سبيل وسُنَّة خير من اجتهاد في خلاف سبيل وسُنَّة وموافقة بدعة، وانظروا أن يكون عملكم إن كان اجتهاداً واقتصاداً أن يكون على منهج الأنبياء وسُنَّتهم»[(٢)].

ـ عبد الله بن عباس رضي الله عنهما:

روي عنه أنه قال: «من أحدث رأياً ليس في كتاب الله ولم تمض به سُنَّة من رسول الله ﷺ لم يدر ما هو عليه إذا لقي الله عز وجل»[(٣)].

وعنه رضي الله عنه قال: «عليك بتقوى الله والاستقامة واتبع ولا تبتدع»[(٤)].

---

(١) أبي بن كعب الأنصاري: كان من أصحاب العقبة الثانية وشهد بدراً فما بعدها، سيد القراء وهو أول من كتب للنبي ﷺ، توفي سنة (٢٢هـ). الإصابة (١/ ٣١ ـ ٣٢).

(٢) أخرجه ابن المبارك في الزهد (٢/ ٢١، ٢٢)، واللالكائي في شرح أصول اعتقاد أهل السُّنَّة والجماعة (١/ ٥٤)، وأبو نعيم في الحلية (١/ ٢٥٢ ـ ٢٥٣).

(٣) أخرجه الدارمي في سننه، باب الفتيا وما فيه من الشدة (١/ ٥٧)؛ وأخرجه ابن وضاح في البدع والنهي عنها، باب تغيير البدع (ص٣٨)؛ وأورده الشاطبي في الاعتصام (١/ ٨١).

(٤) أخرجه الدارمي في سننه، باب من هاب الفتيا وكره التنطع والتبدع (١/ ٥٣).

- **عبد الله بن مسعود** رضي الله عنه:

روي عنه رضي الله عنه أنه قال: «اتبعوا ولا تبتدعوا فقد كُفيتم»[١]، وعنه أنه قال: «إنا نقتدي ولا نبتدئ، ونتبع ولا نبتدع، ولن نضل ما تمسَّكنا بالأثر»[٢]. وعنه رضي الله عنه أنه قال: «الاقتصاد في السُّنَّة خير من الاجتهاد في البدعة»[٣].

- **عبد الله بن عمر** رضي الله عنهما:

فعن سالم بن عبد الله[٤] أن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما قال: «سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**لا تمنعوا نساءكم المساجد إذا استأذنَّكم إليها**». فقال بلال بن عبد الله[٥]: والله لنمنعهن. قال: فأقبل عليه عبد الله فسبَّه سبّاً سيئاً ما سمعته سبَّه مثله قط. وقال: أخبرك عن رسول الله ﷺ وتقول: والله لنمنعهن»[٦].

---

(١) أخرجه الدارمي في سننه، باب في كراهة أخذ الرأي (١/ ٦٩)؛ وأخرجه ابن وضاح في البدع والنهي عنها، باب ما يكون من بدعة (ص١٠)؛ وأخرجه اللالكائي في السُّنَّة (١/ ٨٦) (ح١٠٤)، وقال الهيثمي في مجمع الزوائد (١/ ١٨١): رجاله رجال الصحيح.

(٢) أخرجه اللالكائي في السُّنَّة (١/ ٨٦) (ح١٠٦).

(٣) أخرجه الحاكم في المستدرك (١/ ١٠٣) وقال: على شرطهما وأقره الذهبي، واللالكائي في السُّنَّة (١/ ٥٥) (ح١٤)، وابن وضاح في البدع والنهي عنها (ص١١)، وابن عبد البر في جامعه (٢/ ٢٣٠). وقال الهيثمي في مجمع الزوائد (١/ ١٨٨): رجاله ثقات.

(٤) سالم بن عبد الله بن عمر بن الخطاب: أحد فقهاء المدينة السبعة ومن أفاضل التابعين، مات سنة (١٠٦هـ). تهذيب التهذب (٣/ ٤٣٧، ٤٣٨).

(٥) بلال بن عبد الله بن عمر بن الخطاب: ذكره مسلم في الطبقة الأولى من المدنيين، وعده يحيى القطان في فقهاء أهل المدينة. تهذيب التهذيب (١/ ٥٥٤).

(٦) أخرجه بهذا اللفظ مسلم في صحيحه، كتاب الصلاة، باب خروج النساء إلى المساجد (٢/ ٣٢).

ـ **حذيفة بن اليمان** رضي الله عنه:

قال رضي الله عنه: «يا معشر القراء استقيموا فقد سبقتم سبقاً بعيداً، فإن أخذتم يميناً وشمالاً لقد ضللتم ضلالاً بعيداً»(١).

قال ابن حجر: «فقوله: «**يا معشر القراء**» المراد بهم العلماء بالقرآن والسُّنَّة العبَّاد. وقوله: «**استقيموا**»؛ أي: اسلكوا طريق الاستقامة وهي كناية عن التمسك بأمر الله فعلاً وتركاً. وقوله: «**سبقتم**» بفتح أوله كما جزم به ابن التين وحكى غيره ضمه والأول المعتمد، والمراد أنه خاطب بذلك من أدرك أوائل الإسلام، فإذا تمسك بالكتاب والسُّنَّة سبق إلى كل خير، لأن من جاء بعده إن عمل بعمله لم يصل إلى ما وصل إليه من سبقه إلى الإسلام، وإلا فهو أبعد منه حساً وحكماً. وقوله: «**فإن أخذتم يميناً وشمالاً**»؛ أي: خالفتم الأمر المذكور. وكلام حذيفة منتزع من قوله تعالى: ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِي مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُواْ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ﴾ [الأنعام: ١٥٣](٢).

❑ ب ـ من أقوال التابعين ومن بعدهم:

* عمر بن عبد العزيز(٣) رحمه الله تعالى:

فممَّا نقل عنه أنه كتب عامل له يسأله عن الأهواء؟، فكتب إليه: «أما بعد فإني أوصيك بتقوى الله والاقتصاد في أمره واتباع سُنَّته وسُنَّة رسوله ﷺ، وترك ما أحدث المحدثون بعده مما جرت به سُنَّته وكفوا

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الاعتصام، باب الاقتداء. انظر: فتح الباري (٣/ ٣٥٠)

(٢) فتح الباري (١٣/ ٢٥٧) باختصار يسير.

(٣) عمر بن عبد العزيز: الخليفة الأموي الصالح، عده بعضهم خامس الخلفاء، ولي الخلافة عام (٩٩هـ)، وتوفي عام (١٠١هـ)، وله أخبار في العدل والزهد كثيرة. تذكرة الحفاظ (١/ ١١٨).

مؤنته، فعليك بلزوم السُّنَّة فإنها لك بإذن الله عصمة...»[١].

وروي عنه أنه قال: «سنَّ رسول الله ﷺ وولاة الأمر من بعده سنناً، الأخذ بها تصديق بكتاب الله، واستكمال لطاعة الله وقوة على دين الله، من عمل بها فهو مهتد، ومن استنصر بها فهو منصور، ومن خالفها اتبع غير سبيل المؤمنين، وولاه الله ما تولى، وأصلاه جهنم وساءت مصيراً»[٢].

*** محمد بن مسلم الزهري[٣]:**

روي عنه أنه قال: «كان من مضى من علمائنا يقولون الاعتصام بالسُّنَّة نجاة، والعلم يقبض قبضاً سريعاً، فنعش العلم ثبات الدين والدنيا، وفي ذهاب العلم ذهاب ذلك كله»[٤].

*** مجاهد بن جبر[٥]:**

روي عنه أنه قال عند تفسير قوله تعالى: ﴿فَإِن تَنَٰزَعۡتُمۡ فِي شَيۡءٖ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ﴾ الآية [النساء: ٥٩]. قال: «الرد إلى الله: الرد إلى كتابه، والرد إلى الرسول: الرد إلى السُّنَّة»[٦].

---

(١) الشريعة للآجري (ص٤٨)، وكتاب البدع والنهي عنها لابن وضاح (ص٣٠)، وكتاب الاعتصام للشاطبي (١/ ٥٠)، وجامع بيان العلم وفضله (ص٢١).
(٢) الشريعة للآجري (ص٤٨)، وجامع بيان العلم وفضله (٢/ ٣٢)، والاعتصام للشاطبي (١/ ٨٧).
(٣) تابعي من أهل المدينة، أول من دوَّن الحديث وهو من كبار الحفاظ الفقهاء، لقي بعض الصحابة، قال مالك: «بقي ابن شهاب وما له في الدنيا نظير»، توفي عام (١٢٤هـ). التذكرة (١٠٨)، والبداية (٩/ ٣٤٥).
(٤) أخرجه الدارمي في سننه (١/ ٤٥)، باب اتباع السُّنَّة.
(٥) هو: مجاهد بن جبر المكي: تابعي إمام في التفسير، مات في السجود عام (١٠٤هـ)، وقيل (١٠٣هـ). التذكرة (٩٢)، والتهذيب (١٠/ ٤٢).
(٦) أخرجه الطبري في تفسيره (٨/ ٥٠٥).

*** أبو العالية[1]:**

روي عنه أنه قال: «تعلَّموا الإسلام، فإذا تعلَّمتموه فلا ترغبوا عنه، وعليكم بالصراط المستقيم فإنه الإسلام، ولا تحرفوا الصراط يميناً أو شمالاً، وعليكم بسُنَّة نبيكم، وما كان عليه أصحابه»[2].

*** أيوب السختياني[3]:**

روي عنه أنه قال: «إذا حُدِّث الرجل بسُنَّة فقال: دعنا من هذا وأنبئنا عن القرآن، فاعلم أنه ضال»[4].

□ ج ـ الأئمة الأربعة:

*** أبو حنيفة النعمان[5]:**

روي عنه قوله رَحِمَهُ اللَّهُ: «إذا جاء عن النبي ﷺ فعلى الرأس والعين، وإذا جاء عن أصحاب رسول الله ﷺ نختار من قولهم، وإذا جاء عن

---

(١) أبو العالية: رُفيع ـ بضم الراء مصغراً ـ بن مهران الرياحي، مولى امرأة من بني رياح، قال أبو بكر بن أبي داود: «ليس أحد أعلم بالقرآن بعد الصحابة من أبي العالية»، توفي عام (٩٣هـ). التذكرة (٦١)، والطبقات (٧/ ١١٢)، واللباب (٢/ ٤٦).

(٢) أخرجه ابن وضاح في البدع والنهي عنها (ص٣٢)، وأورده الشاطبي في الإعتصام (١/ ٨٥)

(٣) هو: أبو بكر أيوب بن أبي تميمة السختياني ـ بفتح السين ـ نسبة إلى عمل السختيان وبيعه ـ وهي الجلود الضأنية ـ قال ابن سعد: «كان أيوب ثقة ثبتاً في الحديث جامعاً عدلاً ورعاً كثير العلم حجة»، توفي سنة (١٣١هـ). انظر: الطبقات (٧/ ٢٤٦)، واللباب (٢/ ١٠٨).

(٤) أورده السيوطي في مفتاح الجنة (ص٣٥) وعزاه للبيهقي.

(٥) أبو حنيفة: هو النعمان بن ثابت التيمي مولاهم الكوفي، أحد الأئمة الأربعة وإليه ينتسب الأحناف، ولد سنة (٨٠هـ)، وتوفي سنة (١٥٠هـ). البداية (١٠/ ١٠٧).

التابعين زاحمناهم»[1].

وروي عنه قوله: «آخذ بكتاب الله، فما لم أجد فبسُنَّة رسول الله ﷺ، فإن لم أجد في كتاب الله ولا سُنَّة أخذت بقول أصحابه، آخذ بقول من شئت منهم، وأدع قول من شئت منهم، ولا أخرج من قولهم إلى قول غيرهم...»[2].

*** مالك بن أنس (إمام دار الهجرة):**

قال رحمه الله تعالى: «من ابتدع في الإسلام بدعة يراها حسنة فقد زعم أن محمداً خان الرسالة؛ لأن الله يقول: ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ﴾ [المائدة: ٣]، فما لم يكن يومئذ ديناً فلا يكون اليوم ديناً»[3].

وكان رَحِمَهُ ٱللَّهُ كثيراً ما يقول:

وخير أمور الدين ما كان سُنَّة وشر الأمور المحدثات البدائع[4]

ومن قوله كذلك: «قُبض رسول الله ﷺ وقد تم هذا الأمر واستكمل، فإنما ينبغي أن نتبع آثار رسول الله ﷺ ولا نتبع الرأي»[5].

وجاء رجل إلى مالك فسأله عن مسألة فقال له: قال رسول الله ﷺ كذا وكذا، فقال الرجل: أرأيت، فقال مالك: ﴿فَلْيَحْذَرِ ٱلَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِۦٓ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٦٣﴾﴾ [النور][6].

*** محمد بن إدريس الشافعي:**

ورد عنه أنه قال: «الحجة في كتاب الله وسُنَّة رسوله ﷺ واتفاق الأئمة»[7]، وقال: «ليس في سُنَّة رسول الله ﷺ إلا اتباعها»[8]

---

(١) المدخل إلى السنن الكبرى للبيهقي (ص١١١) بتحقيق محمد ضياء الرحمٰن الأعظمي.

(٢) المدخل إلى السنن (ص٢٠٤).

(٣) الاعتصام للشاطبي (١/ ٤٩).

(٤) المصدر السابق (١/ ٨٥).

(٥) المصدر السابق (١/ ١٠٥).

(٦) المدخل إلى السنن الكبرى للبيهقي (ص٢٠١).

(٧) رسالة التقليد لابن القيم (ص٨٣).

(٨) الشفا (٢/ ٥٥٨).

وروى رَحِمَهُ اللهُ يوماً حديثاً فقال له رجل: «أتأخذ بهذا يا أبا عبد الله؟، فقال: متى ما رويت عن رسول الله حديثاً صحيحاً فلم آخذ به فأشهدكم أن عقلي قد ذهب»(١).

وروي عنه أنه قال: «إذا وجدتم في كتابي خلاف سُنَّة رسول الله ﷺ فقولوا بسُنَّة رسول الله ﷺ ودعوا ما قلت»(٢).

وروي عنه أنه قال: «آمنت بما جاء عن الله، وبما جاء عن رسول الله ﷺ على مراد رسول الله»(٣).

*** أحمد بن حنبل (إمام أهل السُّنَّة):**

ورد عنه قوله: «أصول السُّنَّة عندنا التمسُّك بما كان عليه أصحاب رسول الله ﷺ والاقتداء بهم وترك البدع وكل بدعة فهي ضلالة، وترك الخصومات والجلوس مع أصحاب الأهواء، وترك المراء والجدال والخصومات في الدين.

والسُّنَّة عندنا آثار رسول الله ﷺ، والسُّنَّة تفسر القرآن وهي دلائل القرآن، وليس في السُّنَّة قياس، ولا تضرب لها الأمثال ولا تدرك بالعقول ولا الأهواء إنما هي الاتباع وترك الهوى»(٤).

وقال أيضاً: «الاتباع أن يتبع الرجل ما جاء عن النبي ﷺ وأصحابه ثم هو بعد مع التابعين مخير»(٥).

---

(١) المدخل إلى السنن الكبرى للبيهقي (ص٢٠٥) رقم (٢٥٠)، وأخرجه ابن أبي حاتم في آداب الشافعي ومناقبه (ص٦٧)، وأبو نعيم في الحلية (٩/ ١٠٦)، والخطيب في الفقيه والمتفقه (١/ ١٥٠)، وأورده السيوطي في مفتاح الجنة في الاحتجاج بالسُّنَّة (ص٤٩، ٥٠).

(٢) أخرجه الخطيب في الفقيه والمتفقه (١/ ١٥٠)، والمدخل إلى السنن (ص٢٠٥)، والحلية (٩/ ١٠٧).

(٣) مجموع الفتاوى (٤/ ٢).

(٤) السُّنَّة للالكائي (١/ ١٥٦).

(٥) إيقاظ همم أولي الأبصار (ص١١٣).

وما أوردته من آثار وأقوال عن السلف ههنا إنما هو عبارة عن نماذج لما ورد عنهم في هذا الشأن(١).

ويتضح من خلال تلك النصوص إجماع سلف الأمة وأئمتها على وجوب الأخذ بسُنَّة المصطفى ﷺ والتمسك بها في كل الجوانب واتباع ما جاء به ﷺ اعتقاداً وقولاً وعملاً. والتحذير من مخالفة السُّنَّة والابتداع فيها وتقديم الهوى والرأي عليها.

❁ ❁ ❁

---

(١) من أراد الاستزادة من أقوال السلف في هذا الشأن فعليه بالكتب التالية:
أ ـ أصول اعتقاد أهل السُّنَّة والجماعة للحافظ اللالكائي.
ب ـ المدخل إلى السنن الكبرى للبيهقي.
ج ـ الأمر بالاتباع والنهي عن الابتداع للسيوطي.
د ـ مفتاح الجنة في الاحتجاج بالسُّنَّة للسيوطي

المبحث الثاني

منهج السلف في اتباعه ﷺ وطاعته

وفيه مطلبان:

المطلب الأول: منهجهم في الاتباع.

المطلب الثاني: محاربة السلف لما يناقض الاتباع.

المطلب الأول

منهجهم في الاتباع

بعث الله تبارك وتعالى رسوله ﷺ بالرسالة الجامعة الخاتمة ألا وهي رسالة الإسلام التي ارتضاها ﷻ لتكون ديناً ومنهاجاً، يسير عليه الجن والإنس في حياتهم الدنيا حتى يتم لهم صلاح معاشهم الذي هم فيه، ومعادهم الذي سيصيرون إليه.

ولقد شاء تبارك وتعالى أن يجعل لهذه الرسالة مصدرين للتلقي هما:

* **القرآن الكريم.**
* **السُّنَّة النبوية.**

فالقرآن الكريم هو المصدر التشريعي الأول في الإسلام، وهو كلام الله المنزل على رسوله ﷺ بواسطة جبريل عليه السلام.

والسُّنَّة هي المصدر الثاني لأنها مبينة لأحكامه، موضحة لإبهامه، ومخصِّصة لعمومه، ومقيدة لإطلاقه، وشارحة لأحكامه وأهدافه.

قال تعالى: ﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٤٤﴾﴾ [النحل].

وقال تعالى: ﴿وَمَآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ إِلَّا لِتُبَيِّنَ لَهُمُ ٱلَّذِى ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٦٤﴾﴾ [النحل].

فالرسول ﷺ كما خُصَّ بالوحي المتلو وهو القرآن الكريم، كذلك خُصَّ بالوحي غير المتلو وهو السُّنَّة التي لا مندوحة عن اتباعها.

قال تعالى: ﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ ۝ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ ۝﴾ [النجم]. وقال ﷺ: «**ألا إني أوتيت القرآن ومثله معه**»(١). وبناء على ذلك فإن القرآن والسُّنَّة هما المنهلان العظيمان اللذان تستقي منهما الأمة المسلمة عقيدتها وشريعتها وكل ما فيه صلاح شؤونها في دنياها وآخرتها، وهما المنهاج والنبراس الذي سار عليه السلف من الصحابة والتابعين ومن جاء بعدهم، في طاعتهم واتباعهم للنبي ﷺ، وذلك لاعتقادهم أن النبي ﷺ قد جاء بهذين الأصلين وحياً من عند الله ﷻ، كما أنه أمر باتباعهما والأخذ بما فيهما اعتقاداً وقولاً وعملاً.

قال تعالى: ﴿وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانتَهُوا﴾ [الحشر: ٧]، فهم من هذا المنطلق التزموا وتمسَّكوا بالقرآن والسُّنَّة وتلقَّوْهما بالقَبول والتسليم والإيمان والتعظيم، فأحلوا حلالهما وحرَّموا حرامهما، واتخذوا منهما منهجاً لجميع شؤونهم وأحوالهم يرجعون إليه امتثالاً لنداء الله حيث قال: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنكُمْ ۖ فَإِن تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ۚ ذَٰلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا ۝﴾ [النساء].

قال ابن القيم: «إن الناس أجمعوا أن الرد إلى الله سبحانه هو الرد إلى كتابه، والرد إلى الرسول ﷺ هو الرد إليه نفسه في حياته وإلى سُنَّته بعد وفاته»(٢).

ومن هذين الأصلين ـ الكتاب والسُّنَّة ـ استقى السلف المسلك القويم والمنهج السليم الذي ساروا عليه في طاعتهم واتباعهم لرسولهم ونبيهم محمد ﷺ، وهذا المنهج يمكن تلخيصه في **النقاط الرئيسية لتالية:**

---

(١) أخرجه أبو داود في سننه، كتاب السُّنَّة، باب في لزوم السُّنَّة (٥/ ١٠) (ح٤٦٠٤)؛ وأخرجه الإمام أحمد في المسند (٢/ ٢٤٣).
(٢) إعلام الموقعين (١/ ٤٩، ٥٥).

□ أولاً: اتباع القرآن الكريم:

فالقرآن الكريم هو كلام الله المنزل على نبيه محمد ﷺ وحياً بواسطة جبريل عليه السلام، والذي تولى الله سبحانه وتعالى حفظه بقوله: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ۝٩﴾ [الحجر].

كما جعله نظاماً ومنهجاً يهتدي به عباده المؤمنون كما قال تعالى: ﴿ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ۝٢﴾ [البقرة].

ولقد اعتنى السلف بكتاب الله عز وجل فحفظوه في صدورهم ومصاحفهم وصاروا يتلونه آناء الليل وأطراف النهار، وينفذون أحكامه وشرائعه جيلاً بعد جيل في جميع جوانب حياتهم الفردية، والاجتماعية، والاقتصادية، والسياسية، وغيرها من الأمور الدنيوية والأخروية.

كما تفرغ عبر القرون ثلة من خيارهم لدراسته وتفسيره واستنباط أحكامه ومعرفة ناسخه ومنسوخه، ومحكمه ومتشابهه، والاعتبار بدعوته وقصصه، ووعظه وإرشاداته وأمثاله.

وهذا الموقف من السلف الصالح يمثل مظهراً من مظاهر التأسي والاقتداء بما كان عليه النبي ﷺ، كما يعد تطبيقاً عمليّاً لما أوصى به عليه الصلاة والسلام أمته حيث قال: «**تركت فيكم ما لن تضلوا بعده إن اعتصمتم به: كتاب الله...**»(١)

□ ثانياً: اتباع سُنَّته ﷺ والعمل بها:

فلقد أوجب الله على العباد طاعة رسوله ﷺ واتباعه وقد تقدم إيراد الأدلة على ذلك(٢).

ولقد عمل السلف بما أوجبه الله تعالى فأخذوا بسُنَّة نبيهم ﷺ

---

(١) تقدم تخريجه (ص١٢٦).

(٢) انظر: المبحث الأول من هذا الفصل.

وعملوا بها أمراً ونهياً وخبراً، فكانت أقواله وأفعاله وتقريراته هي المصدر الثاني بعد كتاب الله ﷻ الذي تستقي منه الأمة أحكامها وتشريعاتها في شتى شؤون حياتها. ويعتقد السلف أن للسُّنَّة استقلاليتها في تشريع الأحكام وهي كالقرآن في تحليل الحلال وتحريم الحرام، فالأحكام التي سكت القرآن عن بيان حكمها وورد في السُّنَّة بيانها، فإن السلف يعملون بهذه الأحكام ويأخذون بها، ولا يرون أن هناك تعارضاً البتة بين الأصلين.

كما يعتقد السلف أن علاقة السُّنَّة بالمصدر الأول الذي هو القرآن تسير وفق الأوجه **الثلاثة التالية**:

١ ـ أن تكون السُّنَّة موافقة للقرآن من كل وجه، فيكون توارد القرآن والسُّنَّة على الحكم الواحد من باب توارد الأدلة وتضافرها، وذلك مثل الأحاديث التي تفيد وجوب الصلاة والزكاة والحج والصوم من غير تعرض لشرائطها وأركانها.

٢ ـ أن تكون بياناً لما أريد بالقرآن وتفسيراً له، وذلك مثل الأحاديث التي فصَّلت أحكام وهيئات الصلاة والصيام والحج والبيوع والمعاملات التي وردت مجملة في القرآن، وهذا القسم هو أغلب ما في السُّنَّة وأكثرها وروداً.

٣ ـ أن تكون موجبة لحكم سكت القرآن على إيجابه، أو محرِّمة لما سكت عن تحريمه؛ كالأحاديث التي أثبتت حرمة الجمع بين المرأة وعمتها أو خالتها، وأحكام الشفعة وغير ذلك.

فالسُّنَّة الصحيحة لا تخرج عن هذه الضوابط، كما أنها لا تعارض القرآن بوجه ما، فما كان منها زائداً على القرآن فهو تشريع مبتدأ من النبي ﷺ تجب طاعته فيه ولا تحل معصيته، وليس هذا تقديماً لها على كتاب الله، بل امتثال لما أمر الله به من طاعة رسوله التي أمر الله بها

على جهة الاستقلال، فقال تعالى: ﴿وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ﴾ [المائدة: ٩٢]، وقال تعالى: ﴿مَّن يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ﴾ [النساء: ٨٠]، فهذه الطاعة المأمورون بها هي طاعة مختصة به ﷺ[١]، ويجب علينا العمل بها.

فالسلف يؤمنون «بأن الله سبحانه نصَّب رسول الله ﷺ منصب المبلِّغ المبيِّن عنه، فكل ما شرعه للأمة فهو بيان منه عن الله أن هذا شرعه ودينه، ولا فرق بين ما يبلغه عنه من كلامه المتلو ومن وحيه الذي هو نظير كلامه في وجوب الاتباع، ومخالفة هذا كمخالفة هذا.

فعلى سبيل المثال، فإن الله أمرنا بإقام الصلاة وإيتاء الزكاة وحج البيت وصوم رمضان، ثم جاء البيان عن رسوله ﷺ بمقادير ذلك وصفاته وشروطه، فوجب على الأمة قبوله، إذ هو تفصيل لما أمر الله به، كما يجب علينا قبول الأصل المفصل، وهكذا أمر الله سبحانه بطاعته وطاعة رسوله، فإذا أمر الرسول بأمر، كان تفصيلاً وبياناً للطاعة المأمور بها، وكان فرض قبوله كفرض قَبول الأصل المفصل، ولا فرق بينهما، والبيان من النبي ﷺ على أقسام:

أحدها: بيان نفس الوحي بظهوره على لسانه بعد أن كان خفياً.

الثاني: بيان معناه وتفسيره لمن احتاج إلى ذلك، كما بيَّن أن الظلم المذكور في قوله ﴿وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُم بِظُلْمٍ﴾ [الأنعام: ٨٢] هو الشرك، وأن الحساب اليسير هو العرض، وأن الخيط الأبيض والأسود هما بياض الليل وسواد النهار.

الثالث: بيانه بالفعل كما بيَّن أوقات الصلاة للسائل بفعله.

الرابع: بيان ما سئل عنه من الأحكام التي ليست في القرآن فنزل

(١) إعلام الموقعين (٢/ ٣٠٧، ٣٠٨).

القرآن ببيانها، كما سئل عن قذف الزوجة فجاء القرآن باللعان ونظائره.

الخامس: بيان ما سئل عنه بالوحي وإن لم يكن قرآناً، كما سئل عن رجل أحرم في جبة بعدما تضمخ بالخلوق، فجاء الوحي بأن ينزع عنه الجبة ويغسل أثر الخلوق.

السادس: بيانه للأحكام بالسُّنَّة ابتداءً من غير سؤال، كما حرَّم عليهم لحوم الحمر، والمتعة، وصيد المدينة، ونكاح المرأة على عمتها وخالتها وأمثال ذلك.

السابع: بيانه للأمة جواز الشيء بفعله هو له، وعدم نهيهم عن التأسي به.

الثامن: بيان جواز الشيء بإقراره لهم على فعله وهو يشاهده، أو يعلمهم يفعلونه.

التاسع: بيانه إباحة الشيء عفواً بالسكوت عن تحريمه وإن لم يأذن فيه نطقاً.

العاشر: أن يحكم القرآن بإيجاب شيء أو تحريمه أو إباحته ويكون لذلك الحكم شروط وموانع وقيود وأوقات مخصوصة وأحوال وأوصاف، فيحيل الرب ﷻ على رسوله في بيانها كقوله تعالى: ﴿وَأُحِلَّ لَكُم مَّا وَرَآءَ ذَٰلِكُمْ﴾ [النساء: ٢٤] فالحل موقوف على شروط النكاح وانتفاء موانعه وحضور وقته وأهلية المحل»[1].

ومن هذا المفهوم والتصور الواضح لأهمية السُّنَّة ومكانتها ودورها في التشريع انطلقت أفعال السلف مترجمة لهذا التصور، فكان من تلك الأفعال أن اعتنى السلف بالسُّنَّة فتضافرت جهود العلماء من لدن الصحابة والتابعين على حفظ السُّنَّة والعناية بها وصيانتها، فحظيت منذ ذلك الحين

(١) إعلام الموقعين (٢/ ٣١٤، ٣١٥).

بسياج من الحماية منقطع النظير، وقد اتبع الصحابة في ذلك كل سبيل يحفظ للسُّنَّة نورها وصفاءها، وكان من ذلك التحري والتثبت في روايتها خشية الوقوع في الخطأ وخوفاً من أن يتسرب إليها التصحيف والتحريف، بل إن بعضهم فضل الإقلال من الرواية.

قال ابن قتيبة(١): «كان عمر شديد الإنكار على من أكثر الرواية أو أتى بخبر الحكم لا شاهد له عليه، وكان يأمرهم بأن يقلوا من الرواية يريد بذلك أن لا يتسمع الناس فيها ويدخلها الشوب ويقع التدليس والكذب من المنافق والفاجر والأعرابي. وكان كثير من جلة الصحابة وأهل الخاصة برسول الله ﷺ؛ كأبي بكر والزبير(٢) وأبي عبيدة(٣) والعباس بن عبد المطلب يقلون الرواية عنه بل كان بعضهم لا يكاد يروي شيئاً كسعيد بن زيد بن عمرو بن نفيل(٤) وهو أحد العشرة المشهود لهم بالجنة»(٥).

ولقد تبعهم من بعدهم من التابعين ومن بعدهم على ذلك.

---

(١) عبد الله بن مسلم بن قتيبة الدينوري: صاحب التصانيف، صدوق قليل الرواية، توفي سنة (٢٧٦هـ). لسان الميزان (٣/ ٣٥٧ ـ ٣٥٩).

(٢) الزبير بن العوام: من أول من أسلم بمكة، كان يسميه رسول الله ﷺ «حواريه» لمحبته له، وهو أحد العشرة المشهود لهم بالجنة، قتل سنة (٣٦هـ). الإصابة (١/ ٥٢٦ ـ ٥٢٨).

(٣) أبو عبيدة عامر بن عبد الله الجراح: أمين هذه الأمة، وأحد العشرة السابقين إلى الإسلام، هاجر الهجرتين وشهد بدراً وما بعدها، توفي سنة (١٨هـ). الإصابة (٢/ ٢٤٣ ـ ٢٤٥).

(٤) سعيد بن زيد بن عمرو بن نفيل: أسلم قبل دخول رسول الله ﷺ دار الأرقم، شهد أُحداً والمشاهد بعدها وكان من فضلاء الصحابة، وأحد العشرة المشهود لهم بالجنة، توفي بالمدينة سنة خمسين، وقيل بعد ذلك. الإصابة (٢/ ٤٤).

(٥) كتاب تأويل مختلف الحديث، لابن قتيبة الدينوري (ص٣٠).

وكما احتاط السلف في التحديث احتاطوا وتثبتوا كذلك في قبول الأخبار عن رسول الله ﷺ، قال الذهبي: «كان أبو بكر رضي الله عنه أول من احتاط في قبول الأخبار، فروى ابن شهاب عن قبيصة بن ذؤيب[١] أن الجدة جاءت إلى أبي بكر تلتمس أن تورث فقال: لا أجد لك في كتاب الله شيئاً وما علمت أن رسول الله ﷺ ذكر لك شيئاً، ثم سأل الناس فقام المغيرة وقال: سمعت رسول الله ﷺ يعطيها السدس. فقال: هل معك غيرك؟، فشهد محمد بن مسلمة بمثل ذلك فأنفذه لها أبو بكر رضي الله عنه».

واستشار عمر بن الخطاب رضي الله عنه الناس في إملاص المرأة[٢]، فقال المغيرة بن شعبة[٣]: شهدت النبي ﷺ قضى فيه بغرة عبد أو أمة.

فقال عمر: ائتني بمن يشهد معك. قال: فشهد له محمد بن مسلمة[٤].

وحدث لعمر مثل هذه الحادثة مع كثير من الصحابة منهم أُبي بن كعب وأبو موسى. وفي رواية: قال عمر لأبي موسى: «أما إني لم أتهمك ولكن خشيت أن يتقوَّل الناس على رسول الله ﷺ»[٥].

وعن علي رضي الله عنه قال: «كنت إذا سمعت من رسول الله ﷺ حديثاً

---

(١) قبيصة بن ذؤيب بن حلحلة الخزاعي: تابعي ثقة، ولد عام الفتح، وكان من فقهاء أهل المدينة وصالحيهم، مات سنة (٨٦هـ) وقيل غير ذلك. تهذيب التهذيب (٨/ ٣٤٦، ٣٤٧).

(٢) هو أن تزلق الجنين قبل وقت الولادة. النهاية (٤/ ٣٥٦).

(٣) المغيرة بن شعبة بن أبي عامر الثقفي: صحابي جليل، أسلم قبل عمرة الحديبية، وشهدها وبيعة الرضوان، وكان من دهاة العرب، مات سنة خمسين عند الأكثر. الإصابة (٣/ ٤٣٣، ٤٣٤).

(٤) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب القسامة، باب دية الجنين (٥/ ١١١، ١١٢).

(٥) أخرجه الإمام مالك في الموطأ (٢/ ٩٦٤).

نفعني الله بما شاء منه، وإذا حدثني عنه غيري استحلفته فإذا حلف لي صدقته...»[١].

وهذا التثبت من الصحابة رضوان الله عليهم كان الحامل لهم عليه هو ألا يسترسل الناس في رواية الحديث ويتساهلوا فيه من غير تحر وتثبت كاف فيقعوا في الكذب على رسول الله ﷺ من حيث شعروا أو لم يشعروا، ويدلك على ذلك قول عمر بن الخطاب لأبي موسى الأشعري: «أما إني لم أتهمك ولكن خشيت أن يتقول الناس على رسول الله ﷺ».

وهذه الشواهد عن ثلاثة من الخلفاء الراشدين تترجم حرصهم وجهودهم في المحافظة على السُّنَّة بأن لا يشوبها ما ليس منها.

وقد تتابعت الجهود من الصحابة ومن جاء بعدهم على حفظ السُّنَّة وحمايتها إلى أن قعِّدت القواعد ووضعت الضوابط التي يعرف بها قوة الحديث أو وهنه، وكان من تلك الضوابط علم إسناد الحديث فقد اعتني بهذا الجانب منذ وقت مبكر، واهتم به العلماء حتى جعلوه من الدين، قال عبد الله بن المبارك[٢]: «الإسناد من الدين، لولا الإسناد لقال من شاء ما شاء»، وقال: «بيننا وبين القوم قوائم»؛ يعني: الإسناد[٣].

ولقد اشتغل علماء الحديث بنقد الرواة وبيان حالهم ومن تقبل روايته ومن لا تقبل من خلال دراسة الراوي سيرة وتاريخاً ومعتقداً وسلوكاً، ولم تأخذهم في ذلك لومة لائم، وقد قيل ليحيى بن سعيد القطان[٤]: «أما تخشى أن يكون هؤلاء الذين تركت حديثهم خصماءك

---

(١) أخرجه أحمد في مسنده (١/ ٢)، وأخرجه ابن ماجه في سننه، كتاب إقامة الصلاة والسُّنَّة فيها، باب ما جاء في أن الصلاة كفارة (١/ ٤٤٦) (ح١٣٩٥).

(٢) عبد الله بن المبارك المروزي: الإمام الحافظ، شيخ الإسلام، كان ثقة، مأموناً، حجة، كثير الحديث، مات سنة (١٨١هـ). تهذيب التهذيب (٥/ ٣٨٢ ـ ٣٨٩).

(٣) السُّنَّة ومكانتها في التشريع الإسلامي للدكتور مصطفى السباعي (ص٩٢).

(٤) يحيى بن سعيد بن فروخ القطان: من حفاظ الحديث، ثقة حجة من أقران =

عند الله يوم القيامة؟، فقال: لأن يكون هؤلاء خصمي أحب إلي من أن يكون خصمي رسول الله ﷺ يقول: «**لِمَ لَمْ تذُبَّ الكذب عن حديثي**»»(١).

وهذه لمحة وإشارة لما بذله السلف من جهود في حفظ السُّنَّة والذب عنها لتبقى منهلاً صافياً تستقي منه الأمة أمور دينها ودنياها وآخرتها حتى يتحقق لها اتباع رسولها محمد ﷺ الذي أمر الله بالاقتداء به والسير على نهجه والطاعة له في كل ما جاء به ﷺ.

❑ ثالثاً: ثم يلي الكتاب والسُّنَّة:

فيما يجب التسليم له من أصول ما كان في معناهما بدليل جامع، والمراد بذلك الإجماع والقياس الجلي الذي لا يصادم النص الشرعي.

قال الشافعي: «الحجة كتاب الله وسُنَّة رسوله ﷺ واتفاق الأئمة».

وقال أيضاً: «والعلم طبقات: الأولى: الكتاب والسُّنَّة الثابتة، ثم الإجماع فيما ليس في كتاب ولا سُنَّة.

الثالثة: أن يقول الصحابي فلا يعلم له مخالف من الصحابة.

الرابعة: اختلاف الصحابة.

الخامسة: القياس»(٢).

❁ ❁ ❁

= مالك وشعبة، مات سنة (١٩٨هـ). تهذيب التهذيب (١١/ ٢١٦ ـ ٢٢٥).

(١) السُّنَّة ومكانتها (ص٩٣).

(٢) إعلام الموقعين (٢/ ٢٤٨).

المطلب الثاني

محاربة السلف لما يناقض الاتباع

من الأمور التي سار عليها السلف في طاعتهم واتباعهم للنبي ﷺ، وجعلوها منهجاً لهم في الاتباع محاربتهم لذلك الثالوث الخطير المتمثل في: البدعة، والتقليد، والرأي.

فالسلف يعدون ذلك الثالوث مرضاً خطيراً متى استشرى وانتشر في الأمة فإنه يفتك بعقيدتها وما هي عليه من الاتباع والسُّنَّة.

قال ابن عباس رضي الله عنهما: «ما من عام إلا والناس يحيون فيه بدعة ويميتون فيه سُنَّة حتى تحيا البدع وتموت السنن»[(١)].

وعن جابر بن زيد[(٢)] أن ابن عمر لقيه في الطواف فقال: «يا أبا الشعثاء إنك من فقهاء البصرة فلا تُفْتِ إلا بقرآن ناطق أو سُنَّة ماضية، فإنك إن فعلت غير ذلك هلكت وأهلكت»[(٣)].

وعن ابن مسعود رضي الله عنه قال: «لا يقلدن أحدكم دينه رجلاً إن آمن آمن، وإن كفر كفر، فإنه لا أسوة في الشر»[(٤)].

وهذه النصوص الثلاثة المنقولة عن ثلاثة من أصحاب رسول الله ﷺ

---

(١) البدع والنهي عنها لابن وضاح (ص٣٩).

(٢) جابر بن زيد الأزدي أبو الشعثاء البصري: تابعي، ثقة، كان من أعلم الناس بكتاب الله، مات سنة (٩٣هـ) وقيل بعدها. تهذيب التهذيب (٢/ ٣٨).

(٣) أخرجه الدارمي في السنن (١/ ٥٩).

(٤) إعلام الموقعين (٢/ ١٩٥).

تصور عظم خطر تلك الأمور على الأمة، كما تصور حرصهم على تحذير الأمة من خطرها وشرها الذي يهدد عقيدتهم وما هم عليه من الاتباع والسُّنَّة.

❐ أ ـ محاربتهم للبدعة:

فأول تلك الأمور وأشدها خطراً على الأمة «البدعة»، فالابتداع في الدين قد حذر منه النبي ﷺ بقوله: «**إياكم ومحدثات الأمور فإن كل محدثة بدعة وكل بدعة ضلالة**».

وقال: «**فإن خير الحديث كتاب الله، وخير الهدي هدي محمد، وشر الأمور محدثاتها، وكل بدعة ضلالة**»(١).

كما بيَّن حكم البدعة بقوله: «**من عمل عملاً ليس عليه أمرنا فهو رد**»(٢).

ومع وقفة تأمل لما ورد في هذه الأحاديث نلمس **الأمور التالية**:

ففي الحديث الأول والثاني وصف ﷺ البدعة بكونها ضلالة وانحرافاً عن الطريق والصراط المستقيم الذي رسمه ﷺ لهذه الأمة والذي أوجب الله علينا اتباعه فيه.

---

(١) أخرجه بهذا اللفظ مسلم في صحيحه، كتاب الجمعة، باب تخفيف الصلاة والخطبة (٣/ ١١)؛ وأخرجه البخاري موقوفاً، كتاب الاعتصام بالكتاب والسُّنَّة، باب الاقتداء بسنن الرسول ﷺ. انظر: فتح الباري (١٣/ ٢٤٩) (ح٧٢٧٧).

(٢) أخرجه بهذا اللفظ مسلم في صحيحه، كتاب الأقضية، باب نقض الأحكام الباطلة ورد محدثات الأمور (٥/ ١٣٢)، وفي رواية: «**من أحدث في أمرنا هذا ما ليس منه فهو رد**». وهذه الرواية أخرجها البخاري في صحيحه، كتاب الصلح، باب إذا اصطلحوا على صلح جور فالصلح مردود. فتح الباري (٥/ ٣٠١) (ح٢٦٩٧).

فالبدعة في الدين طريق غواية وضلال يجب الحذر منه والبعد عنه، وهي إضافة إلى ذلك فإنها مخالفة لسُنَّة المصطفى ﷺ ومحاربة لما جاء به من الهدى والنور، إذ الوقوع في هذا المزلق الخطر الذي هو «البدعة» يترتب عليه أمور خطيرة منها الطعن في الدين؛ لأن لسان حال المبتدع يقول: إن الشريعة لم تتم وإنه بقي منها أشياء يجب استدراكها؛ لأنه لو كان معتقداً لكمالها وتمامها من كل وجه لم يبتدع ولم يستدرك عليها.

وإضافة إلى ذلك فإن المبتدع معاند للشرع ومشاق له؛ لأن الشارع قد عيَّن لمطالب العبد طرقاً خاصة على وجوه خاصة، وقَصَرَ الخلق عليها بالأمر والنهي والوعد والوعيد، وأخبر أن الخير فيها وأن الشر في تعديها إلى غير ذلك. فالمبتدع بحاله تلك يزعم أن ثَمَّ طُرقاً أُخر وليس ما حصره الشارع بمحصور، ولا ما عيَّنه بمتعين، بل ربما يفهم من استدراكه الطرق على الشارع أنه علم ما لا يعلم الشارع، وأحاط بما لم يحط به، وهذا هو بعينه الضلال المبين الذي وصف النبي ﷺ البدعة به حين قال: «**وكل بدعة ضلالة**»[1].

ومع هذا وذاك فقد تُجعل البدعة مع مرور الزمن ونتيجة لانتشارها بين الناس من الدين، فتصبح سُنَّة يستنُّون بها وبخاصة العوام منهم الذين اعتادوا على التقليد والأخذ بكل ما هو منتشر بين الناس. بينما في الوقت نفسه تصبح السنن لغرابتها والجهل بها بدعاً، وهذا هو الحال في كل زمان ومكان انتشرت وعمَّت فيه البدع، وقلَّ فيه العلماء بأمور السُّنَّة.

وأما الحديث الثالث وهو قوله ﷺ: «**من أحدث في أمرنا هذا ما ليس منه فهو رد**»، فهو حكم صريح على كل أمر محدث مبتدع في الدين وليس له أصل في الشرع بالرد وعدم القبول، ولا شك أن هذا الحكم بتر

---

(١) الإبداع في مضار الابتداع للشيخ علي محفوظ (ص٩٩) بتصرف.

لكل ما هو مبتدع في دين الله وشرعه، وإسقاط له. إضافة إلى كونه حماية لشرع الله من كل ما يخل به.

ولقد اتخذ السلف من أحاديث النبي ﷺ في هذا الشأن قواعد ساروا عليها في سبيل محافظتهم على السُّنَّة وصيانتها من شوائب البدع وشرورها. وإن المتأمل للنصوص الواردة عنهم في هذا الخصوص يلمس مدى حرصهم وتطبيقهم للتوجيهات النبوية التي تلقوها عن رسول الهدى ﷺ.

فعن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: «اتبعوا آثارنا ولا تبتدعوا فقد كفيتم»[1].

وعنه أنه رأى أناساً يسبِّحون بالحصا فقال: «على الله تحصون، لقد سبقتم أصحاب محمد علماً أو لقد أحدثتم بدعة ظلماً»[2].

وعنه أنه قال: «الاقتصاد في السُّنَّة خير من الاجتهاد في البدعة».

وعن حذيفة رضي الله عنه أنه قال: «أخوف ما أخاف على الناس اثنتان: أن يؤثروا ما يرون على ما يعلمون، وأن يضلوا وهم لا يشعرون».

قال سفيان: هو صاحب البدعة[3].

وكان حذيفة رضي الله عنه يدخل المسجد فيقف على الخلق فيقول: «يا معشر القراء اسلكوا الطريق فلئن سلكتموها لقد سبقتم سبقاً بعيداً، ولئن أخذتم يميناً وشمالاً لقد ضللتم ضلالاً بعيداً».

وعن عبد الله بن عباس رضي الله عنهما أنه قال: «والله ما أظن على ظهر الأرض اليوم أحداً أحب إلى الشيطان هلاكاً مني. فقيل: كيف؟، فقال: والله إنه ليحدث البدعة في مشرق أو مغرب فيحملها الرجل إلي، فإذا

---

(١) أخرجه محمد بن وضاح في البدع والنهي عنها (ص١٠).
(٢) المصدر السابق (ص١١).
(٣) الإبداع في مضار الابتداع (ص٩٦).

انتهت إلي قمعتها بالسُّنَّة فترد عليه»[١].

وعنه رضي الله عنه أنه قال: «عليكم بالاستقامة والأثر وإياكم والتبدع»[٢].

وعن معاذ بن جبل رضي الله عنه قال: «أوشك قائل من الناس يقول: قد قرأت القرآن ولا أرى الناس يتبعوني، ما هم متبعي حتى أبتدع لهم غيره، فإياكم وما ابتُدع فإن كل ما ابتُدع ضلالة»[٣].

وعنه أنه قال: «أيها الناس عليكم بالعلم قبل أن يرفع، ألا وإن رفعه ذهاب أهله، وإياكم والبدع والتبدع والتنطع، وعليكم بأمركم العتيق»[٤].

وعن ابن عمر رضي الله عنهما قال: «كل بدعة ضلالة وإن رآها الناس حسنة»[٥].

وعن الحسن البصري[٦] قال: «صاحب البدعة لا يزداد اجتهاداً صياماً وصلاة إلا ازداد من الله بعداً»[٧].

وعنه قال: «لا تجالس صاحب بدعة فإنه يمرض قلبك»[٨].

وعن أيوب السختياني أنه كان يقول: «ما ازداد صاحب بدعة اجتهاداً إلا ازداد من الله بُعداً»[٩].

---

(١) أخرجه اللالكائي في السُّنَّة (١/ ٥٥) (ح١٢).
(٢) أخرجه ابن وضاح في البدع والنهي عنها (ص٢٥).
(٣) المصدر السابق (ص٢٥).
(٤) المصدر السابق (ص٢٥).
(٥) أخرجه اللالكائي في السُّنَّة (١/ ٩٢) (ح٢٢٦).
(٦) الحسن بن يسار البصري: ولد في عهد عمر، كان جامعاً، عالماً، رفيعاً، ثقة، مأموناً، عابداً، ناسكاً، كبير العلم فصيحاً، توفي سنة (١١٠هـ). الطبقات لابن سعد (٧/ ١٥٦).
(٧) البدع والنهي عنها، لابن وضاح (ص٢٧).
(٨) المصدر السابق (ص٤٧).
(٩) المصدر السابق (ص٢٧).

وعن سفيان الثوري قال: «من جالس صاحب بدعة لم يسلم من إحدى ثلاث: إما أن يكون فتنة لغيره. وإما أن يقع في قلبه شيء فيزل به فيدخله الله في النار. وإما أن يقول: والله ما أبالي ما تكلموا وإني واثق بنفسي، فمن أمن الله على دينه طرفة عين سلبه إياه»(١).

وقال: «البدعة أحب إلى إبليس من المعصية، فإن المعصية يتاب منها والبدعة لا يتاب منها»(٢).

وعن أبي قلابة(٣) أنه قال: «لا تجالسوا أهل الأهواء ولا تجادلوهم، فإني لا آمن أن يغمسوكم في ضلالتهم أو يلبسوا عليكم ما كنتم تعرفون»(٤).

وبعد: فما نقلته ههنا يعد جزءاً يسيراً جداً مما ورد عن السلف من نصوص في الحث على ترك الابتداع في الدين والتحذير من مخاطره ومغبة الإقدام عليه وموقفهم من أهله، فلقد اشتد نكير السلف على البدعة وأصحابها، والمجال هنا لا يتسع للاستفاضة في هذا الموضوع، وبما ذكر يحصل المقصود.

□ ب ـ محاربتهم للتقليد:

وأما الأمر الثاني من الأمور التي تشكل خطورة على الاتباع والسُّنَّة في رأي السلف فهو «التقليد». والفرق بينه وبين الاتباع أن التقليد: هو الرجوع إلى قول لا حجة لقائله عليه.

وأما الاتباع: فهو ما ثبت عليه الحجة.

---

(١) البدع والنهي عنها، لابن وضاح (ص٤٧).
(٢) مجموع الفتاوى (١١/ ٤٧٢).
(٣) أبو قلابة: عبد الله بن زيد الجرمي: أحد الأعلام. قال أيوب السختياني: «كان والله من الفقهاء ذوي الألباب»، توفي سنة (١٠٤هـ)، وقيل غير ذلك. تهذيب التهذيب (٥/ ٢٢٤، ٢٢٦).
(٤) البدع والنهي عنها (ص٤٨).

فكل من اتبعت قوله من غير أن يجب عليك قَبوله بدليل يوجب ذلك فأنت مقلده. وكل من أوجب الدليل عليك اتباع قوله فأنت متبعه.

والاتباع في الدين مسوغ، والتقليد ممنوع[(١)].

والتقليد الممنوع على ثلاثة أشكال:

أحدها: الإعراض عما أنزل الله وعدم الالتفات إليه اكتفاء بتقليد الآباء أو المشايخ.

الثاني: تقليد من لا يعلم المقلد أنه أهل لأن يؤخذ بقوله.

الثالث: التقليد بعد قيام الحجة وظهور الدليل على خلاف قول المقلد.

ولقد حارب السلف هذا النوع من التقليد وذمّوه واعتبروه مزلقاً خطيراً يحرِّف المسلم وينحيه عن المنبع الذي يستمد منه دينه، ويجعله عرضة لكل بدعة، ومنقاداً لكل شبهة، وتبعاً لكل ناعق، وإضافة إلى ذلك فإن التقليد له صلة وثيقة بالبدعة، فالبدعة تؤخذ في غالب الأمر تقليداً لشيخ يعظم أو والد يحترم أو مجتمع تقدس فيه عاداته، ولذلك كان التقليد والابتداع سببين رئيسيين في ضلال الأمم وانحرافها عن منهج أنبيائهم.

وقد حكى الله في كتابه العزيز عن بني إسرائيل أنهم سألوا موسى عليه السلام أن يجعل لهم إلٰهاً من الأصنام مقلدين في ذلك من مرّوا عليهم من عباد الأصنام، قال تعالى: ﴿وَجَٰوَزْنَا بِبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْبَحْرَ فَأَتَوْا۟ عَلَىٰ قَوْمٍ يَعْكُفُونَ عَلَىٰٓ أَصْنَامٍ لَّهُمْ ۚ قَالُوا۟ يَٰمُوسَى ٱجْعَل لَّنَآ إِلَٰهًا كَمَا لَهُمْ ءَالِهَةٌ ۚ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ ﴿١٣٨﴾ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ مُتَبَّرٌ مَّا هُمْ فِيهِ وَبَٰطِلٌ مَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٣٩﴾﴾ [الأعراف]، كما ذكر سبحانه أن ما وقع فيه اليهود

---

(١) إعلام الموقعين (٢/١٩٧).

والنصارى من الكفر بقول اليهود: عُزير ابن الله، وقول النصارى: المسيح ابن الله إنما هو نتيجة التقليد لمن قبلهم من الوثنيين، قال تعالى: ﴿وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ عُزَيْرٌ ٱبْنُ ٱللَّهِ وَقَالَتِ ٱلنَّصَـٰرَى ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ ٱللَّهِ ذَٰلِكَ قَوْلُهُم بِأَفْوَٰهِهِمْ يُضَـٰهِـُٔونَ قَوْلَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَبْلُ قَـٰتَلَهُمُ ٱللَّهُ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴿٣٠﴾﴾ [التوبة].

كما ذمَّ سبحانه صنيع اليهود والنصارى مع علمائهم حيث قلَّدوهم في جميع ما يقولون، فأحلوا لهم ما حرم الله، وحرموا عليهم ما أحل الله، قال تعالى: ﴿ٱتَّخَذُوٓا۟ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَـٰنَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ﴾ [التوبة: ٣١].

كما ذم ﷻ من امتنع عن قبول الحق تقليداً للآباء فقال تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ مَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ فِى قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَآ إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَـٰرِهِم مُّقْتَدُونَ ﴿٢٣﴾ قَـٰلَ أَوَلَوْ جِئْتُكُم بِأَهْدَىٰ مِمَّا وَجَدتُّمْ عَلَيْهِ ءَابَآءَكُمْ﴾ [الزخرف].

قال ابن القيم رحمه الله تعالى: «وقد احتج العلماء بهذه الآيات في إبطال التقليد ولم يمنعهم كفر أولئك من الاحتجاج بها؛ لأن التشبيه لم يقع من جهة كفر أحدهما وإيمان الآخر، وإنما وقع التشبيه بين المقلدين بغير حجة للمقلد، كما لو قلد رجلاً فكفر، وقلد آخر فأذنب، وقلد آخر في مسألة فأخطأ وجهها، كان كل واحد ملوماً على التقليد بغير حجة؛ لأن كل ذلك تقليد يشبه بعضه بعضاً وإن اختلفت الآثام فيه»(١).

وقال رسول الله ﷺ: «**إني لا أخاف على أمتي من بعدي إلا من أعمال ثلاثة**»، قالوا: وما هي يا رسول الله؟، قال: «**أخاف عليهم: زلة العالم، ومن حكم جائر، ومن هوى متبع**»(٢)، ومن المعلوم أن الخوف من

---

(١) إعلام الموقعين (٢/ ١٩١).

(٢) أخرجه الدارمي في سننه، المقدمة باب (٢٣).

زلة العالم تقليده فيها، إذ لولا التقليد لما يخف من زلة العالم على غيره.

قال ابن القيم: «والمصنفون في السُّنَّة جمعوا بين فساد التقليد وبيان زلة العالم ليبينوا بذلك فساد التقليد، وأن العالم قد يزل ولا بد إذ ليس بمعصوم، فلا يجوز قبول كل ما يقوله ويُنزل قوله منزلة قول المعصوم، فهذا الذي ذمه كل عالم على وجه الأرض، وحرموه، وذموا أهله، وهو أصل بلاء المقلدين وفتنتهم، فإنهم يقلدون العالم فيما زل فيه وفيما لم يزل فيه، وليس لهم تمييز بين ذلك، فيأخذون الدين بالخطأ ولا بد فيحلون ما حرم الله، ويحرمون ما أحل الله، ويشرعون ما لم يشرع، ولا بد لهم من ذلك إذ كانت العصمة منتفية عمن قلدوه، فالخطأ واقع منه ولا بد»(١).

قال الشعبي: قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: «يفسد الزمان ثلاثة: أئمة مضلُّون، وجدالُ منافقٍ بالقرآن، والقرآن حق، وزلة عالم»(٢)، وعن ابن عباس رضي الله عنهما قال: «ويل للأتباع من عثرات العالم». قيل: وكيف ذاك يا أبا العباس؟، قال: «يقول العالم من قبل رأيه، ثم يسمع الحديث عن النبي ﷺ فيدع ما كان عليه»، وفي لفظ: «فيلقى من هو أعلم برسول الله ﷺ منه فيخبره فيرجع ويقضي الأتباع بما حكم»(٣).

وعن ابن مسعود رضي الله عنه قال: «لا يقلدن أحدكم دينه رجلاً إن آمن آمن وإن كفر كفر، فإنه لا أسوة في الشر»(٤).

قال ابن القيم: «والفرق بين تجريد متابعة المعصوم ﷺ وإهدار أقوال العلماء وإلغائها: أن تجريد المتابعة أن لا تُقدم على ما جاء به قول أحد ولا رأيه كائناً من كان. بل تنظر في صحة الحديث أولاً. فإذا

(١) إعلام الموقعين (٢/ ١٩٢).
(٢) المصدر السابق (٢/ ١٩٣).
(٣) المصدر السابق
(٤) المصدر السابق (٢/ ١٩٥).

صح لك نظرت في معناه ثانياً، فإذا تبين لك لم تعدل عنه ولو خالفك من بين المشرق والمغرب، ومعاذ الله أن تتفق الأمة على مخالفة ما جاء به نبيها بل لا بد أن يكون في الأمة من قال به ولو لم تعلمه، فلا تجعل جهلك بالقائل به حجة على الله ورسوله بل اذهب إلى النص ولا تضعف، واعلم أنه قد قال به قائل قطعاً ولكن لم يصل إليك. هذا مع حفظ مراتب العلماء وموالاتهم واعتقاد حرمتهم وأمانتهم واجتهادهم في حفظ الدين وضبطه، فهم دائرون بين الأجر والأجرين والمغفرة، ولكن لا يوجب هذا إهدار النصوص وتقديم قول الواحد منهم عليها بشبهة أنه أعلم بها منك، فإن كان كذلك فمن ذهب إلى النص أعلم به منك أيضاً فهلَّا وافقته إن كنت صادقاً؟.

فمن عرض أقوال العلماء على النصوص ووزنها، وخالف منها ما خالف النص لم يهدر أقوالهم ولم يهضم جانبهم بل اقتدى بهم، فإنهم كلهم أمروا بذلك، فمتبعهم حقاً من امتثل ما أوصوا به لا من خالفهم، فخلافهم في القول الذي جاء النص بخلافه أسهل من مخالفتهم في القاعدة الكلية التي أمروا بها ودعوا إليها من تقديم النص على أقوالهم.

ومن هنا يتبين الفرق بين تقليد العالم في كل ما قال وبين الاستعانة بفهمه والاستضاءة بنور علمه.

فالأول يأخذ قوله من غير نظر فيه ولا طلب لدليله من الكتاب والسُّنَّة، بل يجعل ذلك كالحبل الذي يلقيه في عنقه يقلد به، ولذلك سمي تقليداً. بخلاف من استعان بفهمه واستضاء بنور علمه في الوصول إلى سُنَّة الرسول صلوات الله وسلامه عليه، فإنه يجعلهم بمنزلة الدليل إلى الدليل الأول، فإذا وصل استغنى بدلالته على الاستدلال بغيره فمن استدل بالنجم على القبلة فإنه إذا شاهدها لم يبق لاستدلاله بالنجم معنى.

قال الشافعي: «أجمع الناس على أن من استبانت له سُنَّة

الرسول ﷺ لم يكن له أن يدعها لقول أحد»[١].

□ ج ـ محاربتهم للرأي الباطل:

وأما الأمر الثالث من الأمور التي يرى السلف أنها تناقض الاتباع وتضاده فهو «الرأي».

فعن عبد الله بن عمرو بن العاص قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**إن الله لا ينزع العلم بعد إذ أعطاكموه انتزاعاً، ولكن ينتزعه منهم مع قبض العلماء بعلمهم، فيبقى ناس جهال يستفتون فيفتون برأيهم فيضلون ويضلون**»[٢]، والمقصود به هو الرأي الباطل الذي ليس من الدين؛ لأن الرأي ينقسم إلى ثلاثة أقسام:

١ ـ رأي باطل بلا ريب.

٢ ـ رأي صحيح.

٣ ـ رأي هو موضع الاشتباه.

والأقسام الثلاثة قد أشار إليها السلف، فاستعملوا الرأي الصحيح وعملوا به وأفتوا به، وسوَّغوا القول به. وذموا الباطل ومنعوا من العمل والفتيا والقضاء به، وأطلقوا ألسنتهم بذمه وذم أهله.

والقسم الثالث: سوَّغوا العمل والفتيا والقضاء به عند الاضطرار إليه حيث لا يوجد منه بد، ولم يلزموا أحداً العمل به، ولم يحرموا مخالفته ولا جعلوا مخالفته مخالفاً للدين، بل غايته أنهم خيروا بين قبوله ورده، فهو بمنزلة ما أبيح للمضطر من الطعام والشراب الذي يحرم عند عدم الضرورة إليه[٣].

---

(١) الروح لابن القيم (٢/ ٧٦٨، ٧٦٩).

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الاعتصام، باب ما يذكر من ذم الرأي. فتح الباري (١٣/ ٢٨٢) (ح٧٣٠٧).

(٣) إعلام الموقعين (١/ ٦٧). وقد تناول ابن القيم في هذا الكتاب القول بالتفصيل =

والحديث ههنا يتناول الرأي الباطل فقط، **وهو على أنواع:**

أحدها: الرأي المخالف للنص، وهذا مما يُعلم بالاضطرار من دين الإسلام فساده وبطلانه، ولا تحل الفتيا به ولا القضاء، وإن وقع فيه من وقع بنوع تأويل وتقليد.

الثاني: هو الكلام في الدين بالخرص والظن، مع التفريط والتقصير في معرفة النصوص وفهمها واستنباط الأحكام منها، فإن من جهلها وقاس برأيه فيما سئل عنه بغير علم، بل لمجرد قدر جامع بين الشيئين ألحق أحدهما بالآخر أو لمجرد قدر فارق يراه بينهما يفرق بينهما في الحكم، من غير نظر إلى النصوص والآثار، فقد وقع في الرأي المذموم الباطل.

النوع الثالث: الرأي المتضمن تعطيل أسماء الرب وصفاته وأفعاله بالمقاييس الباطلة التي وضعها أهل البدع والضلال من الجهمية والمعتزلة والقدرية(١) ومن ضاهاهم، حيث استعمل أهله قياساتهم الفاسدة وآراءهم الباطلة وشبههم الداحضة في رد النصوص الصحيحة الصريحة، فردوا لأجلها ألفاظ النصوص التي وجدوا السبيل إلى تكذيب رواتها وتخطئتهم، ومعاني النصوص التي لم يجدوا إلى رد ألفاظها سبيلاً، فقابلوا النوع الأول بالتكذيب، والنوع الثاني بالتحريف والتأويل، فأنكروا لذلك رؤية المؤمنين لربهم في الآخرة، وأنكروا كلامه وتكليمه لعباده، وأنكروا مباينته للعالم، واستواءه على عرشه وعلوه على المخلوقات، وعموم قدرته على كل شيء، بل أخرجوا أفعال عباده من الملائكة

= عن أنواع الرأي، فمن أراد التوسع والاستفادة فليرجع إليه.

(١) سموا بذلك لقولهم في القدر، وهم يزعمون أن العبد هو الذي يخلق فعله استقلالاً، فأثبتوا خالقاً مع الله. الملل والنحل (١/ ٥٤)، ومجموع الفتاوى (٨/ ٢٥٦)

والأنبياء والجن والإنس عن تعلق قدرته ومشيئته وتكوينه لها، ونفوا لأجلها حقائق ما أخبر به عن نفسه وأخبر به رسوله من صفات كماله ونعوت جلاله، وحرَّفوا لأجلها النصوص عن مواضعها وأخرجوها عن معانيها وحقائقها بالرأي المجرد الذي حقيقته أنه زبالة الأذهان ونخالة الأفكار، وعفارة[1] الآراء ووساوس الصدور، فملؤوا به الأوراق سواداً، والقلوب شكوكاً، والعالم فساداً.

وكل من له مُسكة من عقل يعلم أن فساد العالم وخرابه إنما نشأ من تقديم الرأي على الوحي، والهوى على العقل، وما استحكم هذان الأصلان الفاسدان في قلب إلا استحكم هلاكه، وفي أمة إلا فسد أمرها أتم فساد، فلا إلٰه إلا الله كم نفي بهذه الآراء من حق، وأثبت بها من باطل، وأميت بها من هدى وأحيي بها من ضلالة؟ وكم هدم بها من معقل للإيمان، وعمر بها من دين الشيطان؟ وأكثر أصحاب الجحيم هم أهل هذه الآراء الذين لا سمع لهم ولا عقل بل هم شر من الحُمُر، وهم الذين يقولون يوم القيامة: ﴿وَقَالُواْ لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِيٓ أَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ ﴿١٠﴾﴾ [الملك].

النوع الرابع: الرأي الذي أحدثت به البدع، وغيرت به السنن وعم به البلاء، وتولى عليه الصغير، وهرم فيه الكبير.

فهذه الأنواع الأربعة من الرأي الذي اتفق سلف الأمة وأئمتها على ذمه لإخراجه من الدين[2].

ومما ورد عن السلف في ذم الرأي الذي من هذا القبيل **ما يلي**:

عن أبي بكر الصديق ﷺ أنه قال: «أيُّ أرض تقلني وأي سماء تظلني إن قلت في آية من كتاب الله برأيي، أو بما لا أعلم»[3].

---

(١) العفارة: الخبث والشيطنة. النهاية (٣/ ٢٦٢).

(٢) إعلام الموقعين (١/ ٦٧ ـ ٦٩). (٣) المصدر السابق (١/ ٥٤).

وروي عن عمر بن الخطاب ﷺ أنه قال: «اتقوا الرأي في دينكم»[(١)].

وروي عنه كذلك قوله: «أصحاب الرأي أعداء السنن، أعيتهم الأحاديث أن يحفظوها وتفلتت منهم أن يعوها، واستحيوا حين سُئلوا أن يقولوا لا نعلم، فعارضوا السنن برأيهم، فإياكم وإياهم»[(٢)].

وعن علي بن أبي طالب ﷺ أنه قال: «لو كان الدين بالرأي لكان أسفل الخف أولى بالمسح من أعلاه»[(٣)].

وعن ابن عباس ﷺ قال: «إنما هو كتاب الله وسُنَّة رسول الله ﷺ فمن قال بعد ذلك برأيه فلا أدري أفي حسناته يجد ذلك أم في سيئاته»[(٤)].

وعن عبد الله بن مسعود ﷺ أنه قال: «لا يأتي عليكم عام إلا هو شر من الذي قبله، أما إني لا أقول أمير خير من أمير، ولا عام أخصب من عام، ولكن فقهاؤكم يذهبون ثم لا تجدون منهم خلفاً، ويجيء قوم يقيسون الأمور برأيهم»[(٥)].

ومما ورد كذلك من الآثار عن التابعين **ما يلي**:

قول الشعبي: «ما جاءكم به هؤلاء من أصحاب رسول الله ﷺ فخذوه، وما كان رأيهم فاطرحوه في الحش»[(٦)].

---

(١) إعلام الموقعين (١/ ٥٥). (٢) المصدر السابق (١/ ٥٥).
(٣) أخرجه أبو داود في سننه، كتاب الطهارة، باب كيف المسح (١/ ١١٤، ١١٥) (ح١٦٢)، وأورده ابن القيم في إعلام الموقعين (١/ ٥٨).
(٤) إعلام الموقعين (١/ ٥٨، ٥٩).
(٥) أخرجه الدارمي في السنن، المقدمة، باب تغير الزمان وما يحدث فيه (١/ ٦٥). وأورده ابن القيم في إعلام الموقعين (١/ ٥٧).
(٦) إعلام الموقعين (١/ ٧٣).

وعن ابن شهاب الزهري قال: «دعوا السُّنَّة تمضي، لا تعرضوا لها بالرأي»[١].

وعن عمر بن عبد العزيز أنه كتب إلى الناس: «أنه لا رأي لأحد مع سُنَّة سنَّها رسول الله ﷺ»[٢].

فهذه الأقوال عن أولئك الأئمة من الصحابة والتابعين أجمعت على إخراج الرأي عن العلم وذمه والتحذير منه والنهي عن الفتيا به، فرضي الله عن أئمة الإسلام وجزاهم عن نصيحتهم خيراً، ولقد سلك سبيلهم أهل العلم والدين من أتباعهم.

❁ ❁ ❁

(١) إعلام الموقعين (١/ ٧٤).
(٢) المصدر السابق (١/ ٧٤).

المبحث الثالث

التحذير من معصية الرسول ﷺ وحكم من خالفه

وفيه تمهيد ومطلبان:

المطلب الأول: الأدلة من القرآن الكريم على التحذير من معصية الرسول ﷺ وحكم من خالفه.

المطلب الثاني: الأدلة من السُّنَّة على التحذير من معصية الرسول ﷺ وحكم من خالفه.

تمهيد

«من المعلوم لكل من عنده مسكة من عقل أن الله ﷻ لم يخلق هذا الخلق عبثاً كما قال تعالى: ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ ﴿١١٥﴾﴾ [المؤمنون]، وكما قال: ﴿أَيَحْسَبُ الْإِنسَانُ أَن يُتْرَكَ سُدًى ﴿٣٦﴾﴾ [القيامة]؛ أي: مهملاً هملاً، لا يؤمر ولا ينهى، ولا يثاب ولا يعاقب.

والغاية التي خلق من أجلها الجن والإنس هي التي أخبر الحق تبارك وتعالى عنها بقوله: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾﴾ [الذاريات]، فهو سبحانه خلقهم للأمر والنهي في الدنيا، والثواب أو العقاب في الآخرة.

وإذا تمهد هذا فإنه يعلم مدى حاجتهم وضرورتهم إلى الشريعة وأحكامها، إذ بواسطتها يتعرف على مواقع رضى الله وسخطه في حركات العباد الاختيارية.

والناس أحوج ما يكونون إلى معرفة ما جاء به الرسول ﷺ والقيام به والدعوة إليه والصبر عليه وجهاد من خرج عنه حتى يرجع إليه، إذ ليس للعالم صلاح بدون ذلك البتة»(١).

ولذلك فرض الله على الإنس والجن طاعة من أرسل من الرسل

---

(١) كتاب: «تحذير أهل الإيمان عن الحكم بغير ما أنزل الرحمٰن»، تأليف الشيخ إسماعيل بن إبراهيم الخطيب الحسني الأسعردي مطبوع ضمن الرسائل المنيرية (١/ ١٤٠، ١٤١) بتصرف.

وفي هذا يقول الحق تبارك وتعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾ [النساء: ٦٤]؛ فالطاعة بذلك متحتمة على من شملتهم دعوة الرسل.

وقد بعث الله نبيه ورسوله محمداً ﷺ إلى الناس كافة قال تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا كَآفَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا﴾ [سبأ: ٢٨]، وبذلك عمَّت دعوته كل الأمم سواء كانوا في زمانه أو في الأزمان التالية من بعده وذلك على اختلاف تلك الأمم في ألوانها وأجناسها ولغاتها وشرائعها بما فيهم أهل الكتاب ـ اليهود والنصارى ـ، فترتب على عموم الرسالة أن نسخت الشرائع السابقة لشريعته ﷺ فلم يبق من طريق يوصل إلى عبادة الله ورضوانه سوى طريق خاتم الأنبياء والمرسلين محمد عليه أفضل الصلاة والتسليم فلا حجة لأحد دون حجته ولا يستقيم لعاقل سبيل سوى واضح محجته.

وقد جمعت سُنَّته ﷺ تحت حكمتها كل معنى حكيم فلا يسمع بعد بيانها خلاف مخالف ولا قول مختلق، ومن تبع سُنَّته فهو على نور من ربه، وبصيرة من أمره، والمائل عن شرعه، واقع في ظلمته، مرتبك في حيرته، ومرتكس في ضلاله وشقاوته.

ولذلك كان لزاماً على الجن والإنس أن يستجيبوا له ﷺ ويتبعوا شريعته ظاهراً وباطناً.

وقد وعد الله المستجيب منهم أن يدخله جنته ويسبغ عليه رضاه ومحبته. وتوعد المخالف منهم بأن يذيقه أليم عقابه ويلقيه في جهنم ليعلم بذلك كيف يكون مصيره وعاقبته.

وإن آيات القرآن ونصوص السُّنَّة في هذا الشأن كثيرة جداً، وقد تقدم إيراد الأدلة الواردة في وجوب طاعته واتباعه.

وفي هذا المبحث سأتناول بإذن الله الأدلة الواردة في حكم

مخالفته ﷺ والبعد عن سُنَّته والعقوبات الدنيوية والأخروية المترتبة على تلك المخالفات على تنوع صورها وأشكالها سواء كانت إعراضاً وكفراً، أو بدعة، أو معصية، أو غير ذلك.

وعسى أن يكون فيما سيعرض من آيات قرآنية وأحاديث نبوية تذكرة وعِظة، وخاصة أننا نعيش في زمان نحتاج فيه إلى التمعُّن في هذه النصوص وتدبرها لكثرة ما يقع من الإعراض والمخالفة لشرع النبي ﷺ ونهجه عند كثير من الناس.

❁ ❁ ❁

المطلب الأول

الأدلة من القرآن الكريم على التحذير من معصية الرسول ﷺ وحكم من خالفه

ورد التحذير من معصية الرسول ﷺ في مواطن عدة من القرآن الكريم، وقد جاء التحذير مصحوباً بالوعيد الشديد لذلك المخالف العاصي، **ومن تلك المواطن**:

قوله تعالى: ﴿فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٦٣﴾﴾ [النور].

وقوله تعالى: ﴿وَمَن يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَتَعَدَّ حُدُودَهُ يُدْخِلْهُ نَارًا خَالِدًا فِيهَا وَلَهُ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿١٤﴾﴾ [النساء].

وقوله تعالى: ﴿وَمَن يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا مُّبِينًا ﴿٣٦﴾﴾ [الأحزاب].

وقوله تعالى: ﴿وَمَن يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَإِنَّ لَهُ نَارَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ﴿٢٣﴾﴾ [الجن].

وقوله تعالى: ﴿وَمَن يُشَاقِقِ الرَّسُولَ مِن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ الْهُدَىٰ وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصْلِهِ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيرًا ﴿١١٥﴾﴾ [النساء].

وقوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ شَاقُّوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَمَن يُشَاقِقِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَإِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴿١٣﴾﴾ [الأنفال].

وقوله تعالى: ﴿أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّهُ مَن يُحَادِدِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَأَنَّ لَهُ نَارَ جَهَنَّمَ خَالِدًا فِيهَا ذَٰلِكَ الْخِزْيُ الْعَظِيمُ ﴿٦٣﴾﴾ [التوبة].

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحَآدُّونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ كُبِتُوا۟ كَمَا كُبِتَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ وَقَدْ أَنزَلْنَآ ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍ ۚ وَلِلْكَٰفِرِينَ عَذَابٌ مُّهِينٌ ۝٥﴾ [المجادلة].

وقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحَآدُّونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ أُو۟لَٰٓئِكَ فِى ٱلْأَذَلِّينَ ۝٢٠﴾ [المجادلة].

وإن المتأمل في هذه الآيات يرى ما تضمَّنته من الوعيد الشديد والعقاب الأليم لمن خالف منهج الرسول وطريقته وشرعه وحاد عن كلِّ ما جاء به، فقوله تعالى: ﴿فَلْيَحْذَرِ ٱلَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِۦٓ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ۝٦٣﴾ [النور]، تحمل هذه الآية الوعيد الشديد لمن خالف أمر رسول الله ﷺ وشريعته، ومعناها: «أي: فليحذر وليخش من خالف شريعة الرسول ﷺ باطناً وظاهراً» ﴿أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ﴾؛ أي: في قلوبهم من كفر أو نفاق أو بدعة ﴿أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ۝٦٣﴾ في الدنيا بقتل أو حد أو حبس أو نحو ذلك[١].

هذا من جهة العقوبة الدنيوية كما فسر ابن كثير الآية بذلك.

أما على صعيد العقوبة الأخروية، فاقرأ الآية الأخرى وهي قوله تعالى: ﴿وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَتَعَدَّ حُدُودَهُۥ يُدْخِلْهُ نَارًا خَٰلِدًا فِيهَا وَلَهُۥ عَذَابٌ مُّهِينٌ ۝١٤﴾ [النساء]، وعلى هذا فإن المخالف العاصي متوعَّد بالعقوبتين الدنيوية والأخروية، إضافة إلى وصفه بالضلال البين الواضح بقوله تعالى: ﴿وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًا مُّبِينًا ۝٣٦﴾ [الأحزاب]، وفي هذا الوصف والجزاء للمخالف حكم بخروجه عن دائرة الإيمان.

كما أن كل من أعرض عن حكم الرسول ولم ينقد له ولم يرض به إلا إذا كان موافقاً لهواه فهو محكوم عليه بالنفاق بنص القرآن الكريم.

---

(١) تفسير ابن كثير (٣/ ٣٠٧).

قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ آمَنُوا بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَن يَتَحَاكَمُوا إِلَى الطَّاغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوا أَن يَكْفُرُوا بِهِ وَيُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَن يُضِلَّهُمْ ضَلَالًا بَعِيدًا ﴿٦٠﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا إِلَىٰ مَا أَنزَلَ اللَّهُ وَإِلَى الرَّسُولِ رَأَيْتَ الْمُنَافِقِينَ يَصُدُّونَ عَنكَ صُدُودًا ﴿٦١﴾﴾ [النساء].

وقال تعالى: ﴿وَإِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُم مُّعْرِضُونَ ﴿٤٨﴾ وَإِن يَكُن لَّهُمُ الْحَقُّ يَأْتُوا إِلَيْهِ مُذْعِنِينَ ﴿٤٩﴾ أَفِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ أَمِ ارْتَابُوا أَمْ يَخَافُونَ أَن يَحِيفَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَرَسُولُهُ ۚ بَلْ أُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴿٥٠﴾ إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ الْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَن يَقُولُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا ۚ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿٥١﴾﴾ [النور].

وهذه الآيات بيَّنت موقف كلا الطرفين ـ الطرف الأول أهل الإيمان الحقيقي والطرف الثاني أهل النفاق المظهرون للإسلام المخفون للكفر ـ من التحاكم لما جاء به الرسول ﷺ، فمن سمة المنافقين أنهم لا يتحاكمون لشرع الله إلا إذا كان الحق في صفهم وحكم الشرع لصالحهم، أما إذا كان الأمر على خلاف ذلك فلا ترى منهم سوى الإعراض عن شرع الله المتمثل في كتاب الله وسُنَّة نبيه ﷺ.

أما أهل الإيمان الذين ترسخ في قلوبهم الإيمان بشرع الله اعتقاداً بالقلب وقولاً باللسان وعملاً بالجوارح، فإن من صفاتهم وعلاماتهم تحاكمهم لكتاب الله وسُنَّة رسوله ﷺ في جميع أحوالهم وشؤونهم مع الرضا والتسليم لذلك الحكم، سواء كان لهم أم عليهم.

ولذلك فقد جاء وصف أهل الإيمان بالفلاح، فقال تعالى: ﴿وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿٥١﴾﴾، بينما وصف أهل النفاق بالظلم حيث قال تعالى: ﴿بَلْ أُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴿٥٠﴾﴾.

فيجب على المسلم أن يحذر من الوقوع في هذا العمل الخطير الذي من شأنه أن يوقع صاحبه في مثل هذه الصفات، ويعرضه لتلك العقوبات التي تحدثت بها آيات القرآن الواردة في هذا الشأن.

وقال ابن كثير عند تفسيره لقوله تعالى: ﴿وَمَن يُشَاقِقِ ٱلرَّسُولَ مِنۢ بَعۡدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ ٱلۡهُدَىٰ وَيَتَّبِعۡ غَيۡرَ سَبِيلِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ نُوَلِّهِۦ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصۡلِهِۦ جَهَنَّمَۖ وَسَآءَتۡ مَصِيرًا ﴿١١٥﴾﴾ [النساء]: «قوله: ﴿وَمَن يُشَاقِقِ ٱلرَّسُولَ مِنۢ بَعۡدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ ٱلۡهُدَىٰ﴾؛ أي: ومن سلك غير طريق الشريعة التي جاء بها الرسول ﷺ فصار في شق والشرع في شق، وذلك عن عمد منه بعدما ظهر له الحق وتبين له واتضح، وقوله ﴿وَيَتَّبِعۡ غَيۡرَ سَبِيلِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ هذا ملازم للصفة الأولى ولكن قد تكون المخالفة لنص الشارع وقد تكون لما أجمعت عليه الأمة المحمدية فيما علم اتفاقهم عليه تحقيقاً، فإنه قد ضمنت لهم العصمة في اجتماعهم من الخطأ تشريفاً لهم وتعظيماً لنبيهم، وقد وردت أحاديث صحيحة كثيرة في ذلك...

ولهذا توعد تعالى على ذلك بقوله: ﴿نُوَلِّهِۦ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصۡلِهِۦ جَهَنَّمَۖ وَسَآءَتۡ مَصِيرًا ﴿١١٥﴾﴾؛ أي: إذا سلك هذه الطريق جازيناه على ذلك بأن نحسنها في صدره ونزينها له استدراجاً له كما قال تعالى: ﴿فَذَرۡنِي وَمَن يُكَذِّبُ بِهَٰذَا ٱلۡحَدِيثِۖ سَنَسۡتَدۡرِجُهُم مِّنۡ حَيۡثُ لَا يَعۡلَمُونَ ﴿٤٤﴾﴾ [القلم]، وقال تعالى: ﴿فَلَمَّا زَاغُوٓاْ أَزَاغَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمۡۚ﴾ [الصف: ٥]، وقوله: ﴿وَنَذَرُهُمۡ فِي طُغۡيَٰنِهِمۡ يَعۡمَهُونَ ﴿١١٠﴾﴾ [الأنعام].

وجعل النار مصيره في الآخرة، لأن من خرج عن الهدى لم يكن له طريق إلا إلى النار يوم القيامة»[١].

ولقد ذكر الله تبارك وتعالى في كتابه العزيز عدداً من قضايا المخالفة وعلى رأسها التحاكم إلى غير ما أنزل الله، فهذا الداء من أعظم المخاطر وبخاصة في زماننا هذا الذي طرح فيه كثير ممن ينتمون إلى الإسلام كتاب الله وسُنَّة نبيه ﷺ وراء ظهورهم، واعتاضوا عنهما بقوانين الكفار وآراء ابتدعوها تقوُّلاً على الشريعة حتى جعلوا لتلك القوانين

---

(١) تفسير ابن كثير (١/ ٥٥٤، ٥٥٥).

محاكم تحمى بقوة السلطان وأجبروا الناس على التحاكم إليها.

والحكم بغير ما أنزل الله هو من أعظم أسباب المقت والحرمان وأكبر موجبات العقوبة والخذلان، كيف لا وهو شرع دين لم يأذن به الله واتباع لغير سبيل المؤمنين ومشاقة ومحادة ومحاربة وخيانة لله ولرسوله ﷺ واتخاذ لدين الله هزواً ولهواً ولعباً وتبديلاً لنعمة الله إلى غير ذلك من المفاسد والمحاذير التي لا تدخل تحت حساب.

وقال تعالى: ﴿وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٤٤﴾﴾ [المائدة].

وقال تعالى: ﴿وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٤٥﴾﴾ [المائدة].

وقال تعالى: ﴿وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿٤٧﴾﴾ [المائدة].

وقال تعالى: ﴿وَذَرِ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ دِينَهُمْ لَعِبًا وَلَهْوًا وَغَرَّتْهُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا﴾ [الأنعام: ٧٠]، وقال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ بَدَّلُواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ كُفْرًا وَأَحَلُّواْ قَوْمَهُمْ دَارَ ٱلْبَوَارِ ﴿٢٨﴾ جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا وَبِئْسَ ٱلْقَرَارُ ﴿٢٩﴾﴾ [إبراهيم].

وقال تعالى: ﴿أَمْ لَهُمْ شُرَكَٰٓؤُاْ شَرَعُواْ لَهُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَنۢ بِهِ ٱللَّهُ﴾ [الشورى: ٢١].

وقال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ ءَامَنُواْ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَن يَتَحَاكَمُوٓاْ إِلَى ٱلطَّٰغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوٓاْ أَن يَكْفُرُواْ بِهِۦ وَيُرِيدُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَن يُضِلَّهُمْ ضَلَٰلًۢا بَعِيدًا ﴿٦٠﴾﴾ [النساء].

قال ابن القيم: «قال أهل التحقيق من أهل التفسير: الطاغوت كل ما تجاوز به العبد حده من معبود أو متبوع أو مطاع، فطاغوت كل قوم من يتحاكمون إليه غير الله ورسوله، أو يعبدونه من دون الله، أو يتبعونه على غير بصيرة من الله، أو يطيعونه فيما لا يعلمون أنه طاعة لله.

فهذه طواغيت العالم إذا تأملتها وتأملت أحوال الناس معها رأيت أكثرهم انحرف عن عبادة الله إلى عبادة الطاغوت، وعن طاعته ومتابعة رسوله إلى طاعة الطاغوت ومتابعته، وهؤلاء لم يسلكوا طريق الناجين الفائزين من هذه الأمة وهم الصحابة ومن تبعهم ولا قصدوا قصدهم بل خالفوهم في الطريق والقصد معاً، ولو لم يكن في القرآن المجيد من الزجر عن اتباع القوانين البشرية غير هذه الآية الكريمة لكفت العاقل اللبيب، فكيف والقرآن الكريم كله يدعو إلى تحكيم ما أنزل الله، وعدم تحكيم ما عداه[(١)].

وبما تقدم من آيات يعلم المسلم خطورة مخالفة الرسول ﷺ والإعراض عن سُنَّته ومنهجه والشرع الذي جاء به من عند ربه.

فالآيات السابقة وما كان على منوالها فيها خطاب لكل معرض عن سُنَّة النبي ﷺ ومنهجه وشرعه الذي جاء به، وهي بما تضمنته من الوعيد الشديد بمثابة الإنذار لكل من كان على هذه الحال لكي يكون على بينة من أمره فيعلم على أي ذنب قد أقدم ولأي جرم قد ارتكب ﴿لِّيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنۢ بَيِّنَةٍ﴾ [الأنفال: ٤٢] وذلك قبل أن يكون من أولئك الذين يتحسرون ويعضون أيديهم ندماً في يوم القيامة ﴿وَيَوْمَ يَعَضُّ ٱلظَّالِمُ عَلَىٰ يَدَيْهِ يَقُولُ يَٰلَيْتَنِى ٱتَّخَذْتُ مَعَ ٱلرَّسُولِ سَبِيلًا ﴿٢٧﴾ يَٰوَيْلَتَىٰ لَيْتَنِى لَمْ أَتَّخِذْ فُلَانًا خَلِيلًا ﴿٢٨﴾ لَّقَدْ أَضَلَّنِى عَنِ ٱلذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جَآءَنِى ۗ وَكَانَ ٱلشَّيْطَٰنُ لِلْإِنسَٰنِ خَذُولًا ﴿٢٩﴾﴾ [الفرقان].

ومعلوم أن كل من ترك ما جاء به الرسول ﷺ فإنه قائل لهذه المقالة لا محالة. فنعوذ بالله ممن هذه حاله ويوم القيامة تكون نار جهنم مآله وقراره.

❊ ❊ ❊

(١) تيسير العزيز الحميد (ص٤٩٣).

المطلب الثاني

الأدلة من السُّنَّة على التحذير من معصية الرسول ﷺ وحكم من خالفه

جاءت السُّنَّة بمثل ما جاء به القرآن الكريم، فالأحاديث متوافرة، ومتعددة في هذا الشأن، فقد حذَّر النبي ﷺ من الإعراض عن سُنَّته والبعد عنها أو الانتقاص من قدرها ومكانتها أو مخالفتها.

وهذا التحذير منه ﷺ والوارد في عبارات متنوعة وأساليب متعددة ـ كما سيمر عليك ـ يصور مدى حرصه ﷺ على حماية أمته وصيانتهم من الوقوع في هذا المزلق الخطير، ولا غرابة في ذلك فهو الموصوف بقوله تعالى: ﴿عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢٨﴾﴾ [التوبة].

ومما ورد في تصوير مدى حرصه ﷺ على أمته وتحذيره لهم من الوقوع في مخالفته قوله ﷺ في الحديث الذي يرويه عنه أبو هريرة رضي الله عنه: «**مثلي ومثلكم كمثل رجل استوقد ناراً فلما أضاءت ما حولها جعل الفراش وهذه الدواب اللائي يقعن في النار يقعن فيها وجعل يحجزهن ويغلبنه فيقتحمن فيها** ـ قال ـ **فذلك مثلي ومثلكم أنا آخذ بحُجزكم عن النار هلم عن النار فتغلبوني وتقتحمون فيها**».

وهذا الحديث إضافة إلى كونه يصور مدى حرصه ﷺ على أمته فهو يبين كذلك أن سبيل النجاة والفلاح إنما هو باتباع سُنَّة النبي ﷺ والأخذ بها، وأن كل مخالف ومجانب لهذه السُّنَّة فهو يلقي بنفسه إلى التهلكة وذلك بسبب بُعده ومخالفته لشرع المصطفى ونهجه الذي جاء به.

ومن المعلوم أن النبي ﷺ قد بيَّن لأمته سبيل النجاة والفلاح وحثهم على سلوكه والسير عليه، كما حذرهم من سبل الهلاك والضلال وبيَّن لهم ماضيها من الخسران والتعاسة الدنيوية والأخروية، قال تعالى: ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِي مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٥٣﴾﴾ [الأنعام]، وهذه الوصية عامة لكل من شهد أن لا إلٰه إلا الله وأن محمداً رسول الله، وقد ختم الله الآية بقوله ﴿لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٥٣﴾﴾. والتقوى حقيقتها: «العمل بطاعة الله إيماناً واحتساباً، أمراً ونهياً، فالمتقي يفعل ما أمره الله به إيماناً بالأمر وتصديقاً بوعده، ويترك ما نهى الله عنه إيماناً بالنهي وخوفاً من وعيده».

وقال طلق بن حبيب(١): «التقوى أن تعمل بطاعة الله على نور من الله ترجو ثواب الله وأن تترك معصية الله على نور من الله، تخاف عقاب الله». وطاعة الله تتحقق بطاعة رسوله والسير على نهجه وسلوك سبيله، قال تعالى: ﴿مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ ٱللَّهَ﴾ [النساء: ٨٠].

وفي الحديث: «**فمن أطاع محمداً ﷺ فقد أطاع الله، ومن عصى محمداً ﷺ فقد عصى الله**».

ولذلك فإنه لم يبق للإنسان إلا أن يختار أي الطريقين يسلك، قال تعالى: ﴿إِنَّا هَدَيْنَٰهُ ٱلسَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا ﴿٣﴾﴾ [الإنسان]، وليتحمَّل بعد ذلك مسؤولية ما قدم من عمل كما قال تعالى: ﴿بَلِ ٱلْإِنسَٰنُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ بَصِيرَةٌ ﴿١٤﴾ وَلَوْ أَلْقَىٰ مَعَاذِيرَهُۥ ﴿١٥﴾﴾ [القيامة]، وقال تعالى: ﴿وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَٰنِ إِلَّا مَا سَعَىٰ ﴿٣٩﴾ وَأَنَّ سَعْيَهُۥ سَوْفَ يُرَىٰ ﴿٤٠﴾ ثُمَّ يُجْزَىٰهُ ٱلْجَزَآءَ ٱلْأَوْفَىٰ ﴿٤١﴾﴾ [النجم].

وإن المسلم الواعي العارف لأمور دينه يعلم أن الخير كل الخير في

(١) طلق بن حبيب العنزي البصري: تابعي ثقة كان أعبد أهل زمانه، قتله الحجاج مع سعيد بن جبير. تهذيب التهذيب (٥/ ٣١ ـ ٣٢).

اتباع النبي ﷺ والتمسك بسُنَّته والسير على هديه، وأن الشر كل الشر في البعد عن سُنَّته ومخالفته. ولذا تراه حريصاً على سُنَّة المصطفى متمسكاً بها في كل أحواله، وفي الوقت نفسه يحذر أشد الحذر من مخالفة الرسول ﷺ والبعد عن سبيله ومنهجه. ومثل هذا الاعتقاد يجب على كل مسلم أن يعتقده ويطبقه في أقواله وأعماله ليسعد وينجو في دنياه وآخرته.

ومما يؤسف له أن كثيراً من المسلمين لا يولي هذا الجانب اهتمامه وعنايته بل تراه على النقيض من ذلك حتى إن بعضهم ليس له من الإسلام إلا اسمه فقط، ذلك لأن أقواله وأفعاله مناقضة للشرع ولا تمت إليه بصلة، وتراه كذلك راغباً عن سُنَّة المصطفى متحاكماً في أكثر شؤونه وأحواله إلى غير الكتاب والسُّنَّة. ومن كانت هذه صفاته فالإسلام منه براء وهو بريء من الإسلام، فقد قال ﷺ: «**من رغب عن سُنَّتي فليس مني**».

ولقد ذمَّ النبي ﷺ هذا الصنف من الناس وحذَّر منهم، فعن حذيفة بن اليمان رضي الله عنه قال: «كان الناس يسألون رسول الله ﷺ عن الخير وكنت أسأله عن الشر مخافة أن يدركني، فقلت: يا رسول الله، إنا كنا في جاهلية وشر فجاءنا الله بهذا الخير فهل بعد هذا الخير من شر؟، قال: «**نعم**». قلت: وهل بعد ذلك الشر من خير؟، قال: «**نعم وفيه دخن**»، قلت: وما دخنه؟، قال: «**قوم يهدون بغير هديي تعرف منهم وتنكر..**» الحديث.

فالشاهد من الحديث قوله ﷺ: «**قوم يهدون بغير هديي**»، فالنبي ﷺ ذم من جعل للدين أصلاً خلاف الكتاب والسُّنَّة، أو جعلهما فرعاً لذلك الأصل الذي ابتدعه وأمثال هؤلاء كثيرون، فكم من شخص ينتمي للإسلام جعل من الفلاسفة حكماً على كل شيء حتى على كتاب الله وسُنَّة نبيه ﷺ، وكم من شخص نبذ شرع الله وراء ظهره وتحاكم إلى القوانين الوضعية المستوردة من بلاد الكفر والإلحاد. وكم من شخص

جعل الهوى وشهوات النفس ديناً يدين به، فإذا جاءه أمر الشارع أخذ منه ما وافق هواه ورأيه وأعرض عما عداه. وكم من فئة وطائفة في زماننا الحاضر ينطبق عليها قول النبي ﷺ هذا. والذي ينبغي على كل أحد أن يعلمه هو أنه بمقدار اتباع المرء لسُنَّة المصطفى ﷺ، يكون فلاحه ونجاته، فالأقوال والأعمال يتوقف قَبولها أو ردها على حسب موافقتها لما جاء به النبي ﷺ، فما وافق سُنَّة النبي ﷺ قُبل، وما خالفها فهو مردود على قائله وفاعله كائناً من كان، وفي ذلك يقول ﷺ: «**من عمل عملاً ليس عليه أمرنا فهو رد**».

وإن المُعرض عن سُنَّة المصطفى ﷺ والمخالف لها معرض للعقوبة في الدنيا والآخرة، وذلك بحسب ما يقع منه من إعراض.

فعن سلمة بن الأكوع[١] رضي الله عنه أن رجلاً أكل عند رسول الله ﷺ بشماله. فقال: «**كُلْ بيمينك**»، قال: لا أستطيع، قال: «**لا استطعت**» ما منعه إلا الكبر، قال: فما رفعها إلى فيه»[٢]، فهذه عقوبة دنيوية لهذا الشخص الذي عصى أمر النبي ﷺ.

وعن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: «قرأ النبي ﷺ «النجم» فسجد، فما بقي أحد إلا سجد، إلا رجل رأيته أخذ كفاً من حصى فرفعه فسجد عليه وقال: هذا يكفيني، فلقد رأيته بعد قتل كافراً بالله»[٣]، وهذا الرجل

---

(١) سلمة بن عمرو بن الأكوع: صحابي جليل أول مشاهده الحديبية، وكان من الشجعان ويسبق الفرس عدواً، مات بالمدينة سنة أربع وسبعين على الصحيح. الإصابة (٢/ ٦٥).

(٢) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الأشربة، باب آداب الطعام والشراب وأحكامهما (٦/ ١٠٩).

(٣) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب مناقب الأنصار، باب ما لقي النبي ﷺ وأصحابه من المشركين بمكة. انظر: فتح الباري (٧/ ١٦٥). وأخرجه مسلم في صحيحه، كتاب المساجد، باب سجود التلاوة (٢/ ٨٨).

هو أمية بن خلف[1] وقد قتل ببدر كافراً.

وعن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما عن النبي ﷺ أنه قال: «**بعثت بين يدي الساعة بالسيف حتى يعبد الله وحده لا شريك له، وجعل رزقي تحت ظل رمحي، وجعل الذلة والصغار على من خالف أمري، ومن تشبه بقوم فهو منهم**»[2].

والشاهد من الحديث قوله ﷺ: «**وجعلت الذلة والصغار على من خالف أمري**»، وعنه رضي الله عنه قال: «أقبل علينا رسول الله ﷺ بوجهه فقال: «**يا معشر المهاجرين خمس إذا ابتليتم بهن، وأعوذ بالله أن تدركوهن: لم تظهر الفاحشة في قوم قط حتى يعلنوا بها إلا فشا فيهم الطاعون والأوجاع التي لم تكن مضت في أسلافهم الذين مضوا، ولم ينقصوا المكيال والميزان إلا أُخذوا بالسنين وشدة المؤونة وجور السلطان عليهم، ولم يمنعوا زكاة أموالهم إلا منعوا القطر من السماء، ولولا البهائم لم يمطروا، ولم ينقضوا عهد الله وعهد رسوله إلا سلط الله عليهم عدواً من غيرهم فأخذ بعض ما في أيديهم، وما لم تحكم أئمتهم بكتاب الله ويتخيروا مما أنزل الله، إلا جعل الله بأسهم بينهم**»[3]. فهذا بعض ما ورد في السُّنَّة في العقوبات الدنيوية.

أما على صعيد العقوبات الأخروية فالأمر أشد وأعظم، فالآخرة هي دار الجزاء والثواب والعقاب.

---

(١) فتح الباري (٨/ ٦١٤).

(٢) أخرجه الإمام أحمد في مسنده (٢/ ٥٠/ ٩٢) وقد جوَّد إسناده شيخ الإسلام ابن تيمية في كتابه: اقتضاء الصراط المستقيم (ص٣٩)، وحسنه الحافظ ابن حجر في الفتح (١٠/ ٢٣).

(٣) أخرجه ابن ماجه في السنن، كتاب الفتن، باب العقوبات (٢/ ١٣٣٢، ١٣٣٣) (ح٤٠١٩).

فعن أبي هريرة ﷺ أن رسول الله ﷺ أتى المقبرة فقال: «**السلام عليكم دار قوم مؤمنين وإنا إن شاء الله بكم لاحقون، وددت أنا قد رأينا إخواننا**. فقالوا: أوَلسنا إخوانك يا رسول الله؟، قال: **بل أنتم أصحابي، وإخواننا الذين لم يأتوا بعد، وأنا فرطهم**[(١)] **على الحوض**. فقالوا: كيف تعرف من لم يأت بعد من أمتك يا رسول الله؟، فقال: **أرأيت لو أن رجلاً له خيل غر**[(٢)] **محجلة**[(٣)] **بين ظهري خيل دُهُم بُهُم**[(٤)] **ألا يعرف خيله؟**. قالوا: بلى يا رسول الله، قال: **فإنهم يأتون غراً محجلين من الوضوء وأنا فرطهم على الحوض، ألا ليذادنَّ رجال عن حوضي كما يذاد البعير الضال أناديهم ألا هلم، فيقال: إنهم قد بدلوا بعدك فأقول: سحقاً سحقاً**»[(٥)].

فتلك عقوبة من حاد عن شرع المصطفى ﷺ ومال عنه واستبدل به غيره.

وعن عبد الله بن مسعود ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «**هلك المتنطعون**» قالها ثلاثاً[(٦)].

قال النووي: «أي: المتعمِّقون الغالون المجاوزون الحدود في

---

(١) فرطهم؛ أي: متقدمهم إليه. يقال: فرط يفرط، فهو فارط وفرط: إذا تقدم وسبق القوم ليرتاد لهم الماء، ويهيئ لهم الدلاء والأرشية. النهاية (٣/ ٤٣٤).

(٢) الغر: جمع الأغر، من الغرة بياض الوجه، يريد بياض وجوههم بنور الوضوء يوم القيامة. النهاية (٣/ ٣٥٤).

(٣) الحجل في صفة الخيل: هو الذي يرتفع البياض في قوائمه إلى موضع القيد، ويجاوز الأرساغ ولا يجاوز الركبتين. النهاية (١/ ٣٤٦).

(٤) دُهُم؛ أي: سود. النهاية (٢/ ١٤٥، ١٤٦)، بُهُم: جمع بهيم وهو الذي لا يخالط لونه لون سواه. النهاية (١/ ١٦٧).

(٥) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الطهارة، باب استحباب إطالة الغرة والتحجيل في الوضوء (١/ ١٥٠، ١٥١).

(٦) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب العلم، باب هلك المتنطعون (٨/ ٥٩).

أقوالهم وأفعالهم»[١]، فالنبي ﷺ أخبر بهلاك كل من بالغ في التعمق في أمور الشرع وغلا فيها، وتكلف في أمور لم ترد عن الشارع الكريم ولم تكن من مقصوده.

وعن أبي بكر الصديق رضي الله عنه قال: «لست تاركاً شيئاً كان رسول الله ﷺ يعمل به إلا عملت به، إني أخشى إن تركت شيئاً من أمره أن أزيغ».

والشواهد من القرآن والسُّنَّة وكلام السلف الصالح في هذا الشأن كثيرة ولا تكاد تحصى.

والقصد هنا بيان أن التولي عما جاء به النبي ﷺ من أمور الشرع من أكبر الذنوب، وهو سبب لانصباب المصائب وتتابع النوائب، فإن الجزاء من جنس العمل ومن تولى عن حكم الله وحكم رسوله تولى الله ورسوله عنه، ومن تولى الله ورسوله عنه فهيهات أن يفلح ويعز بل يتركه الله أذل وأحقر ما يكون، قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحَآدُّونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ أُوْلَٰٓئِكَ فِى ٱلْأَذَلِّينَ ﴿٢٠﴾﴾ [المجادلة].

وليحذر المسلم من مخالفة الشريعة التي جاء بها محمد ﷺ من عند ربه عز وجل، فإن في المخالفة عين الهلاك والخسران كما قال تعالى في سورة طه: ﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِى فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ أَعْمَىٰ ﴿١٢٤﴾﴾.

❊ ❊ ❊

(١) شرح النووي لصحيح مسلم (١٦/ ٢٢٠).

فهرس الموضوعات

الموضوع — الصفحة

الموضوع | الصفحة

الموضوع | الصفحة

الموضوع الصفحة